(أبو حيان في طنجة (رواية

بهاء الدين الطود

(1)

مسمّراً فوق مقعدي بقيت طيلة المسافة الفاصلة بين الميناءيْن الإسباني والمغربي، المتناوبَيْن على دون أن أهتم بأني أُجبرت على الجلوس بأمر من الشرطيَّيْن تلك الهوة السحيقة التي حراستي، فاهتمامي الوحيد كان مصوّبا إلى ما بداخلي، إلى باعدت بيني وبين كل ما يحيط بي.

من كان الطقس دافئاً مشمساً، والأمواج متراخية غافية، كأنها تخشى إيقاظ البحر سباته، وبعض راكبي الباخرة يصعدون إلى شرفات سطحها ناشدين تأمل الأفق أو التزود بمتعة مشاهدة البحر، أو ربما كان الطقس نقيض ما توقعت، مكفهراً مضطرباً، والبحر في أشد هيجانه، تتعالى أمواجه وتتلاطم، فتعترض سير السفينة ساعية في ابتلاعها.

من أين لي أن أعرف كل هذا؟

من أين لي أن أعرف ما كان يقع خارج دائرة نفسي، وكل اهتمامي كان منصبّاً على مصيبتي؟

كنت أحس أن خيطاً رقيقاً يربط ماضي بحاضري سينقطع بين لحظة وأخرى، فأنفصل عن أحد الزمانين، وأدور في أبديّة لا نهاية لها.

هكذا كنت في حالة خارقة من الذوبان في دواخلي، وحين كنت أجرؤ على التفكير ما عادوا فيما يجري حولي، أجده منفراً مقزّزاً، فالأماكن لم تعد هي الأماكن والناس ما ألفته هم الناس، والروائح لم تعد هي الروائح، والكلمات، والإشارات، وكل حواسي، اختفى واندثر، وحل مكانه الهلام.

الباخرة العملاقة نفسها، لم يستوعبها عقلي، فقد ظننتها قصراً خرافياً تسحبه الشياطين بخيوط غير مرئية فوق أمواج البحر.

وقلت لنفسي، لا يمكن لهذه أن تكون باخرة، فليس بها رجال ذوو قامات مديدة وسواعد مفتولة يتناوبون على التجديف، أو أشرعة ما تدفعها إلى السير بهذه

السرعة!

إن لم يكن عالم السحرة والشياطين، فهو عالم آخر أجهله تماماً.

وعرة، انتصبت واقفاً بأمر من الشرطيين وخطوت رفقتهما، انحدرنا في سلالم ضيقة شاسعة فذهب ظني إلى أنها ستفضي بنا إلى بئر سحيقة، لكنها أسلمتنا إلى باحة فولاذية السقف والأرض والجدران.

كدت أختنق من روائح قوية عافتها نفسي، ومن هدير كدويّ رعد متواصل صادر إحدى زوايا تلك الباحة، شموع قصيرة مبثوثة في سقفها لاتطفئها أعتى الرياح، من العدوة هي الشموع ذاتها التي أفزعتني في الليلة السابقة بعد أن ألقي عليّ القبض في الأندلسية فحسبتها عيون شياطين، وتراءت لي كوة ضخمة مرعبة تفضي إلى فولاذياً لم الخارج، لكن بعد أن غادرناها تبيّن لي أنها باب كبير، وأن ما ظننته سجنا يكن سوى بطن السفينة الخرافية العملاقة.

واستقبلني فضاء مزعج مضاء بِسُرَجٍ مبثوثة هنا وهناك، لا تبدد الظلام القاتم فحسب وإنما تُحِيلُهُ نهاراً متألِّقاً.

سرت محاطا بالشرطيين، أستدير برأسي يمينا ويساراً، فضغطت بشدة على عنقي جواد لأتبَيّن إن كنت حقا أعيش هذا الواقع وأنني لست في حلم، وانتفض قلبي مثل امرأة أخرى جموح حين شاهدت "نهاوند"، لكن، منذ الوهلة الأولى، تبيّن لي أنها نهاوند" ظلت " تشبهها، فلم أغضّ الطرف عنها إلا بعد أن تعثرت في سيري، لكن الخفية إلاّ من خلال مشعة في ذهني، فتذكرت أنه لم يسبق لي أن تحسّسْتُ مفاتنها الحياة كما يفعل مرافق أصابع يدي ليلا في مضجعي، وليس أمام الملأ ودبيب حركة عن مفاتنهن بتلقائية، ورجال المرأة الشبيهة بها. نسوة أخريات كن يسرن وقد كشفن خجل أو وجل أزالوا لحاهم وشواربهم وقصوا من شعر رؤوسهم دون.

إلى ولجنا داراً كبيرة كتب فوق مدخلها "مفوضية شرطة الميناء"، عرفت أني أدخل دار الشرطة، وأن الرجال أصحاب الأحزمة الجلدية والقبعات الغريبة هم من الشرطة، أشاروا عليّ بالجلوس فوق مقعد خشبي إلى جانب رهط من الناس، فجلست.

جاء شرطي بدين وأمسك بقفاي، ثم جرني من بين الجالسين إلى مكتبٍ فسيحٍ، اسمه وأمرني بالجلوس فوق مقعد أمام "الحاج إبراهيم"، ضابط الشرطة الممتاز، كان

وصفته منحوتين على لوح صغير بني اللون وضع أمامه، بينما جلس هو خلف منضدة توزعت فوقها أوراق وصكوك وأدوات لا أعرفها؟

وبدون مقدمات قذف الرجل في وجهي بذات الأسئلة الغريبة التي ألقيت عليَّ من لدن شرطة الباخرة، بعد أن تسلمتني من شرطة الأندلس.

ــ ما اسمك؟ كيف تسللت إلى إسبانيا؟ أين تقيم؟

وجه كرّر أسئلته أكثر من مرّة، لكني بقيت أحدّق في عينيه الضيقتين المطلتين من إلى مستطيل، حليق، صقيل إلا من شارب مَوْخُوطٍ بشيب دون أن أجيبه، فالتفتَ كأنني كلب، مرافقيْه الواقفيْن بجانبه، أحدهما بدين مكرّش، هو الذي قادني من قفاي استنطاقي، وخاطبهما والثاني نحيل رَثُّ الهيئة أصفر اللون، تولى كتابة محضر:

ــ لا أبداً، ليس مجنونا كما تظنان، إنه يدّعي الجنون، لاغير.

وتدخل الشرطي البدين الذي رافقني في الباخرة، مخبراً رئيسه:

ــ حاولنا يا سيدي جرّ لسانه إلى العربية وإلى لغات أخرى، حتى ظنناه أطرشَ أو وجهينا أصمَّ، أبكمَ. فاستعملنا لغة الإشارات، فلم يرد بشيء، بل ظل يحملق في وكأنه لايرانا، تماماً كما يفعل الآن.

ضرب "الحاج إبراهيم" بقبضة يده اليمنى على المنضدة حتى كادت تتطاير الأوراق من فوقها، وقطّب حاجبيه فازدادت عيناه الضيقتان انسداداً، وقال لي:

ــ لن يجديك هذا الصمت، فستُحبس، وتُجَوَّع، ويُدَقّ رأسك إلى الأرض إلى أن تعترف!

حركت رأسي كمن يفهم دون أن أَنْبِسَ بكلمة، فسادت فترة صمت خفيفة، تبادل يقال، الرجال خلالها نظرات ذاهلة، أكدت يقينهم بأني كنت أسمع، وأستوعب ما كان أقصر ولعلهم فكروا في أنّ التهديد بحبسي وتجويعي وضرب رأسي إلى الأرض هو قيل، السبل لتتدفق من فمي أجوبة ترضي مآربهم. كنت أسمع في الحقيقة كل ما بدواخلي، على لكنني لم أحفل بأي تهديد، فرعبي الوحيد كان منصباً على ما يجري بالوحدة، بوعيي الكامل انشغالي بشأني النفسي المفجوع بالغربة، بإحساسي الشنيع بوجودي في غير مكاني، وفي غير زماني.

وحين حركت رأسي إشارة إلى كوني أسمع وأفهم، كانت تراودني فكرة التحدث إليهم، علني بذلك أكتشف بعض الغموض عن نواياهم، أو عن مصيري مثلا،

:"وجهت كلامي إلى رئيسهم "الحاج إبراهيم .ونطقت

ــ سيدي أطال الله عمرك، ما كنت يوماً لصاً ولا شريرا ولا جبانا، ومادمت لا إلى أخفي سُوءاً ضد الله ولا ضد عباده، فلن يرعبني أي تهديد، ولعلمك، فقد جئت وأهل المغرب، ينتابني شوق عارم إلى ملاقاة فلاسفة وفقهاء من ديار أهل المغرب والحكمة، وكان ظني الأندلس، لا أقل ولا أكثر، إنني قدمت مهاجراً ناشداً المعرفة لكنني وحسبي ما وجدت أني سأجد قوماً يكرمون وفادة الغريب ويقدرونه حق قدره، .بالاغتراب سوى ما غَشَّى صدري بالغم، ورأسي بالكمد، ونفسي

ما أن أتممت جملتي الأخيرة حتى رأيت الذهول قد طغى على وجوه الرجال، وأخذ ينظر بعضهم إلى بعض في تساؤل من الْتبس عليه الأمر، وقد فغرت أفواههم، .وجحظت أعينهم وكأنني فهت بكلام غريب مبهم، لا يصدر عن إنسان عاقل

بهندامي أنا أيضاً أصبت بالارتباك، والتبس عليَّ الحال، فظننت أن الأمر قد يتعلق :الغريب مما جعلني ألقي نظرة فاحصة على نفسي، وتابعتُ قولي

قمصاناً ــ إن أحدهم في ثغر "المُنَقَّبْ" سترني بهذه الثياب، فو الله ما عرف جسدي أنكم ولا سراويل بهذا الشكل، ولا حتى غادرت بيتي يوما عاري الرأس، أعرف سر تريدون أجوبة مني على أسئلتكم، أنا أيضا أرغب في أجوبة منكم تستجلي لي هذا الغموض المحيط بي، فَتُزِيحُ عن صدري غمه، وعن رأسي كمده، وعن نفسي !غربتها، فهل تبدأون فأفصح، أو أبدأ فتفصحون؟

ظلت الدهشة مرسومة على محياهم إلى أن تحدث "الحاج إبراهيم" متلعثماً، محاولا :اصطناع جملٍ عربية سليمة

البليغ ــ حاشا يا سيدي أن تكونوا لصاً أو ما شابه. في الحقيقة فاجأنا كلامكم من واجبنا الفصيح، أدهشنا صوتكم العذب الرنان، إننا على استعداد لمساعدتكم، بل .على أسئلتي أن نوضح لكم ما التبس عليكم، إنما قبل ذلك، أريد أجوبة صريحة :حركت رأسي بالإيجاب، فنطق

ــ ما هو اسمكم وما هي جنسيتكم؟

:لم أقو على إخفاء ما غشى وجهي من استخفاف بسؤاله، منطقيا ولُغَوِيّاً، فأجبته .حيان التوحيدي علي بن محمد بن العباس"، وجنسي ذكر، عربي مسلم ــ اسمي "أبو

!ــ أنا أسأل عن جنسيتكم وليس عن جنسكم

وبالاستخفاف الممزوج بالامتعاض نفسه أجبته:

ــ أنا يا سيدي رجل واحد فرد، وأنت تخاطبني بصيغة الجمع، فهل ترى في شخصي جمعاً من الرجال، أم أن هناك سبباً أجهله وراء هذا الخطاب؟

(2)

تدخل الشرطي النحيل الأصفر الملامح، موجها كلامه إلى رئيسه:

ــ أسأله من أي بلد هو قادم، أقصد عن اسْمِ بلده.

فاستجاب له رئيسه، معيداً سؤاله بصيغة معقولة:

ــ من أي بلد قدمت؟

استرخت أسارير وجهي وأنا أجيبه:

ــ من "بغداد" يا سيدي.

التفت "الحاج إبراهيم" إلى معاونيه، وكمن يخاطب نفسه قال لهما:

ــ يقول من "بغداد!"، أما كان أولى أن تسلمه السلطات الإسبانية مباشرة إلى بلده عوض أن تحيله علينا.

ثم نظر إليَّ:

ــ ألديك أوراقٌ تثبت أنك عراقي؟

مرة أخرى يجانب سؤاله الصواب، لكنني أجبته:

ــ لم يسبق أن حصّلت وثيقةً تثبت ولائي للعراق ولا إلى بلد آخر؟

ــ وكيف تريدني أن أقتنع بأنك عراقي؟

على الرغم من غموض سؤاله، لم أسخر منه، كنت أرغب في أن أكون صريحاً وصادقاً، فقلت له:

ــ وما مرادك يا سيدي لكي تتأكد إن كنت عراقيا أم فارسيا أم حجازياً، أليس الوطن حيث أقامك الله؟! مع أني أجهر بأني عراقي، صراحة أود لو أعرف؟

أطرق صامتاً وكأن كلامي فاجأه، فتابعت حديثي:

ــ سبق يا صاحب السلطة أن أخبرتك بأنني مسلم، وفي ملتي واعتقادي أن المسلمين ورفعاً في ديار الإسلام سواسية، إلا إذا كان لك شك في إسلامي، ففي هذه الحال، والفروع لأي غموض، أعلن أمامك بأنني مسلم حنبلي، عالم متفقه في الأصول

والحديث، وأمور الفقه عامة، من مذاهب ونحل ومسالك ومعاملات.

طلب مني أن أصمت قليلا، وأشار على معاونيه بالسكوت، ووضع راحة يده على جبينه، وسرح ساهماً وكأنه يواجه حالة شاذة فريدة تقتضي حرصه وصبره، أو كأن ما أواجهه به يجانب في نظره المنطق والصواب.

بعد برهة، خاطبني وهو يحاول أن يبدو هادئاً:

إن ــ إنني يا سيدي لا أشك في إسلامك، وقد أعجبتني ثقافتك وراقتني دقة أجوبتك، ما أرغب فيه صراحة هو أن أعرف كيفية مجيئك إلى المغرب، وطريقة دخولك إلى إسبانيا؟

طأطأت رأسي موافقاً مستحسناً سؤاله، وخضت في الحديث:

ــ قدمت إلى المغرب كحال جميع الوافدين عليه، أما إذا كان قصدك أن تعرف الطريق الذي سلكته، فلا أرى بأسا من إطلاعك على تفاصيل رحلتي بكاملها.

أسرع يقول بلسان تشوبه بشاشة معينة:

ــ تماما تماماً، ذلك ما أرغب فيه، استمر استمر.

وتابعت حديثي:

ــ يمّممت وجهي شطر دمشق، فالإسكندرية، فبرقة، فالقيروان، فتلمسان، إلى أن دخلت حاضرة فاس، سليماً معافى ولله الحمد.

أجده وقد أنستني فاس ما كان قد تخلل رحلتي من محن ونوائب، إذ وجدت بها ما لم في حواضر غيرها، مرتفعات مزدانة بشجر الغاب، ونباتات الكروم، والتين والموز والزيتون، والليمون والتفاح، والمشمش والبرقوق، والعنب والكرز، واللوز وساكنتها، ووجدت الكل والجوز، استطبت هواءها وجنانها، وراقتني مبانيها وأَزِقَّتها الأصبحي رضي الله عنه على دين الإسلام ومذهب إمام الهجرة سيدنا مالك بن أنس.

كان "الحاج إبراهيم" يحرك رأسه استلطافاً لكلامي، وكنت أروي أخباري وأنا أتلصّص ببصري بين معاونيْه، لأستطلع وقع ما أقصه عليهم، فاستنتجت عدم ارتياحهما لما أعترف به، لكن رئيسهما "الحاج إبراهيم" كان أكثر ما يهمني، وأضفت:

ــ اصطفيت من آل فاس خلاناً وأصحاباً أكرموا وفادتي، وقدروني حق قدري، أذكر قليلة أخذ من بينهم الفقهاء، الجوطي والدباغ والسليماني والكغاط والشبيهي، وفي أيام

أَذَلَّنِي في يألف بعضنا البعض، فصرت أطلعهم على الصغيرة والكبيرة مما كان قد سفري من بلد إلى بلد، وما كان عليه طبعي وحالي في بغداد.

"قاطعني "الحاج ابراهيم:

ــ سيدي! جميل ما تقصه عن مقامك في فاس، وما كان عليه طبعك في بغداد، لكنني أكثر شوقاً لأعرف كيف دخلت إلى إسبانيا.

فقلت له:

ــ المهم، أن أصدقاء فاس عرّفوني بقافلة كانت قد قدمت من سجلماسة في طريقها إلى غرناطة، وكان بها تجار نبهاء وفقهاء نبغاء، فانضممت إليهم لأرافقهم في والحمير، قافلتهم المكونة من خمسة وستين رجلا، وعَدَدٍ من النساء والخيول والبغال ودواب أخرى حملت صبية، وتكدست فوقها أمتعة ومؤن وأغراض أخرى.

وعاد "الحاج ابراهيم" إلى مقاطعة قصتي:

ــ باختصار، وصلتم إلى طنجة!؟

ــ أجل، كانت حاضرة طنجة محطة مستهدفة لنبحر منها إلى بلدة "طريف" لكننا توقفنا في حاضرة "قصر كتامة" لنستريح من ضجر الطريق وعناء بالأندلس، وهي بلدة يشقها نهر يدعى لوكوس، أرضها منبسطة خصبة معطاء، تحف السفر، خضراء وجنان مثقلة بالكروم والفواكه على مدار فصول العام، أهلها بها بساتين كرام، فصيحو اللسان، حاضرو البديهة، سريعو النفاذ إلى القلوب، ومن أَجْوَادٌ السّهر والسّمر وقصّ ما استجد من العلوم والأخبار، ومما أستحضره عنهم، عاداتهم، سرده على مسامعنا أحد رجالاتهم من بيت آل القنطري، أنه قابل شخصيا، منذ ما غمارة، حَوَالَى خمسين عاماً المدعو "حاميم المتنبي"، البربري الذي ظهر في قبيلة مرتين في اليوم، فأنشأ بها ديناً وقرآنا بربرياً، واقتصر في دينه الجديد على الصلاة والعجيب الغريب، وأبطل الحج إلى بيت الله، كما أوجب صوم الأربعاء والخميس، لكنهم في قصر "كتامة" أن عدداً كبيراً من برابرة شمال المغرب اعتنق هذا الدين، لا ريب فيها، ويمكنك تصدّوا له، مثلما تصدوا لنشاط الخوارج. ما أقصه حقيقة والدنهاجي والفاسي استفسار بعض أهالي كتامة من التقاة، كالصرصري وبوعجاج الفهري.

ثم رحلنا عن البلدة في صباح باكر بعد أن أدينا فريضة صلاة الفجر في مسجدها

.الأعظم المهيب، وقد قيل لنا إنه كان كنيسة رومانية في عصر بائد

:وقاطعني الرجل أصفر الوجه الذي يدوّن أقوالي

!ــ اختصر كلامك يا أخي، فلديْنا عشرات المهاجرين السريين

:فتصدى له الحاج ابراهيم مقاطعاً

.ــ اصمت! ودع الرجل يتحدث بالكيفية التي يريدها

:ثم ابتسم في وجهي وخاطبني

.ــ نحن معك إلى أن تنهي كل أقوالك

:فاستأنفت حديثي

أصيلا" هكذا يممنا في اتجاه طنجة، لكن القدر كان يخفي علينا أننا سنتوقف في "ثغر والشكر لله، يومين كاملين، بسبب وعكة صحية حلت برفيق لنا، لكنه قام منها سليماً أمنيتي أن أقف و "أصيلا" قرية بهيجة، تشرف على بحر الظلمات الصاخب، كانت أمنيتي، وكبرت على مرمى حجر من هذا البحر الهادر وأتأمله عن كثب، فتحققت .ومَسَامّي سعادتي وأنا أحس بهديره يملأ أذني، ونسائمه تتسلل إلى رئتي

أقمنا في هذا الثغر يومين سيظلان موشومين في ذاكرتي ما حييت، فحين نزلنا في تلك السويعات الأولى من بزوغ خيوط الشمس لمشاهدة مروج البحر، وكان صخبه كرومٌ هدأ، وأطرافه قد انكمشت، مخلفة طَحَالِبَ بلورية، وأعشاباً مبللة، كأنها قد لروائح خضراء في أحد بساتين جنة الخلود، يا لها من نسائم رطبة ندية هي نقيض عيّنات، الصحاري، فمن شدة ما استطابتها نفسي وانشرح لها صدري جمعت منها عصيد"، فساعدني الفقيه "أبو عصيد" على ربطها عند مخلف سرج حصاني، نعم "أبو للدراويش والمعوزين. ذاك الفقيه الإمام المبرِّز في أصيلا، رجل متصوف، يبسط يده سمك يدعى رُوِيكْلْ، من بين مريديه وأصدقائه أتذكر وجها وديعا خجولا لصياد بينما يهتم أبو عصيد رجل لا يعرف عن الدنيا سوى أنواع السمك وأقصاب صيدها، يرتبطان بعلاقة مودة لافتة. بأشعار المتصوفة والأنساب والتراجم، وبالرغم من ذلك أنهما معاً من أشد وأقرب من عاشروا ومما ذكره أبو عصيد في ليلة سمرنا الأولى، عمر" خلال سنوات نفيه في "أصيلا"، بعد السلطان الإدريسي "يحيى بن إدريس بن موسى بن أبي العافية"، وحسداً منه على ما " أن كان حاكما للمغرب كله، لكن الحاكم من حب المغاربة، نصب له مكائد إلى أن نفاه إلى كان يتمتع به هذا الأمير الشاب

"ثغر أصيلا".

وقد دلني هذا الفقيه على دار بجوار حمام ومعبد يهودي، كانت محل إقامة هذا مساء السلطان الذي كان على قدر من العلم بالفقه والحديث. وكان رويكَل يزوره كل عن شيخه محملا بشراتل من الأسماك الطازجة. وفي الليلة الثانية، حدثني الفقيه بن محمد"، الذي أخذ عنه كتاب البخاري "الإمام أبي محمد عبد الله بن ابراهيم سنة، أسعدني في الحقيقة الملقب "بالإمام الأصيلي"، وكان قد توفي منذ حَوَالَى ثلاثين عنه ما تيسر لي من بعض أن أستمع إلى بعض أخبار هذا الإمام، بعد أن سمعت إقامته هناك منذ حَوَالَى خمسين مريديه ومعاشريه في بغداد، ومكة، والمدينة، أثناء عاماً.

أخباراً عنه، توقفنا ترحّماً على قبره في حديقة مسيجة خارج أسوار المدينة، فتبادلنا الشافعي وأبي بكر إذ أكدت له أن الإمام كان صديقاً مقرباً من الإمام أبي بكر وأبي بكر الآجُري. وفي الأبهري ومن شيوخه الأفذاذ في مكة الإمام زيد المروزي بأن الإمام الأصيلي، بعد أن عاد المدينة قاضيها الإمام أبي مروان المالكي، فأخبرني القضاء في سرقسطة وقرطبة، وبعد مدة، من المشرق إلى أصيلا، رحل عنها ليتولى واحدة في منزل خاص بها، وعاشرهن بالعدل عاد مرفوقاً بثلاث زوجات، أسكن كل غيرها، إلى أن قضى، فدفن هنا في مسقط والقسطاس، دون أن يفضل واحدة على رأسه.

توقفتُ عن إتمام حديثي حين انحنى الشرطي الأصفر الوجه على أذن رئيسه، له بكلمات غير مسموعة، لكن الرئيس ثَنَاهُ عن همسه بإشارة من يده، وطلب وهمس إلى استئناف سردي، مبدياً ابتسامة متكلفة، غير أن ما كان يسود المقام نبهني مني أقوالي، تلك أن الرجل ما عاد يطيق سماع ما أزوده به من أخبار، أو لعله لم يصدق والحيطة. ولربما طباع رجال الشرطة في كل البقاع، فعملهم يجبلهم على الارتياب إلى سماعي وليس طريقة سردي التي بدت له سجية مرسلة، هي أقوى ما كان يشدّه إن أخبرته مضمون أخباري، مما جعلني أختصر كلامي، وهو عين ما حدث، فما الثلاثة الفاصلة برحيلنا عن "ثغر أصيلا"، والعوائق التي اعترضتنا في قطع الأنهر أن تصبح أكفاناً بين أصيلة وطنجة، واستئجارنا لمراكب خشبية ذات أشرعة كادت حتى قاطعني مستفسراً لنا في لجّة البحر، حملتنا من "طنجة" إلى"طريف" بالأندلس،:

ـــ منذ متى تم هذا السفر إلى الأندلس؟

أجبته صادقاً:

ـــ منذ بضعة أيام، أي في أقل من أسبوع واحد.

هنا ارتفعت أصوات الجميع بالضحك والقهقهة، فعاد الرئيس لاستفساري قائلا:

ـــ أريد معرفة التاريخ، لا يهم اليوم أو الشهر، أريد العام بالضبط؟

يالغرابة السؤال! قلت في نفسي، وأجبته:

ـــ قلت لك إن ما حدث كان منذ بضعة أيام، أي في هذا الشهر، وفي هذا العام ذاته، ألسنا في ذي القعدة من عام ٤٠٠ للهجرة؟

انتشر الاستخفاف على محياهم جميعهم، ولم يعد عسيراً على عيني أن تقرأ في ملامحهم علامات دالة على أني في نظرهم شخص مجنون، لكنني واصلت حفاظي رباطة جأشي، وتوجهت بالحديث ليس إلى الرئيس وحده، وإنما إليهم جميعاً على:

ـــ أؤكد لكم أنني سليم معافى، وفي كامل قواي العقلية والجسدية، فإن وقع التباس فيما أرويه عن رحلتي، فإن مرده إلى عدم فهمكم.

وتدخل "الحاج ابراهيم" بعد أن أطال النظر في وجهي:

ـــ طيب، تقول إنك قدمت من العراق في هذا العام، وركبت البحر إلى الأندلس في العام ذاته. أيمكنك أن تخبرنا عن ظروف بلدك؟ من تركت يحكم العراق مثلا؟

أسرعت بالإجابة:

ـــ تركت الخليفة العباسي "أبا العباس أحمد بن المقتدر" المعروف لدينا ولديكم الحقيقي بالقادر بالله"، حاكما على العراق، لكن ما هو خاف عليكم، هو أن الحاكم" نفوذه على "فارس" ليس الخليفة وإنما "بهاء الدولة" البويهي، فهذا الرجل بعد أن بسط بعد أن تزوج الخليفة من و "الأهواز" و "كرمان" استبد بالسلطة دون الخليفة، خاصة ابنته "سكينة" عام ٣٨٣ بصداق بلغ مائة ألف دينار.

وقاطعني "الحاج ابراهيم" متبرماً من حديثي، بعد أن بَحَثَ في أوراق أمامه:

ـــ اسمع يا سيدي، إننا لسنا في عام ٤٠٠ للهجرة، وإنما في عام ١٤٢٣، ثم التفت إلى معاونيه وخاطبهما آمراً:

ـــ أعدا له محضراً بأقواله واتركاه ينام إلى الصباح، لنقدمه إلى النيابة العامة ضمن المهاجرين السريين.

وقال أحد معاونيه ضاحكاً متعجباً:

ـــ يقيناً إن الرجل سجين كتاب قرأه عن التاريخ القديم فتوقف دماغه هناك.

لم يجبه الرئيس، بل غادر المكتب دون أن يفوه بشيء، أما أنا، فقد جمد لساني وتركت أمر إرادتي لمشيئة الله، وليقولوا أو يفعلوا بي ما شاءوا.

للاشتغال، أنا بعد أن أفردوا لي مقعداً خشبياً وأغلقوا الباب وانسحبوا، عاد فكري بأني سجين زمان العالِم، الفقيه، المنطقي، الفيلسوف. يحاول شرطي بسيط إقناعي من منا فاقده، من !يبتعد عن زماني بأكثر من ألف عام! يوهمني بأني فاقد للعقل ومنطقه؟ جُبِلَ على الارتياب والتشكك؟ أم مَنْ يحتكم إلى عقله باختلاف وحسبي أني أوجد في مكان غير مكاني، فعادة ما يُفَسَّرُ اختلاف المكان فهذا والله لن الزمان، إنما أن أكون في زمان جاء بعد زماني بأكثر من ألف عام، هنا في المغرب يستوعبه عقل كائن بشري، لقد حدث التباس ما! بكل تأكيد. لعلهم يتكلمون العربية، يعدون السنوات بطريقة مختلفة عما نعده نحن في العراق؟ لكنهم ويقولون عن أنفسهم إنهم مسلمون، يبسملون ويستغفرون الله.

و "يا إلهي، أكاد أصاب حقيقة بتلف العقل، ماذا لو أحضرت لهم الشيخين "القنطري "الدنهاجي" من حاضرة "قصر كتامة" وهي على مسافة يوم واحد لا أكثر، أو أحضرت لهم الفقيه "أبا عصيد" من "ثغر أصيلا" وهي على مقربة نصف يوم، ليشهدوا بالحقيقة، بوجودي في زمانهم ووجودهم في زماني، ثم كيف للمرء من بني آدم أن يعيش أكثر من ألف عام؟ وعلى سبيل افتراض أن ما زعموه حقيقة، فأين كنت مختفياً؟ في أعالي السماء أم في باطن الأرض؟

رأيي حتى هراء، هرطقة، إنني أنا الذي أمتلك الحقيقة وهم الأغبياء، ولن أتنازل عن بكثرة منتحليه، لو انضم إليهم السواد الأعظم من الناس. إن الباطل لن يصير حقاً القويم كما أن الحقيقة لن تصير باطلا بقلة معتقديها، ذلك هو المنطق.

الجاحظ" " هكذا عليّ أن أفكر وأن أقاوم، فأنا فيلسوف، عالم منطقي، أنا ناسخ لكتب شرطي أملس في زماني هذا الحاضر، وليس في الزمان الذي قبله، ولن أعبأ بمنطق المحيا كأنه جارية هرب عنها الزمان.

لم أدر المدة التي استغرقها حواري الداخلي، إلى أن فتحوا عَلَيَّ باب الغرفة لأعرف أن الوقت صباح.

(3)

بمتكأ يريح اقتادوني، فأدخلوني مكتبا آخر، وأمروني بالجلوس فوق مقعد خشبي الخلفاء الظهر، لجميع مقاعدهم مُتَّكَآت مريحة وكأنها مقاعد حاشية.

مسمعي تناول شاب طويل القامة، أملس الوجه، شبيه بغلام، أوراقاً وأخذ يتلو على فناولني تصريحاتي بلغة منفرة، خلتها سوطا يجلدني، وطلب مني أن أبصم أو أوقع، القلم لا يجف، مما قلماً غريباً دون أن يسعفني بِدَوَاة، وحين نبهته أخبرني بأن سمق بصفد حديدي، لم يسبق لعيني أكّد لي أنني في عالم غريب عني. بعد ذلك غَلُّوا يدي إلى أن أدخلونا هودجاً ضخماً أن أبصرت مثيلا له، واقتادوني ضمن أسرى آخرين، إلى أن توقف عند مدخل بناء أبيض بنوافذ زجاجية، فتحرّك بنا وكأنه حصان أرعن، بالعرق، لكنني حين قرأت على مدخله: اللون، ظننته أول الأمر سجناً، فنضح جبيني طمأنينة ما، إذ فكرت بأن التعامل مع القضاء "المحكمة الابتدائية"، دبت في قلبي الشرطة أو السجن أضمن لسلامة بدني من مواجهة.

إلى أنزلونا مثنى مثنى في حراسة مشددة، وكأننا ثوار أو قطّاع طريق، وساروا بنا تكدّس أن وجدنا أنفسنا ننحدر في سلالم من بضع دركات أفضت بنا إلى غرفة عَطِنة المجهول بها بشر سِيقوا قبلنا إليها، وسُدَّ علينا الباب لنظل في مواجهة.

بعد زمن قدرته بنصف يوم، جاء دوري، بعد أن كان أحدهم من وقت لآخر ينادي بأسماء بعضنا، خرجت من الغرفة، فصعدت السلالم ذاتها محاطاً بجنديين، سرنا وصعدنا، وسرنا إلى أن وجدت نفسي أومر بولوج مكتب رحب ثري، فولجته، فك الرجلان قيدي بعد أن قدما تحية عسكرية صارمة دالة على عظمة صاحب المكتب، بالأمر، أما هو فلم يكترث للتحية ولا رد بأكثر أو أقل منها، بل نظر إليّ أنا المعني ففعلت بمساعدة مشيراً عَلَيَّ أن أجعل يدي خلف ظهري وأن أقف مستقيماً أمامه، أحد الجنديين.

أخذ الرجل يتصفح أوراقاً فوق مكتبه، وبين الحين والآخر، كان يرفع بصره ويتأملني، إلى أن سألني:

ــ من أي بلد أنت؟

ــ من العراق سيدي، أجبته.

حرّك رأسه بطريقة توحي بذهوله، وخاطبني:

ــ تقول في تصريحاتك المدونة في المحضر، إنك قدمت من بغداد عبر المدن التي ذكرتها، وإنَّ اسمك هو "أبو حيان التوحيدي"!

ــ أجل سيدي أطال الله عمرك، أعترف بذلك.

سكت برهة مفكراً، وكمن يحاول اختزال الاستنطاق قال لي:

ــ سأكون مضطراً لأن آمر بإيداعك مستشفى الأمراض العقلية إلى أن تعود إلى رشدك، لكن إذا ما عَدَلْتَ طَواعيةً عن ادعاء الحمق، واعترفت باسمك الحقيقي، وباسم بلدك الحقيقي، ووسيلة دخولك إلى إسبانيا، فسأكون رحيماً بك، وستنجو من العقاب ومقر إقامتك.

سكت قليلا وأضاف:

ــ أما إذا كانت لك عاهة عقلية، كأن تكون مختلا، فيجب أن تعترف بمرضك؟

ــ وما هو دليلك يا سيدي على أنني لم أعترف بالحقيقة، أو أني مصاب بعاهة عقلية كالجنون؟ لا قدر الله.

قلت في عجلة من أمري، وأضفت:

ــ إني يا سيدي لا أتستر على شيء، لا عن أخبار ولا عن مرض، وقد اعترفت الحقيقي وباسم بلدي الحقيقي، وبالسبل التي سلكتها، إلى أن حللت بالمغرب، باسمي وكذلك بالأندلس.

انتفض صوته واشياً تبرمه من جوابي:

ــ إنك جاوزت المراوغة حدّ اليقين بأنك شخص معتوه، فمن سيصدق أقوالك الخرافية، تسافر من فاس في قافلة متوجهة إلى "غرناطة"، وتحل "بقصر كتامة" و الإدريسية ثغر أصيلا"، وتسمع أخباراً من أفواه رجال عايشوا أحد ملوك الدولة" المنقرضة منذ قرون، ثم تقول بأنك لست مجنوناً؟

أجبته:

ــ إن الجنون أيها الحاكم لا يَقْوَى أحدٌ منّا على إخفائه إن كان مصاباً به، فأي تعبير عادي لغوي شائن أو غير منطقي صدر عني؟ وأية حركة، أو تصرف غير لاحظت، أو لاحظ غيرك،أنه قد طرأ على سلوكي؟

توقفت للحظة أسترجع أنفاسي، ورأيت الذهول مرسوماً على محيا الحاكم، فتابعت حديثي لمزيد إقناعه، وقلت له:

ــ إنني يا سيدي أتصرف تصرف العقلاء، وإذا كان قد صدر مني سلوك غير

فليس معنى ذلك أنني أحمق، فقد يصدر عن العاقل بعض ما لا يصدر إلاّ عن سوي، مجنون، علما بأن الحمقى يطغى انحرافهم على اعتدالهم، وفي وضعي فإني متسق نفسي وعقلي، ولم أُخْفِ شيئاً من أخباري ولا من حياتي مع.

فاجأني مقاطعا:

ــ إذا كانت الحال كما تقول، أي أنك رجل عاقل متسق معتدل، فلماذا تزعم أنك "أبو حيان التوحيدي"؟

ــ إنها الحقيقة، بغض النظر عمّا إن كانت لي أو عليّ، وهل تعرف يا مولاي شخصاً غيري يحمل هذا الاسم؟

لم يقو على طمس ابتسامة ماكرة دالة على استخفافه بمنطقي، وأجاب:

ــ بطبيعة الحال أعرف "أبا حيان التوحيدي"، وليس هناك من المتعلمين المطلعين يتكرر على تاريخ الأدب من يجهل أبا حيان التوحيدي المتوفى منذ قرون. أجل، قد حتى أنك اسمه، هذا وارد، أما أن تنتسب إلى زمانه وتنتحل اسمه وصفته وحياته، مجنونا! من تزعم بأن تاريخنا الحالي هو عام ٤٠٠ هجرية، ثم تقول بأنك لست يقوى على تصديق هذا الهراء؟

أن تمنيت لو تنفتح الأرض من تحتي، فتصهرني بداخلها، لأرتاح مما أنا فيه، ذلك الشك عاد يموج برأسي، ودون إرادتي وجدت أسئلة تنساب على لساني:

أنا أجهل صفتك تحديدا، وأعلم أن دوري ينحصر في إمدادك بأجوبة، لكن ــ سيدي، وضعي الغامض لديك ولدي أيضاً، يحتم عليّ استفسارك لأتعرّف رأسي من قدمي، الحقيقي فوالله ما عدت أفهم أكثر مما أجيب به، فهل تدلني رعاك الله على التاريخ العراق؟ الذي نعيشه اليوم، سواء هنا في بلاد المغرب أم ذلك الموجود في بلاد مضى واندثر، وكيف يمكن للمرء في نظرك أن يجمع قيد حياته بين زمانين، أحدهما والآخر حاضر حال؟ أو ليس هذا هو بؤرة خلافنا؟

حرك الرجل رأسه موافقا، وقال:

ــ طيب، صفتي وكيل الملك، أي أني أمثل النيابة العامة، وأدافع عن الحق العام، فهلا عرفت معنى وكيل الملك؟

ــ معناه في تقديري أن الملك أنابك عنه بمقتضى وكالة ضمنية، وبمعنى آخر فقد تكون قاضي القضاة!

عاد يقول في نفاذ صبر:

ــ أمازلت تدعي الجهل بالرغم من ثقافتك الواسعة!

هذا ــ أنا لا أدعي شيئا، لكن يستحيل أن أقتنع بأني أُحْسَبُ على ماض يبتعد عن الحاضر بأكثر من ألف عام، وإذا أردتني أن أصدّق، فعليك أيضا أن تصدق.

ــ أصدق ماذا؟

ــ تصدق أقوالي في الأوراق التي بين يديك، فإذا لم تقتنع، فأنا مثلك لا أستوعب هذا الفارق الزمني الذي تُصِرُّ عليه.

ــ أنت إذن متشبث بزعمك، طيب، لتعلم أن التاريخ الذي نعيشه اليوم في المغرب أما هو التاريخ نفسه الذي يعيشه إخواننا في العراق، فنحن في عام ٢٠٠٣ ميلادية، قيامها الدولة العباسية التي تزعم انتسابك إليها، فقد اختفت، واندثرت، ومر على أما زلت عشرة قرون، وحلّت محلها دول أخرى، بخلفاء وسلاطين وحكامٍ آخرين، مصراً على رأيك؟

ــ مهما يَحْدُثْ فأنا أعترف بالحقيقة، متمنياً لو لم تكن هذه هي الحقيقة، كأن نكون في حلم، أو على الأقل يكون أحدنا في حالة حلم.

امتدت يد وكيل الملك إلى قطعة جماد رمادية اللون، من خشب لامع، أو لربما من وعاء زنك أو حديد، فلم أقو على تمييز معدنها، لكنها كانت مشدودة بحبل رقيق إلى حقيقياً بداخلها في لونها، وضعها بين فيه وأذنه، وأخذ يتحدث إليها كما لو أن رجلا يحاوره.

وددت لو قلت له، بأن المجنون الحقيقي هو الذي يحاور جماداً، لكنني اكتفيت بذهولي، ولذت بالصمت.

(4)

معقوف بعد زمن قصير، وقع طرق خفيف على الباب، فأطل منه رجل كهل، الشيب، الأنف، رمادي الشعر، حليق الوجه إلا من شارب متّسخٍ، غلب عليه بياض وبعينيه قدرت أنه في عمري وقامتي ونحافتي، ألقى تحية احترام على وكيل الملك، تساؤل يخفي تضايقه، لكن وكيل الملك طمأنه، مرحبا، قائلا:

ــ إذن، أنت الكاتب محمد شكري، لقد طلبت حضورك قصد استشارتك لا غير،

فأنت كاتبنا المعروف، من رموز هذه المدينة، تفضل، استرح.

بعد أن استوى محمد شكري فوق مقعد أسعفه به "محند أشهبار" الكاتب الذي يدوّن أقوالي، ظل تساؤله بادياً على وجهه، فبادره وكيل الملك بالقول:

ــ إنك من دون شك، تعرف من هو "أبو حيان التوحيدي". ولعلك عارف بأخباره، أو مطلع على بعض كتبه، أليس كذلك؟

أجابه شكري بصوت يفضح ارتباكه:

ــ نعم سيدي، أعرف بعض أسماء كتبه، أما عن شخصه، فأذكر أن أقلاماً كبيرة وكثيرة سالت منوهة بعبقريته وعلمه الغزير، خاصة منذ حوالي عشرين عاماً، حين بالأحرى وقع الاحتفال من لَدُن كبار المثقفين بذكرى مرور ألف عام على وفاته، أو على اختفائه، ذلك أن لا أحد من المؤرخين يعلم تاريخ وفاته.

قبل أن ينهي محمد شكري شهادته، اقتحم المكتب رجل طويل القامة، حسن الطلعة، المفتين الأفذاذ، واثق الْخُطى، فبدا من هيئته، وثقته بنفسه، أنه أحد كبار الحاكمين أو أنا، فقد كنت واقفاً سلفاً. وزاد في تأكيد تخميني وقوف الجميع احتراما لقدومه، إلاّي فوق مقعد بجوار وكيل الملك، وأشار ولم يعودوا لجلوسهم إلا بعد أن استوى الزائر يد وكيل الملك، ووضعها أمامه فوق عليهم بالجلوس، فتسلم أوراق تصريحاتي من المكتب.

قبل أن يطلع عليها، بادره وكيل الملك بالقول، وهو يشير إلى مثقف المدينة:

ــ إنه الكاتب المغربي الشهير محمد شكري، فقد دعوته لأستأنس برأيه في حياة عام، أقول ونتاج المرحوم "أبي حيان التوحيدي" الحقيقي، المتوفَّى منذ أكثر من ألف التوحيدي"، وبأننا نعيش في الحقيقي، لأن الضنين الماثل أمامنا يزعم أنه "أبو حيان الإسبانية علينا بتهمة الهجرة السرية، عصر الدولة العباسية، وقد أحالته السلطات لكم إشكال هذه النازلة الغريبة وبعد أن اطلعوا على تصريحاته، سيتبين.

انكب الوكيل العام على تفحص أقوالي المدونة في أوراق أمامه، وبين الحين والآخر، كان يرفع بصره ليتأملني، ثم يعود لمحضر تصريحاتي، واستبشرت خيراً حين أمر الشاب "محند أشهبار" بإحضار مقعد لي، وطالبه باستئناف كتابة محضر الاستنطاق.

وتدخل وكيل الملك، مخاطبا الكاتب محند أشهبار:

ناولِ السيد الوكيل العام، ماهو مسجل لديك من أقوال المتهم.

أزعجني أن يقول عني إني متهم، لكنني لذت بالصمت.

بعد أن تصفح الوكيل العام ماراج من استنطاق في غيابه، توجه نحوي بالسؤال التالي:

ــ هل أنت مصّر على أقوالك، وعلى أنك "أبو حيان التوحيدي"؟

حركت رأسي بالإيجاب وأضفت:

في ــ إنني يا سيدي أتشبث بكل ما قلتُه، ولعلمك، فإني أجزع من التقوقع والتخاذل لي السيد الأقوال، سواء أكانت لغيري أمْ لي شخصياً، إنما بالله عليك، كيف ينسب وكيل الملك صفة متهم؟ أي ذنب اقترفت؟

ارتسمت على محياه ابتسامة مواربة وهو يجيبني:

إن .ــ إنك متهم بالهجرة السرية إلى إسبانيا، وهي ليست جناية حتى تصاب بالفزع ما يشغلنا حقيقة، هو جريمة انتحال الصفة، أي انتحالك لشخصية "أبي حيان التوحيدي".

ثم التفت إلى محمد شكري وطلب منه الحديث.

جال محمد شكري ببصره في وجوه الحاضرين، وكأنه يلتمس سماعه، وقال:

رغبة ــ لم أفهم شيئا لحد الآن. ولعلمكم فإني جاهل بأمور القانون، أما إذا كانت على أتم السيد الوكيل العام أن أزودكم بما أعرفه عن "أبي حيان التوحيدي" فإني الاستعداد.

حرّك الوكيل العام رأسه بالإيجاب، فتحدث شكري:

ــ عرف عن أبي حيان الشجاعة والصراحة والمجاهرة برأيه في الناس، كباراً وصغاراً، دون حرج في نشر مساوئهم ومحاسنهم، اعتقاداً منه بضرورة ذم المسيء ومدح المحسن، وكان أديباً وفيلسوفاً وخطيباً لا يشق له غبار.

ثم وهو يتأملني أكمل حديثه:

ــ لكن هذا الرجل يبدو من لهجته عراقيا، ولغته ممتازة جدا، لكنه، على ما أرى كتباً وأسمع، رجل أحمق، ذلك أن "أبا حيان" تلاشت عظامه منذ ألف عام، وقد ترك القدماء وذخائر كثيرة، أذكر من بينها "المقابسات" و "الإمتاع والمؤانسة" و "أخبار الحكماء".

وطفق يتذكر، لكنني لم أَقْوَ على تحمل كذبه، فتوجهت بكلامي إلى الوكيل العام فاضحاً إياه.

ــ أعترف أنَّ الكتاب الأول والثاني من مخلوقاتي، وإني على استعداد لسرد يسبق لي محتوياتهما. أما كتاب "أخبار القدماء وذخائر الحكماء"، فلا علم لي به، ولم شكري، بل أتذكر أن ألَّفتُ كتابا بهذا العنوان، ولاشك أنه من مختلقات السيد محمد وناقشنا عناوينها دون أن الشيخ "أبا سعيد السيرافي" كان يحتفظ بنسخ لبعض كتبي، أن يخطر ببالنا هذا العنوان.

قاطعني الوكيل العام بإشارة من يده، طالباً من الكاتب "أشهبار" أن يسرع في تدوين أقوالنا، والتفت إلى "شكري" سائلا:

ــ هل تعرف من هو الشيخ "أبو سعيد السيرافي"؟ أقصد هل هو مذكور في تاريخ الأدب؟

رفع محمد شكري بصره إلى سقف المكتب في حالة تذكر، ثم خفض بصره وأجاب:

ــ لا ياسيدي، لا أتذكر من يكون هذا الشخص.

تطلع الوكيل العام نحوي وسألني:

ــ من يكون هذا الشيخ؟

أسرعت أجيب:

ــ إنه "أبو سعيد السيرافي" مِنْ أشهر علماء عصرنا، شيخي ومعلمي، أخذت عنه النحاة النحو والكلام وأصنافاً من العلوم والمعارف، كان رحمة الله عليه من كبار بخطه، ناهيك والمتكلمين المعتزلة، فقد شرح كتاب "سيبويه" في ثلاث آلاف ورقة محمد شكري عن تبحره في الحساب والهندسة والمنطق، إني أستغرب كيف أن السيد السيرافي؟ الذي يدعي اطِّلاعهُ على كتبي، لا يعرف من يكون المرحوم

قاطعني الوكيل العام قبل أن أتمم جملتي، وسأل محمد شكري:

ــ هل العلماء الذين تتلمذ عليهم أبو حيان معروفون في كتب الأدب.

ردَّ محمد شكري:

ــ بكل تأكيد.

فالتفت نحوي وسألني:

ــ وعَمَّنْ غير "السيرافي" أخذت علمك؟

الكثير ــ تعلمت كذلك على يد الشيخ "أبي سليمان السجستاني" المنطقي، كما أخذت والذي ،"من المعارف على يد القاضي الشيخ "أبي حامد أحمد بن بشر المروروذي أتخل عن لم أتخلّ عن السير في موكب جنازته بحي الأعظمية في بغداد، مثلما لم عنه رحمه الله، الاستشهاد بمأثوراته وأقواله في كتابي "البصائر والذخائر"، أستحضر ذلك، السلف الصالح أنه كان ضد الألقاب الكبيرة والتفخيم في الخطاب، مستنده في "الذي كان يخاطب رسول الله بـــ "يارسول الله ويا محمد.

كان الوكيل العام، مثل جميع الحاضرين، يتابع حديثي باهتمام بالغ، ويحث كاتب الضبط الشاب محند أشهبار على تدوين كل التفاصيل، بل كان يسعفه في كتابة الأسماء حتى لا يقع في خطأ.

واستمر حديثي عمن أخذت عنهم علومي.

ظل الوكيل العام صامتاً إلى أن تأكد من توقفي عن حديثي، فخاطبني:

ــ إنك أيها السيد ظاهرة غريبة، وقضيتك من المعضلات الفريدة المعروضة على الغموض، القضاء، وبمساعدتك لنا، قد نصل بإذن الله وعونه إلى استجلاء مكمن هذا البعيد وإلى فك هذا اللغز المحير، وقد نعثر على الحلقة الضالة بين ماضيك وحاضرك الحالي هذا، إني أرغب في تصديقك، لكن حتى لو ثبت لدينا أنك " أبو تصل إلى حيان التوحيدي" ذاته! فكيف تفسر لنا قفزك على ألف عام، إذ لا يعقل أن عام ١٤٢٣. الأندلس في عام ٤٠٠، وبعد يومين أو ثلاثة أيام يلقى عليك القبض في أليس هذا محيراً؟ فأين ذهبت الألف عام ونيف!

التفت إلى محمد شكري وسأله:

ــ هل يمكن لي اقتناء بعض مؤلفات "أبي حيان" بالابتياع أو الاستعارة؟

أجابه شكري:

وعنه ــ إنني يا سيدي الوكيل العام، أحتفظ في بيتي بكتب قيمة كتبت عن مؤلفاته إليك شخصياً، كما أتوفر على بعض كتبه، وبإمكاني أن آتيك بها قبل أن يرتدّ سأستعيرها طرفك، ولي صديق شاعر، هو أحمد اليدري، يمتلك أيضاً بعض كتبه، قبالة "شركة احتكار منه في الحال، فبيتانا لا يبعدان كثيراً عن المحكمة، فهو يقيم تأذن لي بالانصراف التبغ"، وأنا في شارع تولستوي بجوار مقهى روكسي، فهل لآتيك بها؟

ـــ لتتفضل، سنبقى في انتظارك.

غادر محمد شكري المكتب، فظلت نظرات الحاضرين مصوبة نحوي بطريقة وكأنني بينهم إبليس أعيش الدهر الأبدي، مما جعل نفوري منهم يشتد فضولية، لأحس وكأن سحابة قاتمة السواد، لم تكتف بتغليفي فحسب، وإنما اقتحمت ويتضخم، وأخذت تمتصني لأتلاشى وأختفي، مثلما تختفي الأضغاث دون استئذان دواخلي، صاحبها.

هل أنا حلم؟ هل أنا سراب؟ هل أنا وهْم؟

وددت لو كنت أحد هذه المخلوقات الاصطلاحية، فأعيش مثلها دون إرادة أو وعي أو إحساس، لكن مشاعري الإنسانية وإحساسي بوجودي بين الوكيل العام ووكيل الملك ومحند أشهبار كاتب الضبط، والشرطة الموجودة خارج المكتب ومحمد شكري غرناطة، الذي تغيَّب لإحضار ما سماه بمؤلفاتي، و "نهاوند" التي تنتظر قدومي إلى فتنبهني إلى أو ظلت تنتظر عودتي التي لم تتحقق. كل هذه الحقائق كانت تصفعني، بعضهما عن بعض أنني كائن حقيقي قائم في مكانين، أو بالأحرى في زمانين يفصل زمان يحسب بالقرون.

فكرت في كتبي ومؤلفاتي، تلك التي أضرمت فيها النار غير آسف قبل مغادرتي التي بغداد، إنها أيضا حقيقة ثابتة، فأي كتب ينسبها محمد شكري إلى شخصي؟ تلك تغيّب لإحضارها، هل كتبت بعد رحيلي فنسبت إليَّ زوراً؟

(5)

السوسي"، أشهر في غفلة عن إرادتي، طفا إلى سطح ذاكرتي وجه العرّاف "ابراهيم من استحضاري لكل فقهاء وعَرَّافِي بلاد سوس. يا إلهي، كيف ظل مختفياً بالرغم يجالس سوى السلطان من التقيت بهم بحاضرة فاس. الآن أتذكر كل شيء، كان لا وكبار شيوخ القبائل لا المغربي المغراوي المعز بن عطية، وحتى الحاشية السلطانية الواقعة من ألفها إلى يائها، وأنا يستقبلهم إلا إذا أذن له السلطان بذلك. تحضرني تلك كانت غائبة عني بسبب كراهيتي للسحرة بحضرة وكيل الملك والوكيل العام، ربما فأعلنت عن رأيي هذا لأصدقائي الفاسيين، والعرافين، أجل، كنت أمقت السحرة، السوسي بين مدافعين شاهدين له بالتقوى وكانوا منقسمين حول هذا الفقيه

والخروج عن الشريعة، فانضممت أول الأمر والكرامات، ونابذين يرمونه بالمروق النبي (ص) "من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد إلى الفئة الأخيرة، مستندا إلى قول وهو حديث صحيح رواه البزار. لكني وافقت بعد ،"(كفر بما أنزل على محمد (ص بالشريعة ورغبته النبيلة في أن يطلع على علومي في أن تأكدّ لي تمسك الرجل .وكذا تحصيله لإذن خاص من عظمة السلطان لمقابلتي التصوف والمنطق والنحو، هكذا وبعد أن سبقه رقاص أخبرني بقدومه في موعد حدده، حضر إلى مقر إقامتي فندق ضيوف فاس، مصحوبا بحارسيْن من قوات دار المخزن، لكن الحارسَيْن في في انتظاره بالبهو إلى أن عاد إليهما قبيل أذان الفجر بقيا.

الليلة أجل، استقبلته في غرفتي وأنا في أقصى ما يكون عليه الحرص واليقظة، كانت وطال سمرنا باردة، فسقيته مما كان متوافراً بغرفتي من عصير القرفة والزنجبيل، بتين وزيتون فاسيين وتشعّب حديثنا إلى أن رُفعت الكلفةُ بيننا، فكذبنا على معدتيْنا سماعه من فنون النحو وبلح فكَيكَي، وأنا أُسمعه ما استهواه ورغب في مزيد من بين الكرامات والمعجزة والمنطق والكلام، كما روى لي ما زادني علما بالفوارق تمتاز عن الكرامة بالتحدي، أما السحر والسحر، فالكرامة لا تقع إلا اتفاقاً، والمعجزة .بالشياطين فلا يؤتى إلا من دجّال فاسق يستعين

وشنّف سمعي بخوارق كثيرة متنوعة قام بها لإبطال أنواع متعددة من السحر، كسحر تعطيل الزواج، وسحر التفريق بين الزوجين، وسحر الخمول، ونماذج لعلاج جميع أنواع هذا السحر بآيات قرآنية وأدعية شرعية، وخاض في حديثه عن سحر المحبة للجمع بين الرجل والمرأة المتحابين، كما صارحني بتفوقه وبراعته في .السحر الحلال البعيد عن الشرك بالله

القصية راقني أني وجدته متحدثاً بارعاً ملماً بخبايا النفوس والمشاعر النفسية نهاوند"، ولربما " وهواجسها الخفيّة، مما جعلني أضعف فأبوح له بعشقي وتعلقي بـــ رُقْيَةٍ أو كرامة تحفظ العهد لرغبة دفينة زلَّ لها لساني، فانزلقت منه أسئلة عن أقابلها بالأندلس، شريطة أن لا يكون والحب بيني وبينها لتظل في انتظاري إلى أن بالشرك بالله. فاستبعد انشغاله بما يخالف الشرع، وأكَّد لهذه الرُّقْيَةِ أو الكرامة علاقة نوعان: نوع يخالف الشرع، فيدخل في باب الشرك، وآخر جائز لي أن الرّقى وأسمعني حديثاً شريفاً صحيحاً رواه مسلم في كتاب السلام، عن لابتعاده عن الشرك،

."الله عليه وسلم قال: "لا بأس بالرّقى ما لم تكن شركاً رسول الله صلى
!ــ ولكن الأمر يتعلق أيضاً بالمدة التي ستبقاها في الأندلس؟
:سألني، وبعد أن فكّر قليلا، أضاف
عَزَّ ــ سأعمل حِسَابَ ذلك، سأنجز لك رقية من أهم وأنجع ما ألهمني وحباني به ستحفظ وجَلَّ، بعد سنوات من الدعوات والخشوع والأرق والإرهاق، وهي رقية .عقلك وبدنك ما طوّح بك الزمن بعيداً عن بغداد
:أسرعت أجيبه، كاشفاً له سري
ــ لكني لن أبقى بعيداً عن "نهاوند" إلى أن أعود إلى بغداد، إنها في طريقها هي .أيضاً إلى غرناطة، وهناك سأقابلها
:عاد يفكر ثم خاطبني
لأعددت لك ــ لو أنك تحتفظ الآن بما كانت تستعمله "نهاوند"، منديل أو خاتم مثلا، .تلتقيا في الحال رقية مماثلة تحصنها وتحفظ عقلها وبدنها مثلك، إلى أن
أسرعت أفتح صندوق ثيابي، يفضحني حبوري ودهشتي، وأخذت ألقي بقطع الثياب الأرض قطعة قطعة، إلى أن وقعت عيني ويدي على تكة ثم بخنق، فأشرت فوق :العرّاف ابراهيم السوسي دون أن أفوه بأي كلام. فابتسم وقال لي بهما إلى
.ــ ناولني البخنق
أخذه مني ومرّ به على أنفه يشم رائحته، ثم أخرج ورقاً صقيلا من قرابه، أخذ يدعك .البخنق به، قبل أن يخط رقيته بذات الورق
عن ما إن مرّت أحداث هذه الواقعة بذهني حتى انتفضت في مقعدي، وكأن يداً خفية مع الأنظار امتدت إليّ فأمسكت بتلابيبي، وهزّتني هزاً تنبهني إلى ما حدث لي مندهشاً إن الساحر "ابراهيم السوسي" في فاس، مما جعل الوكيل العام للملك يسألني كنت شواظاً كنت بأتمَّي، فطمأنته بحركة من رأسي على سلامتي، لكنني في داخلي .من نار
كيف احتجبت هذه الواقعة عن ذهني، وفكري كله كان مصوباً إلى ما بداخلي وإلى ما تخلل رحلتي!؟ كيف لم تخطر ببالي، مع أنها تكاد تكون الحلقة المفقودة بين ماضيَّ وحاضري؟ أنا العالم المنطقي الفيلسوف الصوفي، المسخر لجمع حواسي أستحضر وقدراتي الطبيعية والمكتسبة بحثاً وتدقيقاً عن مصدر همّي وغمّي وكمدي،

طنجة" و كل من قابلتهم في "حاضرة فاس" و "قصر كتامة" و "ثغر أصيلا" و "ثغر ابتليت به "ثغر طريف" يغيب عن ذهني أبرز وجه وأخطره لرجل ساحر كاهن فقيه، في تلك الليلة الليلاء، ليكون السبب في تغيير مصيري وقدري؟

أجل كل ما أعانيه لن يكون مرده إلا لتلك الرقية التي أعدّها لي "ابراهيم السوسي"، وأمرني بحفظها بجوار قلبي.

إنه السحر بعينه، السحر الذي جعلني أقفز على ألف عام.

ولعل "نهاوند" بفضل هذا الساحر المغربي، قد قفزت هي الأخرى على الألف عام، كيف وهي دون شك قد استعادتها الحياة مثلي، و لعلها تبحث عني في مكان ما. إنما النوع من سيقتنع الرجال بهذه الواقعة الحقيقية؟ من سيصدقني؟ من يصدق آثار هذا السحر؟

(6)

ظل رأسي متصدعاً إلى أن حضر محمد شكري، دخل وبيديه مجموعة كتب، يساعده في حملها رجل قصير القامة، مترهل الجسم، أشقر الشعر أشعثه، ذو وجه مُشْرَبٍ بحُمْرَة.

وضعا الكتب فوق مائدة الكاتب محند أشهبار، وقدم شكري إلى الحاكِمِيْنِ مرافقه قائلا:

ــ إنه "الروبيو" صاحب دكان بيع السجائر والصحف المجاور لبيتي، وهو صديقي رد قبل أن أتعلم القراءة والكتابة، فابتسم الجميع محرّكين رؤوسهم بتحية خفيفة، عليها "الروبيو" بحركة مماثلة دون أن يخفي ارتباكه وغادر المكتب.

طلب الوكيل العام من الكاتب محند أشهبار نقل الكتب إلى جواره، وأخذ يقرأ عناوينها بصوت سمعناه جميعاً:

ــ "البصائر والذخائر"، "الإمتاع والمؤانسة"، "المقابسات"، "الإشارات الإلهية".

توقف عن القراءة، وخاطبنا:

ــ إن الاطلاع على مضامين هذه الكتب يتطلب شهوراً.

ولم أطق صبراً، فقاطعت الوكيل العام:

ــ سيدي، إني أرفض أن تنسب هذه الكتب إلى شخصي، ذلك أنني أضرمت النار

مؤلفاتي جميعها قبل أن أغادر بغداد، ثم ما جدوى الإطلاع على الكتب في ومناقشتها؟

انتفض الوكيل العام في مقعده وخاطبني مُرْغِياً:

بمضامين ــ أنت لست إذن "أبا حيان التوحيدي" الحقيقي، ولذلك تتنصل وتبرر جهلك علماء ثقات، فكيف مؤلفاته، فلا تَنْسَ أن الكتب المنسوبة إليه وقع تحقيقها من لدن تتبرأ منها وتدعي أنك "أبو حيان التوحيدي"؟

ــ إنني لا أتبرأ، وإنما أحيطك علما بأني جعلتُ جميع مؤلفاتي حطباً للنار دون أن أُبقي على واحد منها!

ــ وماذا كان الداعي لإحراق كتبك وبيدك؟ ما سمعنا عن شخص قام بإحراق مؤلفاته!

ختم هذه الجملة الأخيرة بضحكة جوفاء، فأجبته:

وبذلك ــ نعم يا سيدي، هناك العشرات من العلماء الذين أضرموا النار في كتبهم، فإن لي في إحراقها أسوة بأئمة، اقتديت بهم واهتديت بهديهم.

ــ مَن هم هؤلاء الأئمة والعلماء الذين أحرقوا كتبهم؟

سألني الوكيل العام، وطلب من الكاتب أن يدون جوابي بدقة فأسرعت أجيبه:

ــ "أبو سليمان الداراتي"، الذي جمع كتبه في تنور وسجرها بالنار. ومثل "داود في باطن الطائي" الذي ألقى كتبه في البحر، و "أبي عمرو بن العلاء" الذي دفن كتبه إنني يا مولاي .الأرض فلم يوجد لها أثر، وشيخي "أبي سعيد السيرافي" سيد العلماء

معي على أن حين أحرقت كتبي كنت أعاني من حالة نفسية متردية، وقد تتفق آماله، ولا يلبث الإنسان حين ينحدر إلى غروب عمره وتنكشف له تفاهة الدنيا، تتبدد إلى كتبي، كنت أن يدرك معنى العبث بكل حدته وقسوته. هكذا، حين كنت أنظر مجد أدبي، ولذلك لم أر أراها تجسيداً معبراً عن إخفاقي في الظفر بما كنت آمله من فيها داعيا للتمسك بها أو الحرص عليها، فقمت بإضرام النار.

ــ إذا كانت الحال كما تقول، فمعنى هذا أنك لست مؤلف هذه الكتب التي بين أيدينا؟

وتدخل محمد شكري، مستأذنا في الكلام:

ــ سيدي الوكيل العام، المعروف عن أبي حيان التوحيدي، والذي تؤكده هذه الكتب من نسخ التي بين أيدينا نفسها، أنه أضرم النار في جميع مؤلفاته، إلا ما نجا منها

كتاباً على ما ظلت في حوزة أصحابه، ولذلك لم يصل إلينا منها إلا حوالي عشرين أتذكر.

فرد الوكيل العام كمن يخاطب نفسه:

ــ من الحكمة إذن التريث، وعدم مناقشة المتهم في مضامين هذه الكتب إلى أن يتم الاطِّلاع على ما نختاره منها، مع مزيد من البحث.

والتفت نحوي، تعلو وجهه ابتسامة تعبر عن قناعة مؤجلة بشخصي، وقال لي:

ــ هل توافق على ماقاله السيد محمد شكري؟

حركت رأسي بالإيجاب، وقلت:

ــ فعلا، فقد سبق لي أن قمت بنسخ بعض مؤلفاتي، وأهديتها إلى ثلة من شيوخي وأصدقائي ومريديّ، غَيْرَ أن عددها كان لا يزيد عن عشرة كتب، أو لربما ضعف هذا العدد، لا أذكر. أما أكثر المخطوطات والبحوث والدراسات، بل جميع ما كنت أحتفظ به، من كتبي وكتب غيري، فقد أضرمت فيه النار استجلابا لراحة نفسي.

جال الوكيل العام ببصره في وجوه الرجال، يستطلع ذهولهم، وخاطبني:

ــ أما زلت تذكر من أهديتهم كتبك؟

الوحيد الذي ــ واحدا واحدا، وفي مقدمتهم الوزير "أَبُو الفضل بن العميد"، ذلك أنه غريب مؤثر، عوضني عن تلك الكتب، لكن مقايضته غير المتوقعة كانت من نوع على استعداد فاعل فيما حدث بعدئذ في مسير حياتي كلها. وإذا سمح المقام، فإني لسرد تلك الواقعة التي لم أؤرخ لها ولا دونتها في أي كتاب.

ــ تفضل، إننا على استعداد لسماع هذه القصة.

نظرت بدوري إلى وجوه الرجال الصامتة، فرأيت وجه محمد شكري أكثرهم ذهولا وقلقاً، فقد كان ينظر إليّ كالمأخوذ، فبسملت وقلت:

ــ كل شيء ابتدأ في ذلك الصباح البغدادي الرائق، حين نَقَرَ باب منزلي رسول منه يحمل في يده كتاباً من "الوزير أبي الفضل بن العميد"، فتحت له الباب وتسلمت إحدى الكتاب، فرمقت سيدة تقف خلفه، لم أحفل بوجودها، إذ حسبتها زوجته أو لكنه بناته، فقد كانت كسائر النساء تحجب وجهها وجسدها بعباءة وخمار أسودين، قبل أن يهم بالانصراف، بادرني بقوله:

ــ إن سيدي الوزير، يهديك سيدتي "نهاوند"، وأشار إلى مرافقته.

لن أزعم أني لم أرتبك، فلم تكن العادة أن يُهدى رجل من عامة الناس امرأة أو إلى جارية، لكنني أخفيت ارتباكي وتصرفت كما لو أن الأمر عادي، فدعوت المرأة وأوصدت الدخول، وودّعت الرجل بعد أن حمَّلته شكري وامتناني إلى سيده الوزير، باب داري.

في داخل الدار، والمرأة تقف بجواري، ألقيت نظرة سريعة على كتاب الوزير، أمهات فوجدته يوصيني خيراً بـــ "نهاوند"، ويهديني إياها جزاء ما أمتعته به من لتملأ رأسي المؤلفات، لكن عبارة "أجمل محظياتي" الواردة في الكتاب استوقفتني، درجة، فهي لا تُشَرَّفُ بالتساؤل، ذلك أني أعلم أن المحظية في سلم الحريم، أعلاهُنَّ الجواري، لكنها ستكون لدي امرأة بهذا اللقب إلا بعد أن يقع تفضيلها على جميع بدون ألقاب! قلت في نفسي.

والتفت إليها لأستنبط من الخبر حقيقة المعنى. في تلك اللحظة رمقتها وهي تضع بدخولها خمارها فوق حاشية سجادتي الشيرازية، بعد أن خرجت من عباءتها إعلانا حتى لا أقع في عصمتي ومتاعي، فأصابني الدُّوار من فرط المفاجأة إلى أن تماسكت ناعمة البشرة على الأرض، ذلك أني وجدتها عفراء، فاتنة الحسن، ممشوقة القَوام، آسر، إنها كمرمر فارسي، بيضاء كعاج هندي، وبعينيها الواسعتين كحل طبيعي نموذج جمال المحظيات في قصور الخلفاء.

يا إلهي، مجرد مؤلفين من بنات أفكاري، وكتاب الحيوان للجاحظ كنت قد نسخته بيدي، وبعض كتب أرسطو المترجمة من السريانية إلى العربية على يد صديقي أبي الافتتان زكريا يحيى بن عدّي النصراني، وها أنا أجازى بامرأة مغلفة بالسحر حدّ والدهشة.

حسناً فعلت بإهدائي الوزير "أبي الفضل" تلك الكتب، وإلا ما كنت لأقف شاهداً على ما تحدثه المرأة في أحوال الرجل.

توقفت عن الكلام متأملا تلك الأيام، فضحك محمد شكري، وطلب مني أن أستمر في فاستأنفت حديثي، وابتسم الوكيل العام وهو يشير عليَّ بيده أن أواصل سرد قصتي، القول:

ــ ظلت "نهاوند" منتصبة بجواري نخلة باسقة، ومن انشراح محياها عرفت أنها وألقيت سعيدة بقدرها، أنا أيضا بقيت مأخوذاً، لكنني نزعت عقالي من فوق رأسي،

بأصابع به فوق البساط الفارسي نفسه، وصرت دون إرادتي أتلمس شاربيّ وأفتلهما أليس القدر هو يدي، والنشوة تشتعل في فؤادي، فكلنا محكوم بإرادة الله ومشيئته، الذي سخّرها مملوكة لي، وسخّرني مالكاً لها؟ تلك مشيئة الله.

(7)

ــ كم مدة بقيت مع "نهاوند"؟

سألني محمد شكري.

ــ ثلاث سنوات هي كل ما تناسلته أيامي مع "نهاوند"، وقبلها لاشيء يستحق نبش تفاصيله. ثلاث سنوات تغير خلالها طبعي وديدني، حتى شيطان ترسّلي انقلبت أحواله، أضحى يكشف لي عن مكمن المكارم والشجاعة بعد أن كان يفضح لي اللؤم والجبن، يرشدني إلى المحسن لأمدحه عوض أن يدلني على المسيء لأذمه عنها، تلكم حقائق مبهرة. فقبل "نهاوند"، كان طبعي أن أتتبع نقائص الناس وأن أحفر مكانة الهجاء لدرجة أني كنت قد بلغت الذروة في الذَّمِّ والهجاء، حتى زاحم ترسلي رائقة، لتصير في شعر "جرير" و "الفرزدق". لكن بمجيء "نهاوند" صارت أيامي على تحويل معها نفسي تحس بالطلاوة في كل شيء. تلك خاصية العشق، فهو قادر الأرض سوف لن مصائرنا من طريق النار إلى طريق النور، فمن لا ينعم بالنور في ينعم به في السماء.

هكذا صرت أرى الأشياء أنا الكهل النازل من الظهيرة، وهي الحسناء الربيعية من القادمة من الضحى، وتمنيت لو تمدني بولد ذكر أصقل عقله بما حباني به الله والده أبي علم ومعرفة، فأسعدَها أن يكون لي معها نسل، لكن مولانا "أبا الفتح وريث وعقابا بي على كتابي الفضل بن العميد"، أجهض حلمنا حين استعادها إليه نكاية فيَّ مثالب الوزيرين" الذي فضحت فيه والده".

بعد رحيلها أظلمت الدنيا من حولي، فصرت كمن ضل طريقه، ولم أعد أطيق البقاء في المشرق، أضرمت النار في مؤلفاتي جميعها، وقررت الرحيل بعيدا، دون أن أحدد وجهة معينة، إذ ازدحمت في رأسي فارس مع الهند مع السند، وحين حضرتني الأندلس، أمسكت بها، وألغيت ما عداها، وأخفيت قراري عن جميع بني البشر، إلا عن نهاوند، التي حين علمت بعزمي على الهجرة إلى الأندلس، سرّبت لي مع

كان وصيفتها خبراً، مفاده أنها ستظل في انتظاري إلى أن أعود ويقضي الله أمراً مفعولا.

مُفَادُهُ أنها في يوم آخر، ومع الوصيفة ذاتها، أبلغتني أجمل خبر تلقيته في حياتي، وسترافقهن ضمن قافلة أفلحت في الانضمام إلى حريم أحد التجار من معارفها، تتأهب للسفر إلى غرناطة، طالبة أن أظل كاتماً سر سفري.

كتاباً من فرط سعادتي لم أنم تلك الليلة، لكن قبل أن تغادرني الوصيفة، حمّلتها ولا إلى موجزاً، مبهما لمن قد يصادفه سواها، من غير أن أشير فيه إلى مرسله، العريف متلقيه، قلت فيه بالحرف الواحد: "كل صباح يوم جمعة، عند مدخل جنة بالمدينة المقصودة، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولا".

كنت على يقين كامل، من أنها بفطنتها وذكائها ستعرف أن موعد لقائنا سيكون في صباح يوم جمعة عند مدخل حدائق جنة العريف في غرناطة، ففي هذا الوقت، الناس بالاغتسال وارتداء الحلل النظيفة، استعداداً لصلاة الجمعة، كما أن ينشغل على النسوة في هذا الوقت يتبادلن الزيارة مما يتيح لنا التردد كل صباح يوم جمعة جنة العريف إلى أن نلتقي.

ــ جميل، رائع.

صاح محمد شكري وأضاف:

كيف تم لقاؤكما في غرناطة؟

المُنَقّب" " ــ لم نتقابل، إذ رأيت الدرب دوني، فقد ألقي القبض عليّ في مدينة قبلي، ولربما هي الآن الساحلية، قبل أن أبلغ غرناطة، ولعل "نهاوند" قد وصلت إليها تتردد كل صباح على حدائق جنة العريف منتظرة قدومي.

ــ تقول إنها تتردد الآن على جنة العريف. أَتعلم أن الآن هذه قد مرّ عليها عشرة قرون؟

علق شكري وسألني، لكنني لم أجبه، فعاد يسألني من جديد:

ــ أكتبت شيئاً عن سنواتك الثلاث مع "نهاوند"؟

ذلك ــ سبق وأن قلت بأنني لم أدون شيئا عنها، إنني فوق مرتبة الكتابة عن النساء، الحديث عنها أن الشعر وحده في اعتقادي، دون الترسل، ما يُنظم عن المرأة، لكن هيبتهم في المجالس الرجالية الخاصة، لا يضر بمقام الفقهاء، أو ينال من.

ــ وهل نظمت فيها شعرا؟

سأل محمد شكري في عجلة من أمره.

صمت الجميع وكأنهم تضامنوا مع سؤاله، فاعتدلت في مقعدي، ورفعت رأسي إلى المكتب، باحثاً عن مقاطع تناسب المقام، وأنشدتهم مما أحفظه عن أحد شعراء سقف قصر كتامة:

آهٍ مما أضرَّ بي من غرامي
واشتياقي ولوعتي وغليلي
سادتي هل إلى الوصالِ سبيلٌ
إنّني لم أجدْ له من سبيلِ
فارحموا مَنْ شكا لغير رحيمٍ
كم له في ذوي الهوى من قتيلِ
ناله عِزُّكُم وذَلَّ لديكم
فاعجبوا منه للعزيز الذليلِ
وبشوقي بعثتُ قلبي رسولا
فارفقوا لا يُحلُّ قتل الرسولِ

حرك الوكيل العام رأسه مبتسماً، وخاطبني:

ــ لنَعُدْ إلى الموضوع، أين اختفت الألف عام وأنت مازلت هو أنت؟

حثتني ــ أعترف يا سيدي بأنني محاصر بهذه الواقعة التي تكاد تتلف عقلي، والتي الأمّارة أكثر من مرة على الانتحار، ولولا إيماني بالله ما كنت لأتقي شر نفسي يحتسب"، صدق الله بالسوء، "ومن يَتَّقِ الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا العظيم.

وضعت رأسي بين راحتي يدي، وطفقت أفكر باحثاً عن الحلقة المفقودة في حياتي، أومن تلك التي كان للعرّاف "ابراهيم السوسي" يَدٌ فيها دون شك، لكنني شخصياً لا بالسحر.

لكن الوكيل العام مزق حبل تفكيري حين عاد لسؤاله:

ــ أين تظنّها اختفت الألف عام؟ ماذا حدث لك في إسبانيا؟ أتتذكر واقعة معينة لها صلة بهذا الموضوع؟

ـــ نعم أتذكر.

قلت، وخفضت رأسي مفكراً، متذكراً تفاصيل ما حدث في العدوة الأندلسية، فأسرع الوكيل العام يحثُّني بأسلوب لبق على الحديث:

الساحل ـــ تكلم، اسْرُدْ كل ما تتذكره من أيامك في اسبانيا، منذ أن ركبت البحر من ما تجود المغربي إلى أن ألقي عليك القبض هناك، فلنا متسع من الوقت لسماع كل به ذاكرتك، تفضل، توكل على الله.

ـــ حين وَطِئَتْ أقدامنا أرض الأندلس في بلدة "طريف"، وكنت ضمن القافلة التي ودليلا لنا غادرت فاساً، استأجرنا ثلاثة فرسان بخيولهم وأسلحتهم، ليكونوا حراساً أيام، وبها قد نستعين بدليل إلى غاية بلدة "المُنَقَّب"، التي قيل لنا إنها تبعد مسافة ستة مسافة يوم واحد آخر يرافقنا إلى "غرناطة" التي لا تبعد بسوى.

لمكاره أو كان الصباح بارداً، فسارت قافلتنا في حفظ الله ورعايته، دون أن نتعرض الصاعدة مخاطر، إلا ما كان من وعورة بعض الطرق والممرات والمسالك الجبلية النازلة المشرفة على البحر أحيانا، والقاصية عنه أحياناً أخرى.

مررنا بقرى ومداشر ووديان وأنهار، تثير الإعجاب والدهشة، لدرجة أن بعض المشاهد أيقظت بفؤادي مشاعر كانت آسنة، حتى أنني نظمت عنها شعراً.

الأندلسية نعم، أقرّ بجمال منتزهات فاس وعجائب ساحل بحر الظلمات، لكنَّ لهذه كان البحر فرادة وطعما آخر، مذاق شراب ساحر يسكر بمجرد وقوع البصر عليه، والطبيعة الرابض دوماً بين تلك الجبال والهضاب والسفوح، يزيد الأنفس تجليا سماوي نزلت إجلالا، حتى المطر المتساقط فوق رؤوسنا، بدت لنا زخّاته دموع فرح لتخفف عنا محن الطريق ونوائبه.

إلاَّ في ربما اندثرت اليوم تلك المدن والمداشر والوديان والأنهار، أو هي قد لا توجد طرية، إذ لم يمر بطون الكتب، لكنها بالنسبة لزماني الخاص بي مازالت لدي طلية على رحلتي هذه سوى بضعة أيام، يالفظاعة القدر!

سكت عن الكلام بعد أن انتبهت إلى أنني خضت في حديث قد لا يروق الوكيل العام، وقبل أن أبادره بتقديم عذري، قاطعني مبتسما.

ـــ أرجو أن تستمر في حديثك بالكيفية التي تريحك، إننا جميعا نستمتع بجميع تفاصيل رحلتك، إنك أيها الشيخ متحدث باهر ماهر، تعرف كيف تستحوذ على

العقول، استمر لا تتوقف؟

شكرته وأضفت:

والإرهاق، استقبلتنا مدينة "المُنَقَّب" بمساءٍ شاتٍ، عاصفٍ بالرياح والزوابع والتعب كل الكائنات من دور وجدنا الظلام قد سبقنا، ناشراً رداءَهُ الأسود عليها، فحجب عنّا سَوَاقِ جارية وبحر وهضاب، حتى الأرض من تحت حوافر دوابنا تحوّلت إلى أوتاد خيامنا فوق ذلك بسيول المياه المنسابة من أعالي الجبال، فاستحال علينا دق واحد منا البقاء فوق ظهر الزمهرير المتدفق المصم للآذان، مثلما استحال على كل مِفرٍّ مُتدفق دابته، والماء فوق رأسه وتحت أقدام مركوبه مِكرٍّ.

عَدَّ بعضنا هذا الاستقبال نذير شؤم، لكنني شخصياً كنت قد اعتدت أن لا أتوجس شراً إلاَّ من بني آدم، وليس من غضب الطبيعة.

صغيرة ظللنا وقتاً من الزمن نتحسر على حالنا كالأيتام، إلى أن اهتدينا إلى مغارات وبغالنا وحميرنا تحت تزدان بها الجبال، أرشدنا إليها حراسنا الفرسان، فقيّدنا خيولنا للقطع بسيف أو خنجر، وابل مطرٍ عاصف في ظلام سميك، كأنه شيء مادي قابل عن حراسة الدواب لدرجة أن كلابنا خشيته، فلحقت بنا إلى المغارات متخلية.

كنت آخر من اهتدى إلى مغارة نائية منعزلة، دخلتها والبرد موشك على تجميد يرتديه إلا مفاصلي وقبض أنفاسي، فاستبدلت بثيابي المكسوة بالماء قفطاناً فاسيا لا هذا، لكنني قلت أكابر القوم عند استقبال ضيوفهم، وليس أثناء نومهم، كنت أعرف في نفسي، إن للضرورة أحكاماً.

وفاتني أن أقول، إنني قبل أن أرتدي القفطان الفاسي، كنت قد لبست تكة عراقية وفوقها غلالة عراقية أيضاً، وبالرغم من ذلك ظلت أوصالي تصطكُّ من هجمة صوفيّاً البرد، فنهضت وأضفت فوق القفطان، بَقيراً وشملة عراقيين ثم جلباباً فاسياً فاكتنفني دفء بقب كبير غطّيتُ به رأسي بعد أن دثرته بكوفية وطرحة عراقيتين، خنجري معقول، لعله كان السبب في أني ما إن توسدت سرج حصاني ووضعت مجهولة على مفرق بجانبي حتى داهمني سبات عميق، وكأنه حسام مهنّد أَهْوَتْ به يد رأسي، فأوقفت تشغيله في الحال.

وحين استعادتني الحياة، وجدت الظلام ما زال مخيماً على المغارة، ففزعت، إذ حسبت نفسي قد صحوت قبل طلوع النهار، مستبعداً أن أكون قد نمت ليلتي ويوماً

نائية كاملاً دون أن يتولى رفاقي إيقاظي. لكن الشك لعب برأسي، فمادامت المغارة فلِمَ لا يكون مرافقيَّ قد ضلوا الطريق إليها فتركوني نائماً.

قمت أبحث عن المنفذ الذي تسللت منه، فزكمت أنفي رائحة رطوبة عطنة. وبعد طواف وتطواف، تأكد لي أن المغارة مغلقة، ولاشيء بها يسرب الضوء أو الهواء، أو يتيح لي الخروج منها، ذُعرت، فأمسكت بخنجري، وطفقت أقرع به الجدار ضوضاء وصراخاً عسى أن يُقَيِّض الله لي انتباه أحد مرافقيَّ، فيسرع وأحدث لنجدتي.

قرعت وقرعت وقرعت، وصرخت وصرخت وصرخت، فما انتبه أحد إلى قرعي صراخي، فاستبدلت بخنجري سرج حصاني، نزعت عنه الركاب وصرت أو سمع وذا الجدار، محدثا دوياً يخترق سمع الأصم، كنت لا أتوقف إلا أقرع به ذا الجدار مَتْنِي، فأعيد مواصلة الدق والقرع والصراخ، وأعيد وأعيد، إلى أن بعد أن يكل بأن ذلك الجحر المسكون بالظلام، سيكون الشاهد الوحيد على نهاية صار يقيني قلبي الذي تتسارع دقاته، مثلما تتسارع دقات الطبل إعلانا لخاتمة وصلة حياتي، وأن الغناء، سيتوقف بعد لحظات لتختتم وصلة وجودي.

إنَّ عِلمَنا لو أحاط بموتنا متى سيكون، لكان ذلك مفسدة لنا، ومحنة شديدة علينا، " فالجهل بالشيء راحة، والعلم بالشيء تعب".

سبق أن قلت هذا متفلسفا متخيلا، وها أنذا أعيشه حقيقة وواقعاً، ألمس بجميع حواسي مفسدتي ومحنتي ونهاية حياتي.

أفكار مثل هذه وحدها، كانت تطرق رأسي، فشعرت بالوهن، ولم تعد قدماي ثقل جسدي، ولا عادت يدي تقوى على الإمساك بالركاب لقرع الجدار، تتحملان سقطت على الأرض مستسلماً لقدري ناطقاً بشهادتي، دوّى في أذني صدى وبعد أن الخارج، فأرخيت سمعي لأتبين الأمر بإحساس من يستمع إلى منطوق لطرق من الحد عليه في جناية كبرى بالإعدام أو البراءة حكم بإقامة.

تأكد لي الطرق من الخارج بوضوح لا لبس فيه، فأحسست بعينيَّ تغرورقان بالدمع إعلانا عن ولادتي من جديد،. أنا إذن رجل حي يرزق، هناك سعي حثيث في لإنقاذي، كنت أعرف أن شهامة رفاقي المغاربة لن تجعلهم يتخلون عني في الخارج خَلْعَ مهجورة، ويحلو لهم سفرهم إلى غرناطة. ما كانت شيم مريدي سُنَّةِ مالكٍ مغارة

أصحابهم، وقد عاشرتُهم وخبرتُهم زمنا تضيع أيامه في العد.

لم أدر كيف غشيتني عافيتي، واشتدّ بأسي، لأجد نفسي وقد انتصبت واقفاً على قدمي، فتناولت ركاب سرجي وسط ظلام القبو، وصرت أقرع الجدار بكل ما أُوتِيتُ من قوة مستعادة خارقة، وأصرخ بذات القوة نفسها:

أنا "أبو حيان التوحيدي"، أغيثوني، أغيثوني!!ـــ

ازداد هدير المعاول المنبعث من الخارج حقيقة قائمة كاسمي وصراخي، كشمس الحياة الهجيرة وبغداد وفاس، وبقدر ما كانت دقات الحفر تقترب، كنت أقترب من المغارة، لم أدر إن كان الجدار قد تحطم، أم إن أولئك الرجال انبعثوا معي بداخل أصواتاً ترطن بكلام ذلك أن نوراً كلمح البرق كان قد أعمى عيني فلم أتبيّن منهم إلا بي وتقتادني في مجاهل غريب لم تسمعه أذني من قبل، بعد ذلك شعرت بِأَيْدٍ تمسك بمكتبكم هذا لم أتبيّنها، إلى أن استعدت بصري بداخل مكتب شبيه.

أسئلتهم تتقاذف بعد أن سقوني ماءً ولبناً، وألقموني رغيفاً حدَّ الارتواء والشبع، بدأت الطريق الذي من حولي، مرّة عن كيفية وجودي بذلك المكان، ومرّة أخرى عن يتحدث بعربية سلكته إلى الأندلس، ومرّة عن أسماء وأوصاف رفاقي، كان أحدهم كلمة واحدة من كل ما، هو الذي تولى وساطة الترجمة، فشرح لي أَنَّهم لم يصدقوا ضخماً كان مقاماً بمكان ما أخبرتهم به، ولا هو نفسه صدّق ذلك، وذكر لي أَنَّ بناء المختصين في علم الآثار وجود المغارة منذ سنين بعيدة، لا يضبطها سوى تلك المغارة والبقاء بها حياً الإسلامي، وأنه يستحيل على أي كان من بني آدم ولوج مجرد شبح فعدّني الجميع مجنونا وقال أحدهم عني أنّي.

(8)

بعرّاف مقتدر ذلك ما حدث بالأندلس، لكن قبل ذلك وأنا في فاس، كنت قد التقيت أو لنقل حرزاً كما يدعى "إبراهيم السوسي"، فأعدّ لي رقية، كما نسميها في العراق، بعيدا عن بغداد، فهل لهذا تسمونه في المغرب، وأخبرني بأنها ستحفظ بدني مادمت السنين؟ هل أفلح ذلك الساحر إلى هذه السحر علاقة ببقائي على قيد الحياة كل هذه نائماً بتلك المغارة مدة عشرة قرون، هذا ما الدرجة؟ لعله كان السبب في بقائي نفسي، هو أنني أبو حيان التوحيدي، وأعرف أرتاب فيه، غير أنّ ما أعرفه عن

وفلسفة المسلمين قديمها وحديثها إلى زماني الذي خلاني ومعارفي وتاريخ وآداب هجرية. أما ما جاء بعده فهو لدي في عداد الغيب. عشته، والمتوقف في عام ٤٠٠ عبده تولاه بلطف من عنده". صدق الله العظيم "إن الله إذا أراد نجاة.

"ظلت عيونهم جاحظة مشرئبّة نحوي في خشوع وذهول، لكن الشاب "محند أشهبار عرفت الكاتب، وفي غفلة مني ارتمى عليَّ يعانقني، فترك بخدّي شيئاً لزجاً ساخناً، أنها دموعه، وأن ما فعله جاء تعبيراً عن تصديقه لروايتي.

أجل، صدّق أصغر الرجال أنّني أبو حيان التوحيدي القادم من دهور ولت وانقضت، وإلا ما كان ليبلل خدّي بما فاضت به عيناه دون إرادته.

أراحني ما فعله الشاب، خفف عن كاهلي بعض ثقل همومي، دلني على أن منطق الرجال لم يطرأ عليه سوى تغيير طفيف، وأن الأحاسيس ما زالت توازي ووعي العقليه، فمن يستعص عليه الاحتكام إلى البرهان العقلي يسخرْ أحاسيسه لتكون الأدلة دليله.

واكتنفني شعور قوي بأن دورهم آت لاريب فيه، وأن الأمر يحتاج إلى بعض الوقت هذا كي تلين مداركهم، فما دام الطرق مشتداً، فإن عقولهم لن تنفك تنفتح ليتقبلوا الواقع، واقعي هذا الأسطوري المحير، وهو واقع والله يستعصى هضمه ويصعب إليهم من تصديقه، فأنا نفسي أكاد لا أتقبله، بالرغم من أني صاحب الشأن، القادم البائدة التي أنا حقبة زمنية أعرفها ويجهلونها، الشاهد الأوحد عليها، على أيامي تلك الحاضرة التي لا أعرف منها وحدي الأقدر على الإحاطة بها، وأيامي هذه القليلة سوى هذه الوجوه الآدمية المحيطة بشخصي.

ظل ذهني منشغلا في حواره الباطني إلى أن نطق الوكيل العام للملك، يخاطبني:

ــ إنني يا سيدي أود لو أصدق كل كلمة تصدر عنك، فإذا كنت أنت حقا الشيخ "أبا أن حيان التوحيدي" كما يدلني قلبي، فسأكون من الشاكرين له عز وجل، إذ قيض لي أتحدث إلى شخصية فريدة قادمة من زمن بعيد، شخصية في علو قدرك وعلمك ومكانتك الرفيعة في التاريخ العربي الإسلامي.

توقف يفكر وقد غشيت محياه سحابة حزن، وبصوت أجش خاطبني وكيل الملك:

ــ إنني أحس بقشعريرة تسري في بدني، ذلك أني من فرط الذهول أكاد لا أصدق ما القادم من "أسمع وأشاهد، يا إلهي، كيف أتولى استنطاق العالم "أبي حيان التوحيدي

وكأنه مجرم آثم؟ بطن التاريخ، وآمره أن يقف دون حركة، ويجعل يديه مغلولة خلفه إنني أعتذر يا سيدي، ألتمس منك المغفرة!

وتدخل الوكيل العام:

ــ والله ما عدت أقوى على الاستيعاب، وأظن أني في حاجة إلى بعض الوقت.

توقف قليلا وكأنه شارد الذهن، ثم أضاف:

ــ بالنظر إلى مهمتي الجسيمة رئيساً للسلطة على هذا الإقليم، فإن مسؤوليتي لها تجبرني على التدقيق والتمحيص، خاصة وأنا أمام واقعة غريبة وفريدة، لم يسبق مثيل في تاريخ القضاء.

وأدار وجهه نحو وكيل الملك يخصه بخطابه:

هذا المحضر يجب أن يحفظ وبطريقة قانونية، والتعليل المناسب هو التقادم.

والتفت نحوي مبتسماً:

تاريخ ــ إنها إجراءات عادية لقبر الملف، ذلك أن هجرتك إلى إسبانيا قد تمت في يطبق بأثر قديم بعيد، والقانون لا يسري إلا على الجرائم المرتكبة في ظله، أي لا نبعث رسولا رجعي، وهي قاعدة مستمدة من القرآن الكريم: "وما كنا معذبين حتى".

ما إن توقف الوكيل العام حتى صرخ محمد شكري:

ــ هنيئا سيدي أبا حيان.

فتبعه هتاف بالترحيب.

لكنني بالرغم من صواب القرار، والفرح الذي عم فطفا على وجوه الحاضرين، ظل ذهني منشغلا بقضيتي الأساسية، تلك التي طغت على كل ما عداها، فبعد انحداري لم نحو خريف عمري، أجد نفسي أبدأ المسير لأتعلم كيف أواجه عالما جديداً غريباً مستمدة من ألفه ولم يألفني، فحتى قوانينه التي يتحجج الوكيل العام بقوله إنها كان المسلم في الإسلام، بدت لي صادمة، إذ كيف بالله يعاقبون على الهجرة، متى علانية؟. ألم يهاجر الرسول بلاد الإسلام يُعَاقَبُ على الهجرة سواء أكانت سرية أم كتابه إلى الهجرة في أكثر من آية؟ "ومن سرّاً من مكة إلى المدينة؟ ألم يَدْعُ الله في مُرَاغماً كثيراً وسعة". "ومن يخرج من بيته يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض يدركه الموت فقد وقع أجرُه على الله، وكان الله غفوراً مهاجراً إلى الله ورسوله ثم رحيماً".

أمر يستعصى على الفهم، ما علمت بوجود دين أو مذهب يقيم الحد على المهاجر شأن السرّي، ما أعلمه يقينا هو أن الله سبحانه وتعالى في قضية الهجرة، رفع من والأنصار بني آدم وسوّاه برسوله حين قال: "لقد تاب الله على النبي والمهاجرين من القابع الذي الذين اتبعوه في ساعة العسرة". إن للمهاجر في الإسلام مرتبة أعلى والعيش أو الفرار من لا يهاجر، فنيته لا تتعدى طلب العلم أو البحث عن القوت رسوله الضيم والذل. فهل في هذا ما يخالف كتاب الله وسنة.

على كان الوكيل العام يملي على الكاتب محند أشهبار تعليل نجاتي من قسوة العقاب جريمة هجرتي السرية البشعة في نظرهم. وفكرت في أن أناقش الرجل في الموضوع، وأن أعلن له بأن قوانينهم تخالف الشرع، لكنني خفت أن تغضبه أفكاري صدره وهو رئيس السلطة، فينقلب لينه إلى ما لا تحمد عقباه. فالحاكم عادة ما يضيق لو تجاه محكومه إن عارضه، مثلما يتسع صدره أمام من هو أعلى سلطة منه حتى المغاربة، فقد أهانه، تلكم طبائع الحكام لو يعلمون! ثم إني أجهل قوانين هؤلاء عام، وجائز أن تكون قد عرفتها نابعة من الإسلام، لكن ذلك مرَّ عليه أكثر من ألف بيزنطية أو مجوسية، أو قد انقلبت إلى غير منبع الإسلام ومذهب مالك، كأن تكون ظهر في غمارة قد انتشر، فساد يكون مذهب المدعو حاميم المتنبي، البربري الذي بلد يظله الإسلام، إلى جريمة يقام ربوع المغرب، إذ لا يعقل أن تتحوّل الهجرة في عليها الحد.

كانت هذه الخواطر تموج مسرعة في ذهني، فسكتُّ عن الكلام وأنا أحدج الحيرة المرسومة على وجوههم جميعا تتضاعف، لكن خواطر أخرى مضادة اقتحمتني عمّا اعتبرته حدّة في لهجتي، إذ فكرت في أني ما دمت سأصدق القول في لتثنيني من الهجرة، وهو موقف عقلاني سليم، يساير الشرع، فليفعلوا بي ما شاءوا، موقفي أن أغير من منطقي وصراحتي، حتى لو كان لهم منطق مخالف، فالصدق دون براهينه، ويكشف عن قوة صاحبه فيمنحه التقدير والاحترام والنفوذ، يحمل في كنهه أبوحيان التوحيدي" المجبول على قول الحق" فأنا.

وقبل أن أتحدث إليهم بالصراحة التي اعتزمتها، قاطعني الوكيل العام في أدب جم: عزيزاً ــ سيدي أباحيان المحترم، لتعدّ نفسك من هذه اللحظة، ضيفاً مكرّماً مشرّفاً المدينة التي شرّفتها وغاليا، ستنتقل الآن إلى الإقامة في أفخم فندق في المدينة، هذه

جديد، وهي المدينة نفسها بقدومك قبل أن تغادرها إلى الأندلس، وعدت لتشرفها من الله في الربع الإسباني كله التي غادرها وليُّها طارق بن زياد، لينشر كتاب.

وتدخل السيد محمد شكري مخاطبا الوكيل العام للملك:

ــ سيدي، إذا سمحتم، فإنني أدعو الشيخ أبا حيان للإقامة في شقتي، إلا إذا كان لكم رأيٌ مخالفٌ!

أجابه الوكيل العام:

ــ إن الشيخ أبا حيان سيحل ضيفاً على وزارة العدل، وليس على الخواص، فالرجل في حاجة إلى راحة كاملة.

وتدخل وكيل الملك مخاطباً رئيسه الوكيل العام:

ــ هل تأذن لي يا سيدي أن أحجز له جناحاً في فندق "المنزه"؟

المحيط ــ لا أبداً، أنا أفكر في إقامة "السراب" فهو فندق آمن، ثم هو مطل على سيكون في الأطلسي، بحر الظلمات كما سماه أبو حيان واستهوته مروجه، فهناك منآى عن كل مضايقة، يجب أن يخصص له أجمل جناح مشرف على البحر، وأن وزير تفرد له حراسة خاصة، إنني سأصحبه بنفسي إلى الفندق، بعد أن أتصل بالسيد العدل لأطلعه على هذا الحدث السعيد.

صمت قليلا وأضاف:

القضاة ــ آمركم جميعاً بأن يدفن هذا السرّ في مكتبنا هذا، وأن لا يتسرب إلى علم بشخصه أو المحامين أو غيرهم، فالشيخ أبو حيان يجب أن يستريح، وكل ما يتعلق الوحيد من طلبات وغيرها يجب أن أعلم به حفظاً لسلامته وراحته، فأنا المسؤول عنه إلى حدّ هذه الساعة!

وتدخل محمد شكري موجها كلامه إلى الوكيل العام:

ــ رأيك يا سيدي عين الصواب، وحبذا لو أذنت لي أن أبسط لك بعض ما تناقلته الأخبار عن حياة أبي حيان.

حرك الوكيل العام رأسه موافقاً، دون أن يقوى على إخفاء امتعاض لاح على محياه، فأضاف شكري:

القلائل ــ أبو حيان، لا يحب الأضواء ولا تستهويه حياة البذخ، وهو من الأدباء فعلت في مؤلفاتي الذين كتبوا التاريخ الباطني المسكوت عنه في بغداد، تماماً مثلما

لحياة المهمشين "الخبز الحافي" و "السوق الداخلي" و "وجوه"، حيث أرّخت ومثلما كتب مؤلفا كاملا والمنبوذين والحشاشين من ساكنة طنجة وتطوان والعرائش، عباد، انتقاماً منهما ورداً على ذم فيه صديقيه الوزيرين ابن العميد والصاحب بن محمود درويش رداَ على إساءته إليَّ، بل إساءتهما له، عرَّضت أنا كذلك بالشاعر للهجوم على الكاتب الأمريكي بول بولز، الذي أقام أيضا ألَّفتُ كتاباً مستقلا خصصته نواياه الاستعمارية السيئة، إذ كان يحب المغرب دون طويلا في طنجة، فضحت فيه المغاربة.

منبوذاً من هكذا كانت حياة أبي حيان، شبيهة بحياتي، فكلانا لم يتزوج وكلانا عاش المسحوقين قِبَلِ أقربائه وبني قومه، كما نشترك في خصوصية حمل هموم الأدبية جاء من لدن والمهمشين والتعبير عنها، كما نلتقي في كون الاعتراف بقيمتنا الآخر الغرب الأجنبي، وليس من لدن بني قومنا.

وقاطعه الوكيل العام:

ــ إلى أين تريد الوصول بالضبط؟

ــ أرغب في مجالسته بحكم ما نشترك فيه معاً.

حلَّ ــ أيها السيد محمد شكري، شتان بين ما تفكر فيه وما هو واقع الحال. إن الشيخ العربي في ضيفاً على ساكنة الأرض قاطبة، جاءنا معطراً بعبق التاريخ الإسلامي هذه المسافة طراوته التي كان عليها منذ عشرة قرون، إن انبعاثه حياً بيننا بعد وفلسفته، فتلك أشياء الزمنية الطويلة، لظاهرة فريدة محيرة للألباب، أما علمه وفكره على لسانه مباشرة، وليس ثانوية تأتي في مقام آخر، وقد نطلع عليها في كتبه أو على لسانك أنت.

قبل أن ينتهي الوكيل العام من حديثه، استسمحته في الرد على محمد شكري وقلت أخاطبهم جميعاً:

ــ لم يسبق لي البتة أن سجّلت التاريخ الجواني المسكوت عنه في بغداد، ولا في غير بغداد، ولا عاشرت المنبوذين والمهمشين، أو عبّرت عن همومهم في أي مؤلف أمام من مولفاتي، ويكفي على سبيل المثال العودة إلى كتابي "المقابسات" الموجود السيد الوكيل العام.

وأشرت بيدي إلى الكتاب وأنا أقول:

الخاصة ــ إن لم يكن قد طَالَهُ التزوير، ففي هذا المؤلف مثلا، قمت ببسط آرائي بغداد، وهي لأطلع الناس على القضايا الفكرية التي تستغرق اهتمام المثقفين في والدينية، وتبرز قضايا تتعلق بالمسائل والأبحاث الفلسفية والمنطقية والاجتماعية مسلمين ونصارى صورة من التعاون بين مثقفين منتمين إلى ملل دينية مختلفة، في جو من التسامح ويهوداً وملاحدة ومجوساً، يتحاورون ويتقابسون العلم والمعرفة وهم جميعاً شخصيات والود، أشرت إلى آرائهم وعقائدهم دون أن أهمل أسماءهم، منبوذٌ أو مهمشٌ واحدٌ سامقة، فلاسفة ومناطقة، دون أن يوجد من بينهم جميعا.

وأنا أتحدث، رمقت وكيل الملك يمسك بكتاب "المقابسات" ويتصفحه، وكأنه يريد التأكد مما قلته، فاسترسلت في حديثي:

فقد ــ أما عن صديقَيَّ الوزيرين ابن العميد والصاحب بن عباد رحمة الله عليهما، أشرقت الشمس وغابت، وأشرقت وغابت مدة خمسين عاماً على هجومي عليهما، وهذا معناه أني كنت في طور الشباب الأرعن، لكن أيامنا ما انفكت أن عادت إلى كما صفائها الأول، بعد تلك الخصومة التي استغرقتنا عامين لا أكثر، فعدنا لنصير والخوارزمي كنا، خمسة أصدقاء كأصابع اليد الواحدة، أنا وابن العميد وابن عباد قصر ابن عباد، وبديع الزمان الهمذاني، تجدد صفاؤنا، فأصبحنا إذا لم نجتمع في اجتمعنا لدى ابن العميد في قصره بحي الكرخ على دجلة.

بعد أن أنهيت كلامي، وقف وكيل الملك وخطا نحوي، فصافحني وهو يكرر اعتذاره لي، بادلته التحية، ودعوته إلى الجلوس في مكانه.

في هذه اللحظة، انتصب الوكيل العام واقفاً وقال لنا:

ــ أيها السادة، أشكركم جميعاً، وأعلن عن إنهاء الجلسة.

فأسرع السيد محمد شكري يقول لي:

ــ سيدي أبا حيان، إني أتوق إلى مجالستك، فهل تأذن بزيارتي لك في فندقك؟

ــ ليس اليوم، وليكن بعد أن أنال قسطا من الراحة.

غادرت المحكمة في موكب الوكيل العام، وأنا أحس صداعاً في رأسي وتصدُّعاً في مفاصلي، فكرت في أني لو أملأ رئتي بهواء نقي فقد أستعيد بعض عافيتي، كما فكرت في حاجتي الماسة إلى العزلة، إلى أن أخلو إلى نفسي علَّني أقوى على أكثر من التفكير في مصيبتي هذه الجديدة، فلم يعد لديَّ شكٌّ في أني فعلا قفزت على

عشرة قرون قد عشرة قرون، يا له من واقع مرٍّ صادم! فبعد ليلة واحدة أستيقظ لأجد أجعل عقلي يستوعبها؟ ولَّتْ! كل من قابلتهم يؤكدون هذه الحقيقة! لكن كيف لي أن حقّاً؟ يا إلهي، لا أقوى على كيف لي أن أعزّي نفسي في وفاة "نهاوند"؟ وهل توفيت كانت إحدى طيات هجرتي بعد أن التفكير في ذلك، كانت مناي وملاذي الأخير، بقيت على قيد الحياة. ترى ماذا كان ضاق بي المشرق بافتقادها، ولعلني من أجلها العميد؟ هل منعوها من السفر إلى مصيرها من بعدي؟ هل استعادها ورثة ابن جمعة في حدائق جنة العريف؟ من غرناطة؟ أم ترى سافرت فظلت تنتظرني كل يوم عظام الوزير متلاشية في التراب، أين لي أن أعلم بوقائع مرت عليها قرون! إن في رحلة الأندلس، كلهم اليوم وورثته كذلك. وخلاني في بغداد وفاس، ورفاقي يدلني على ما حل بهم قيد حياتهم، يرقدون عظاماً نخرة بعد أن طواهم الرّدى! من وعلى بيتي في الرُّصافة على دجلة، وبيت وعلى بغداد العباسية، والأندلس الأموية، الضفة الأخرى بحي الكرخ، وحفلات اللهو والسمر، الوزير أبي الفتح بن العميد في الوزيرين، كل شيء صار طعاماً لديدان القبور، بعد أن والمحاورات الفكرية في بيت إلاّيَ، أنا الأوحد الأبقى من كل بشر تلك الحقبة الزمنية، مضى بهم ركب الأيام، نار، وهم آدميون من تراب، ليتني قضيت في ذلك الزمن البائد، كأنني إبليس من هؤلاء القادمين من المستقبل، أو بالأحرى، الذين عدت إليهم من دون أن أتعرف يجمعني بهم غير الشكل البشري والشبه الآدمي، هل أنا قادر بعد هذا الماضي، ماذا في عمري على أن أتجانس معهم، وأنصهر في عاداتهم وحضارتهم؟ الانحدار أضحوكة بينهم، دمية ناطقة تَسْتَدر الشفقة وتثير الذهول، إن يستحيل! سأكون يستطيب العيش إلا في زمانه وثقافته ومحيطه الإنسان لا.

تذكرت كيف كنت أدعو الناس في مجالسي إلى طرح وساوس الماضي، ومخاوف المستقبل، وعيش الحاضر فحسب، جلبا لاعتدال النفس. أنا القائل بهذا، لكن، هل أقوى اليوم على عيش الحاضر فحسب؟ وأي حاضر، أهذا الذي ابتليت به في طنجة حاضر، أم هذا البغدادي المعشش في ذاكرتي بأناسه وأماكنه وروائحه؟ فكلاهما لدي تركت أحدهما في لا يجب أن يكون إلاّ حاضراً راهناً، وإن كان مُجزّأً إلى زمانين، قرون، أنا أعيش العراق منذ عشرة قرون، ولحقت بثانيهما في المغرب بعد عشرة أسميه بالحاضر، إذن الماضي والمستقبل في زمن يطلق عليه الحاضر، وعليّ أن

إلا إذا أوتي صاحبه وأن أعيشه بتوافق بين الظاهر والباطن، لكن التوافق لا يكتمل النفس أمام ما أنا عليه من نور العقل وقبس النفس، فكيف لي بجلب نور العقل وقبس حضوري؟ حيرة وقلق وتمزق داخلي وغيابي حتى وأنا في جميعاً، يا إلهي، عليَّ أن أعلن عجزي عن استيعاب حضارتهم، أن أجهر به أمامهم القائل بهذا في فالتظاهر بالعجز في موضعه، كالاستطالة بالقدرة في موضعها، أنا المغربي، إنما حاضري البغدادي، وأؤكده بعد عشرة قرون في حاضري هذا الطنجي كحالي اليوم في طنجة، ليس ترفاً فكريّاً، كحالي في بغداد، بل كواقع حسي ملموس، أنا عاجز، عاجز عن فشتان ما بين الكلام عن قبض الجمر وقبضه حقيقة، إذن الشبح مني إلى بني اتساقي وتجانسي معهم، وكذلك مع نفسي، أحس بأني أقرب إلى يقولون عن انبعاثي إنَّه الإنسان، ليتهم يدركون هذا، من أين لهم أن يدركوه، وهم خبر سعيد، إنه ضيف حلَّ على ساكنة الأرض قاطبة.

انتشلني الوكيل العام وأنا غارق في بحر همّي، وقال لي:

ــ سيدي الشيخ أبا حيان، إن هذه العربة التي نركبها تسمى "سيارة" وهي اختراع عمره حوالى مائتي عام، تجري بسرعة تفوق ركض الحصان عشرات أضعاف فمسافة الطريق التي يسيرها الإنسان على ظهر الدابة أو مشيا على قدميه المرات، أسبوع كامل، تجتازها السيارة في ساعات، أقصد في أقل من يوم واحد مدة.

سكت قليلا وسألني:

ــ كيف كنتم تقيسون الوقت في العراق؟ هل تقيسونه بالساعة؟

أجبته:

ــ إن قياس الوقت على الأرض اختراع عراقي منذ العصر البابلي. وحضرتني سورة يونس في القرآن الكريم فرفعت صوتي مرتّلاً:

السنين ــ "هو الذي جعل الشمس ضياءً، والقمر نوراً، وقدره منازل، لتعلموا عدد في اختلاف والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق، يفصل الآيات لقوم يعلمون، إن يتقون" صدق الله الليل والنهار، وما خلق الله في السموات والأرض، لآيات لقوم العظيم.

ــ آسف سيدي، نسيت أني أتحدث إلى فقيه عالم.

ــ أستغفر الله.

أجبته.

لم أحسست بإنهاك غشيني وأنا أعتمر مقعدي في الجانب الخلفي من السيارة، ولذلك المرتفعة في أحفل بما كان يشير إليه الوكيل العام من معالم المدينة، أو أبنيتها بالدوار، لذا ظل السماء، فالتفاتي إلى ما يوجد عن يميني أو عن يساري، يصيبني أخبرتهما بحالتي هذه، بصري منخفضا، أو مصوبا إلى الطريق أمامي، لكنني حين وكأنها استجابت لإرادته الخفية، أوقف الوكيل العام السيارة في لمح البصر، فرستْ وكيل الملك إلى الخلف، فعادت العربة تسير ودعاني إلى الجلوس بجانبه، بينما انتقل شبيه بنهر آسن، وعلى جانبيه تدفقت أشجار بنا في طريق ملتو مرصوص ناعم، ما فتئت أن فسحت المجال لعشب بري قصيرة، واستقامت أخرى فارعة الطول، أزرق شاسع امتد على اليمين، فنبهني أخضر غطى أديم الأرض على اليسار، وبحر المتساقط على صفحة مياه البحر، ترسله وكيل الملك إلى أن أنعم النظر في الشعاع السماء والبحر الشمس المحتضرة، قبل تلاشيها بين أفق.

وقال لي:

ــ إنه المحيط الأطلسي، بحر الظلمات كما كان يسمى قديماً.

فسألته عما يوجد خلف هذا البحر، إن كانت له نهاية، فأسرع الوكيل العام يجيبني:

ــ توجد قارة تسمى أمريكا، وقد اكتشفت منذ حوالَى خمسة قرون، أي في تاريخ مغادرة العرب للأندلس، بعد أن سقطت في يد النصارى.

تلقفت هذا الخبر وكأنه حجرٌ ألقي به فوق رأسي، وقاطعته دون أن أدعه يسترسل في مرده.

ــ تقول سقطت في يد النصارى! ألم تعد الأندلس عربية مسلمة؟

أجابني بمنتهى السكينة، وكأنه يخبرني بشروق الشمس أو مَغيبها، دون أن يدري أنه أوقد ناراً في رأسي وصدري:

ــ الأندلس ضاعت، تساقطت إمارة بعد إمارة، كان آخرها غرناطة.

ــ يا إلهي، أكاد أجن، لا أستوعب هذا الخبر، الأندلس تعود إلى العجم؟!

فتدخل وكيل الملك:

ــ إن الخبر ليس جديدا، فقد راحت الأندلس منذ خمسة قرون، ورحلت بعد سقوطها يوم مسلمة أجيال وأجيال، فمن ليس له اهتمامٌ بالتاريخ، لايعلم أن الأندلس كانت ذات

عربية، فلماذا ياسيدي هذا الحزن؟

ــ إنكما لا تدركان وقع هذا الخبر الصاعق على نفسي، فقد كان يقيني أن بلاد الإسلام تتسع وإذا بها تنكمش.

سرحت مفكرا ثم أضفتُ:

فمنذ ــ إن حكايتي مع الأندلس تعود إلى خمسين عاماً، إذا استثنينا العشرة قرون، ربه أطلعني صديقي الوزير الصاحب بن عباد على كتاب "العقد الفريد" لابن عبد آخر صار الأندلسي، وأنا لا يغمض لي جفن توقاً لملاقاة أهل الأندلس، وعاماً بعد أذكر أن صديقي اهتمامي يزداد بأخبار وأشعار وموشحات وفقه وعلم أهل هذا البلد، حضوري: "هذه كتاب "العقد الفريد" قال عنه في الصاحب بن عباد حين اطلع على أخبار بلاد بضاعتنا ردت إلينا"، فقد كان يظن أن الكتاب يشتمل على شيء من المحبة المتبادلة بين الأندلس، فإذا به يستغرق أخبار بلاد المشرق، وهذا دليل يؤكد نكتب إعجاباً بكم أصحاب الأرومة العربية الواحدة من المشرق إلى المغرب، أجمل أرض عربية وبأخباركم، وتكتبون إعجاباً بنا وبأخبارنا، لكن أن تضيع إسلامية، فأنا أحتاج لوقت كثير لاستيعاب هذا الواقع!

وتذكرت العراق، فأسرعت بسؤال عنه:

ــ ويحكما، ألا أخبرتماني بما حلّ بالعراق؟ ألا يزال خلافة إسلامية، أم إن العجم انقضوا عليه هو الآخر، فمسِّح أو مجِّس؟

أجابني الوكيل العام:

ــ اطمئن يا سيدي، العراق مازال أرضاً عربية إسلامية، من أغنى بلاد المعمور، لو أحسن حكامه تدبير خيراته.

فقدانها ــ الحمد لله، الحمد لله، لكن هذه الأندلس العروس الضائعة، سيصيبني خبر الشتات والاستبداد بالخبل، تبّاً لنزوات الحكام، والله ما ضاع هذا الفردوس إلا بسبب! ظهري عليَّ أن أقرأ عن سقوطها، وعن كل ما استجدَّ ببلاد العرب، منذ أن أوليتُ قيد بغداد في عام ٤٠٠ هجرية إلى اليوم، عساني بذلك أحقق البقاء عاقلا على ورأسي الحياة، وعساني أعثر لنفسي على بعض السلوى، أتعرّف فوقي من أسفلي، من قدمي، فإني من فرط الضباب المحيط بعقلي وبصري، بماضي وحاضري، لم أعد أتبين شيئا.

فالتفت الوكيل العام نحوي، وبنظرة قاتمة قال يواسيني:

ــ بالله عليك يا سيدي، إذا كنت لا تقوى على تقبل واقعك هذا وأنت المنطقي الفيلسوف المؤمن بالله، فمن يا ترى يتقبله؟

ماؤها عالياً توقفت بنا السيارة في ميدان فسيح منير تتوسطه بِرْكَةٌ بنافورة يتصاعد السيارة، بأننا في مرتعشا مثيراً للدهشة، فأخبرني وكيل الملك، ونحن نترجل من نصيحة الوكيل العام، مدخل فندق السراب، لكنني كنت أستجمع أفكاري لأرد على فقلت أخاطبه قبل أن نهم بالدخول إلى الفندق:

ــ أشكرك على نصيحتك بأن أتقبل أمر واقعي، إنني فعلا أسعى في تحقيق ذلك، فعل القبول أو الرفض، إذا كان مصدره العقل، فإن هناك فعلا آخر يصدر عن لكن النفس، ولا يتحكم فيه العقل، ولعل أبسط ما يمكن أن أمثل به، هو ما عبّر عنه الشام الخليفة الأموي عبد الرحمان الداخل، حاكم قرطبة، حين بعث إلى أخته في قائلا:

أيها الراكبُ المُيَمِّمُ أرضي
اِقْرَ من بعضِيَ السلامَ لِبَعْضي
إن جِسْمي، كما تراه، بأرضٍ
وفؤادي ومالِكِيهِ بأرضِ
قدَّرَ البَيْنُ بَيْنَنا، فافْتَرقْنا
وطوَى البَيْنُ عن جُفُونِيَ غَمْضِي
قد قضى الدَّهْرُ بالفِراق عَلَيْنا
فَعَسى باجتماعنا، سوف يَقْضي

داء الاغتراب إذا كان هذا العظيم الشجاع، الجامع بين السيف والقلم، يشكو من عنه الزمان والنوى، فما عسى أن يفعله فقير مثلي، فقد الأحبة والخلان، هرب والمكان.

(9)

مقتبل عمره، قصير ظلا ينظران إليَّ دون أن يفوها بكلام، فتقدم نحونا رجل في امتزجت باحترام وتقدير لنا، القامة، أنيق الملبس، سَمْح الوجه، تغمر محياه بشاشة

فقال له الوكيل العام عني:

"ــ إنه الشيخ "أبو حيان التوحيدي.

سألني صافحنا واحداً واحداً، فذهب يقيني إلى أنه لا يعرف شيئا عني، خاصة بعد أن إن كنت أحمل حقائب أو متاعاً، فأشار إليه الوكيل العام وهو يقول لي:

"ــ إنه السيد عبد السلام، صاحب "السراب.

فعرفت أن مالك الفندق، خرج لاستقبالنا، بناء على موعد سابق مع الوكيل العام، إذ بادره بالقول وهو يدعونا لنتقدمه:

ــ أعددت لضيفكم الشيخ، أجمل جناح مطل على البحر، قصي عن الضوضاء، وبإذن الله، سوف يكون مبتهجاً بإقامته.

التحق بنا رجل يحمل في يده مفاتيح، لم يبادره أحد منا بتحية، ولا بادرنا هو بها، ففهمت أنه أحد الخدم في فندق السراب.

وفكرت في أن ازدراء الأسياد للفئة الدنيا لم يطرأ عليه تغيير منذ عشرة قرون.

سرنا يتعقب خطانا الرجل المُزْدَرَى ملفوفا في صدرية بيضاء، وسراويل سوداء، بِرْكَةٌ كأنه قط فارسي مطيع وأمين، فمررنا بحديقة حفَّت بها دور بيضاء، وتوسطتها المنحدر شاسعة يتلألأ بها ماء شديد الزرقة، فكان على بصري أن يتوقف صوب الموج، عن يميني، لينعم في زبد أبيض يفصل سواد البحر عن رمل الشاطئ، إنه والفطريات، صخبه الرتيب وصل إلى أذني، مثلما امتلأت خياشيمي برائحة الطحالب المرحوم إنها رائحة شاطئ ثغر أصيلا نفسه، حين سرت على يابسته رفقة صديقي نباتاته "أبي عصيد"، البحر وحده ظل كالأبد، مستريحاً بصخب موجه، وروائح العطرة.

ونيف، ليتني كنت أفهم لغة البحر لأسأله عما حل بالدنيا خلال هذه القرون العشرة تقارب أدرت في رأسي حسابا عن المدة التي بقيها العرب في الأندلس، فوجدتها هذا ثمانية قرون، إنها ليست بالوقت الهين، فضحكت من نفسي ساخراً منها على أصبحت التحول، فبعد أن كنت أعد الوقت بالساعات أو الأيام أو حتى بالشهور، الإبحار في أعده بالقرون، لكن إصغائي لهدير البحر بلسعات برده، أوقف نفسي عن حكاية ضياع الكآبة، وراقني الفندق الذي تمطى فوق ربوة ساجدة للبحر، لكن الأندلس، ظلت مطرقة تدق رأسي.

أدخلنا صاحب الفندق إلى سكن يسع قوما من الناس، توقد أضواؤه وتطفأ بمجرد يوم، لمس أزرارها، لم يكن ليخطر بخلدي جماله ولا رونقه، ولا فكرت في أني ذات إلا، سأكون من ساكنيه، فقد حسبته هدفا لزيارة جاءت من قبل الفرجة عليه ليس مباغتة لكن، حين أبلغني الوكيل العام أنه مخصص لإقامتي بمفردي، أصابتني دهشة لم أقو على إخفائها.

صار يدلني على محتوياته، هذه قاعة جلوس تفضي إلى شرفة استراحة مطلة على البحر، وهذه غرفة نوم بنوافذ مشرعة على البحر، وتلك غرفة أخرى لا تقل رونقا مثيرة عن أختها، وهذا حمّام به قبر مرمري في بياض لبن المعز، وبجانبه مِيضأَةٌ يتحول وفق للاستغراب، وتلك معدات للحلاقة وقصِّ الشعر ومَشْطِهِ، وصنابير ماء أنفجر من إرادتك من بارد إلى دافئ إلى ساخن. فقاطعت شروحاته وأنا أكاد الضحك:

ـــ يلزمني تلقي دروسٍ لأعرف الاغتسال في هذا الحمام الخيالي.

ارتفعت أصوات الجميع بعَدْوى ضحكي، فتذكرت بأن صدري لم يعرف انشراحاً أن استيقظت من سباتي في مغارة مدينة المنقب بالأندلس، قلت لهم والضحك منذ بي يستبد:

نفسي ـــ لأفترض أنني تمكنت من غسل بدني في هذا التَّابوت الأبيض، فبماذا أدثر رائحتها وأستر عورتي وأنا لا أملك سوى ما أرتديه من أسمال رثة، تعاف الأنوف. فعمت قهقهاتنا من جديد أرجاء الحمام.

قال لي الوكيل العام وهو يجفف ما بعينيه من دمع ابتهاجه، ونحن نغادر الحمام:

ـــ بعد لحظات ياسيدي، سيلحق بنا أحدهم يحمل لك ألبسة لتنتقي ما يروق لك منها.

قلت له وأنا أوزّع نظري بين شخوصهم:

ـــ أسيكون لي مثل ما ترتدونه؟ شريطة أن يكون لباساً سائداً بين عامة الرجال؟

ـــ طبعاً طبعاً، إنه لباس عام، يرتديه الرجال في كل بقاع الأرض، بما فيها العراق.

لم أقو على حبس ضحكي، وأنا أخال نفسي ملفوفاً في هذا اللباس الشبيه بما كان والوزراء، ما يتزين به الغلمان والجواري في حفلات اللهو والغناء بقصور الخلفاء إن أخبرتهم بما خلته عن نفسي، حتى دوت الصالة بالقهقهات.

لم أتوقف عن الضحك، وأنا أشير بيدي إلى قطعة ثوب متدلية من عنق السيد عبد

كان لها السلام، صاحب الفندق، وشبَّهتها بحبل المشنقة، وأنا أسأل عن لزومها، وإن الحرارة دورٌ في درء السحر أو الوقاية من عين الحسود أو من البرد أو.

فأجابني الوكيل العام:

ــ لم أكن أظنك يا سيدي الفقيه العالم على هذا القدر من المرح والدعابة.

فقلت أرد عليه:

ــ أشكرك، وأخبرك بأنني بعد معاشرتي لخلان فاس، ولأصدقاء قصر كتامة ثغر أصيلة، أصبح يقيني أن المغاربة من أظرف المسلمين وأخفهم ولأصحاب لله دَرُّكَ، لم تجبني، ما الغاية من حبال المشنقة هذه؟ وأشرت إلى روحاً، لكن، المتدلية من أعناقهم الأثواب.

فأجاب ضاحكاً:

ــ إنها للزينة لا غير، وتسمى "ربطات العنق".

سكت قليلا وأضاف:

ــ وهي ابتكار أوروبي.

فأسعفه وكيل الملك شارحاً:

ــ حضارة أوربا هي السائدة في هذا القرن، فكراً ولباساً و غيرهما، والأندلس امتداد للقارة الأوربية، صانعة هذه الحضارة.

عن كاد تذكيري بالأندلس، هذه الهاربة من بين أصابع اليد العربية يصعقني، فيدرأ رباط " نفسي مرحها، لكنني استبعدتها عن ذهني وحصرت تفكيري في غرابة ابتكار العنق"، فسألت الرجال مازحاً:

ــ لعله ابتكار نسائي، أوحى به الحبل الذي تقاد به الدواب، أو تلجم به. إنما أود لو أعرف إن كانت المرأة تتزين به هي الأخرى.

فضحكوا وأجمعوا على النفي.

وأضفت:

ــ هذه قرينة على أن "ربطة العنق" من ابتداع المرأة، وذلك لتحكم به قبضتها على عنق الرجل متى شابهما نزاع.

عَمَّ الضحك من جديد، فاستأنفت بسط تداعياتي بذات السخرية المغلفة بالجد:

ــ إن المبتكر مثلُ الفيلسوف، تفكيره في الأصل مجرد رجع أو استجابة لحاجة

الرجل ابتكرت له تمليها الضرورة المادية أو النفسية، أو هما معاً، والمرأة حتى تُذِلَّ في سرها فلغايات هذه الربطة القريبة من شكل الأفعى، لزينة عنقه ظاهريا، أما أخرى، أضعفها تشبيهه بالحيوان.

ظل جو المرح هو السائد إلى أن دخل رجل محمّل بعدد من الألبسة والأحذية، في قياسات مختلفة، حتى يتسنى لي اختيار مقاسات تناسبني.

(10)

النافذة، أزحت بعد أن استعادتني الحياة، وصحوت من نومي، هرولت مسرعاً إلى ذاته الذي كنت قد ستارتها وأشرعت بابها، فاستقبلني شاطئ فسيح بهيج، هو الشاطئ سمرنا، فعرَّجت على تنسّمت رائحته بالأمس، وتذكرت الألبسة التي كانت موضوع وجوارب وغيرها، الصالة لأجدها في مكانها، أقمصة وبذل وأحذية وربطات عنق وكأني أتعلم لغة فضحكت من نفسي على الأسماء الغريبة التي كان عليَّ حفظها لامعاً، ووقفت أمام جديدة، ارتديت سراويل وقميصا أبيضَ ثم انتعلت حذاءً أسودَ ذقني قد زادت عن المعتاد، المرآة الكبيرة، أتفرج على نفسي، لاحظت أن كثافة شعر اللحية من جذورها؟ فكرت مليا، ماذا لو قمت بِقَصِّ شيء من هذا الشعر؟ أو اقتلعت وتوجهت إلى الحمام، أخذت المقص فنزعت القميص عن بدني بعد أن فتحت أزراره الوكيل العام وجميع مرافقيه، بل كل من وشذبت اللحية وهذبتها، ثم تذكرت كيف أن أملسيه، فلماذا أستثنى منهم؟ أغاية الدين أن قابلتهم في طنجة، كانوا حليقي الوجه نفسي، وأنا أبلل لحيتي وأدعكها بالصابون متّبعاً يحتفظ الرجل بلحيته؟ تساءلت في دلني على كيفية الحلاقة، لكنني أبقيت على شاربي مؤجلا إرشاد وكيل الملك، حين وبعد أن عدت لارتداء القميص، وقفت أمام المرآة الكبيرة إحفاءه إلى يوم آخر، فكدت أقع أرضا من شدة الضحك على نفسي، فقد جرّدتْ حافة الرابضة في الصالة، صفات الوقار والورع، بقيت زمناً أمام المرآة أنعم النظر الموسى محياي من كل قسمات وجهي، فقد بدا لي كأنه وجه شخص آخر قريب من وجوه وأعيده مدققاً في بمخلوقات القرن الحادي والعشرين الميلادي، لقد أعجبت بنفسي حقاً، المغاربة وشبيه أبدو كهلا عوض الشيخ الذي كنته سرني أن.

إن القسمات الحقيقية لوجه المرء، لا تتبيّن إلا بعد أن يزيل لحيته.

تذكرت الوزير الصاحب بن عباد، قبل أن تسوء علاقتنا، أي قبل أن أكتب مؤلّف مثالب الوزيرين"، الذي خصصته لذمه هو والوزير ابن العميد، فقد كنت في ذلك" رد المساء، في ضيافته بقصره الفاخر، رفقة الصديق "بديع الزمان الهمذاني" حين الآسن، فيما بروحه الماكرة على دعوتي إلى الابتكار والتجديد للخروج عن المألوف لا يخالف الشرع، وقال لي:

ــ لِمَ لا تُحْفِي لحيتك ابتكاراً، مادام الفعل لا يخالف الشرع؟

فعلّق "بديع الزمان الهمذاني" تزلّفاً للوزير:

ــ إن اللحية سنّها أشرف المخلوقين محمد رسول الله (ص)، وإزالتها معصية لا تُغتفر، إلا بالتَّوبة والعدول عنها.

فأسرعت بالرّد:

ــ إن الرسول قد سنّها من باب الإجازة عرفاً مشتركاً بين الأقوام، من مسلمين ونصارى ويهود ومجوس، وإن إحفاءها ليس ابتكاراً ولا بدعة، ولا تدخل في باب تجاوزاً المعاصي، صغيرها أو كبيرها، والدليل هو أنه لم يأت فيها وعيد، وإذا سلمنا فإن أن إزالة اللحية من المعاصي فستكون من الصغائر، وعلى رأي المعتزلة، بتجنب الصغائر تغفر بتجنب الكبائر، أي أن المعاصي الصغيرة، يستحق غفرانها المعاصي الكبيرة.

كنت أعلم أن الوزير الصاحب بن عباد شغوف بأراء المعتزلة، وهو في سرّه على مذهبهم، لكن ما إن أكملت قولي حتى استوى في مقعده، ونادى على الجارية رباب"، وهي من أجمل جواريه، لا يحضرها سوى في المجالس الخاصة الضيقة،" ناصعة امرأة كاملة، أسيلة، ظريفة الأنف، ضيقة الفم واسعة العينين، كحيلة الشعر، البياض، سلّمها قدح نبيذه، وأشار عليها أن تملأه، وخاطبنا:

الصغائر لستما مختلفين في الرأي، لكنكما لم تكملا شرحه، فكما قال أبو حيان. إن ناقص، ذلك أنه إذا اقترفت من مجتنبي الكبائر، كانت مغفورة، وهو قول حق، لكنه فإن معصيته إذا اجتمعت الصغيرة والصغيرة من ذات الشخص المجتنب للكبائر، على انفراد، ثم تصير من الكبائر، كالرجل الذي يسرق درهماً على انفراد، ودرهما يؤخذ بالذنب، إذا تاب آخر وآخر، فإن فعله يكون من الكبائر، ومن ثَمَّ فإن الشخص عنه وعاد إليه.

السراب"، دارت هذه الحادثة في ذهني وأنا أقف أمام المرآة في إقامتي بـــ "فندق التي كانت محور فكرت في المعاصي الصغيرة التي أرتكبُها تباعاً، فقد أزلتُ لحيتي وأنا اليوم في النقاش مع الوزير الصاحب والهمذاني، منذ أكثر من عشرة قرون، ثانية، ثم إني أتعمد أن طنجة أعتزمُ قَصَّ شعر رأسي تمثلا بالمغاربة، وهي معصية ثالثة، ويعلم الله ما قد أظل عاري الرأس، من أية عمامة أو عقال، وهي معصية فقد أصبتُ وأخطأ المعتزلة، أرتكب من الصغائر، لكنها أبدا لن تصير من الكبائر، بغداد، من سبق ومن لحق بهم، رحم الله الصاحب بن عباد والهمذاني وجميع خلان كانت برفقتي في عزلتي المغربية وأخص منهم جاريتي العزيزة "نهاوند"، فيا ليتها الحليق إلا من شارب يغلب عليه بياض هذه، لتدفئ وحدتي، وتسهم برأيها في وجهي الشيب.

لاشك أنها استحضرت أوقاتنا البهيجة وهي تترحَّمُ على روحي، واهمة أنني صرت في عداد الأموات.

الحقيقة أنَّها لم تكن واهمة، فقد كنت فعلا ميتاً، من يختفي كل هذا الدهر، لا يمكن أن يكون إلا ميتا.

الأبدي، لكن الموتى تفارق أرواحهم هياكلها، تغادر إلى الخلود الدائم المتصل الأزلي في الذي لا أول له ولا آخر، أما روحي، فهي دون شك بقيت مثلما بقي جسدي بقيت تضاعيف العاجلة، دون أن يطرأ عليهما أي تغيير، فكل ما حدث لي، هو أنني اطلعت على طيلة عشرة قرون مختفيا محتجباً عن العالمين العاجل والدائم، وليتني ما كان يحدث فيهما أو في أحدهما، لكن لا هذه ولا تلك.

إن من طبيعة الإنسان جنوحه إلى أن يعلم ما يحدث في غيابه، ولو بعد قيامه من على مجلسه وهو على قيد الحياة، أحرى لو يعلم ما سيؤول إليه بعد وفاته، لكن لا ماضي هذه ولا على تلك، فلم يتسن لي أن أطلع على سوى ما يموج في ذهني، على إليه البعيد الحزين المليء بالضيق والحاجة، وبالكرب والشدة، لكن مع ذلك أحن حنين الإبل في نجد.

(11)

أسمر سمعت نقراً على الباب، أسرعت لفتحه، فوجدت رجلا في مقتبل عمره،

عنق غامقة البشرة داكنها، ترتسم على محياه بشاشة محببة، تتدلَّى على صدره ربطة بأدب جم وانحناءة اللون، شبيهة بإحدى ربطات عنقي التي لم أتزيّن بها بعد، حياني من رأسه وأخبرني:

الفندق مع ــ إن السيد الوكيل العام يقرئكم السلام، ويخبركم بأنه يوجد في استراحة الصباح السيد وزير العدل وآخرين، وسوف يزورونكم بعد أن تنتهوا من فطور.

يسموه، لعله تحقيق جديد مع قاضي القضاة، أو وزير العدل، كما يحلو للمغاربة أن العربية قلت في نفسي، وفكرت في هؤلاء المغاربة الذين أصبحوا ينتهكون اللغة يكون رد بطريقة فجة، إذ يخاطبون شخصاً مفرداً بصيغة الجمع، تصورتُ ما قد تحريف وهما سيبويه أو السيرافي، لو كانا قد علما ما سيصيب اللغة العربية من على قيد الحياة.

تداركت سهوي عن الرجل الواقف أمامي، ودعوته إلى الدخول، لكنه اعتذر يبلغ بانشغالات له، شارحاً أنه مستخدم في "فندق السراب"، شكرته وطلبت منه أن السيد الوكيل العام، أني في انتظاره متى شاء، وأوصدت باب الإقامة.

وقاضي بعد لحظات، عاد النقر على الباب، فهرولت مسرعاً لاستقبال الوكيل العام مأكولات، القضاة، لكنني حين فتحت الباب فوجئت برجل يجر مائدة مزدانة بأصناف لضيوفي تكفي نفرا من الناس، دعوته إلى الدخول وأنا أسأله إن كانت مخصصة ألقيت نظرة .القادمين، فضحك وأكَّد لي أنها لي بمفردي، ولأتناول منها ما طاب لي واللبن والبيض، سريعة على المائدة، فلم أميّز من محتوياتها سوى الرغيف والماء إليها، وأخذ يدلني فسألت الرجل قبل أن ينصرف عن باقي الأصناف، وأنا أشير مستغربا جهلي لها:

ــ هذا شاي أخضر، وهذه قهوة، وهذا عصير برتقال، وهذا جبن، ثم رفع بصره نحوي وخاطبني:

ــ إذا احتجتم إلى شيء آخر فنادوني، اسمي محمد العربي.

وأجبته:

ــ أنادي من النافذة؟

ضحك في ذهول، وأشار إلى قطعة جماد فوق المائدة بجانب المرآة:

ــ اطلبوني بواسطة التلفون، على الرقم تسعة.

شكرته وانسحب.

جلست، وسحبت المائدة المتحركة نحوي، فشربت كل السوائل باردها وساخنها، ثم ألقيت في أحشائي بالرغيف والجبن والبيض، إلى أن أتيت على كل شيء، فبقيت الأقداح والأطباق فارغة، فكرت إن كان يصح لي غسلها أو ترك أمرها لصاحب الفندق، لكن ما دامت الإقامة تتوافر على ماء متصل لا ينقطع إلا بإرادتي، فَلِمَ لا أتولى تنظيفها، وهو ما حدث.

أجزم بأن بُعَيْدَ لحظات، عاد النقر على الباب للمرة الثالثة، هرولت لفتحه، وأنا رحبت بالرجال الطارق، هذه المرة، لن يكون إلا الوكيل العام، وفعلا أصاب جزمي فوق أرائك مريحة، الأربعة، وصافحتهم واحدا واحدا، ودعوتهم إلى الدخول، تناثروا دون أن يتوقف لساني عن الترحيب بهم.

بادر الوكيل العام قاضي القضاة بالقول:

إلا ــ والله يا معالي الوزير، لم أتعرّف شيخنا أَبَا حيان، حين فتح لنا الباب، بصعوبة، فبعد أن أزال لحيته انتقص عمره عشرين عاماً إن لم أقل ثلاثين!

شكرته في حياء، وأنا أخزن في ذاكرتي كلمة معالي الوزير، مقرراً أن أخاطب الوزير أنا أيضا بهذا الاسم، وذلك حتى أضيِّق من هوة اختلافنا حول المفاهيم والألفاظ، فاختلاف معاني الألفاظ أمر يضيق له صدري ويربكني أكثر مما يربك محاوري، فعزمت على أن أجعل حواسي متيقظة لالتقاط ما استجد في اللغة لدى المغاربة.

كان معالي الوزير قد اتخذ مكانه قبالتي وجها لوجه، رجل أبيض البشرة ممتلئ الوجه، بشوش خجول، أملس المحيا إلا من شارب كث غلب عليه بياض الشيب، ارتدى ربطة عنق غامقة مخططة بالبياض، وراقني أن يكون هو ومرافقوه وقد شبيهين بمستخدمي "فندق السراب"، يرتدون جميعاً بدلا وأقمصة، وربطات الأربعة وأحذية، دون أن يتميز الوزير عنهم بعمامة من حرير أو خنجر من فضة عنق وماس، أو غير ذلك، ففكرت في أن الفوارق بين الفئات الاجتماعية، ولو وذهب على الأقل، قد انتفت وتلاشت ظاهرياً.

استمر الوزير في أحاديث عابرة لبقة، حول الطقس وموقع مدينة طنجة الجغرافي بين بحرين، خلته يتربص للزج بي في امتحان يكشف له حقيقتي، لكنه ظل بريئا من

يمدني تخميناتي، بل عبّر لي عن سروره الأبلغ بلقائي والتحدث إليَّ، ووعد أن العشرة ما طرأ من تحولات في التاريخ والعلم والفكر، خلال بمؤلفات تطلعني على إذ قال قرون الأخيرة، ثم تدارك وكأن الغيب كشف له ما كان يموج في خاطري، لي:

والتاريخ، ــ إن الكتب قد ترهقك، لذا أقترح أن أبعث لك بشخصية سامقة في الفكر العلوم والفكر، لسد الفجوة التي تفصلك عن الحاضر، هناك بكل تأكيد مستجدات في مستهلكون ومجترّون لعلم لكن بالنسبة لنا نحن العرب عموماً، ستكتشف بنفسك أننا وفكر غيرنا أكثر مما نحن منتجون له.

وسألته:

ــ من تعني بغير العرب؟

ــ أقصد الغرب المسيحي، فمنذ النهضة التي عرفها قبل خمسة قرون ونحن ظاهرة لأبحاثه واكتشافاته، ويكفي إخبارك بأنك أنت شخصيا أديب الفلاسفة، وفيلسوف وإلى الأدباء، العالم المنطقي النحوي "أبو حيان التوحيدي"، قد وقع التنبيه إليك، سبقوا إلى مؤلفاتك من لدن الغرب قبل العرب، وممن أتذكر من المستشرقين الذين ليكشف لنا اكتشاف قيمتك، المستشرق "لويس ماسينيون"، الذي بحث في سيرتك إلى مؤلفاتك، الشيء الكثير عنك، والمستشرق "مارجليوت" الذي كان أول من انتبه الحضارة الإسلامية في القرن " والمستشرق "آدم ميتز" الذي ألف كتابا علميا دقيقاً في العلمية الرابع الهجري"، فأفاض في الإشادة بقيمتك.

وعدت إلى استفساره:

ــ من هم الذين سميتهم بالمستشرقين؟

العلم، ــ الاستشراق علم قائم بذاته، كعلم المنطق والفلسفة وغيرهما، وأصحاب هذا مستقلة عن غربيون مسيحيون، تعلموا لغتنا، فبحثوا في تراثنا القديم، كظاهرة تراثهم، فترجموه واعتمدوا بعضه مصدرا لبناء فكرهم وحضارتهم.

مستحسنا لم أخف إعجابي بهذا الوزير الشاب، ذي الثقافة الواسعة، فصارحته بذلك، مبادرته بإسعافي بشخص يطلعني على ما استجد في غيابي، فقال:

أستحضر ــ أود إخبارك بأنني استمتعت حقاً بكتابك "الإمتاع والمؤانسة"، ومازلت رسخ منه بعض النوادر والفكاهات، كما قرأت بعض الدراسات عن مؤلفاتك، ومما

فهل حقاً في ذهني أنك تجمع بين متناقضين هما، فلسفة التشاؤم، وفلسفة الفكاهة، المتناقضين؟ تجمع بينهما؟ كيف يمكن في نظرك للشخص أن يجمع بين هذين أجبته بصدق وحماس:

من ــ إنني مندهش يا معالي الوزير، ذلك أن الاستفسارات نفسها التي وجهت إليَّ لم أكن لدن الأصدقاء في بغداد، أجدها توجه إليَّ من جديد بعد عشرة قرون. إنني القرون، هذه أتوقع أو يخطر بذهني، أن مؤلفاتي ستحظى بالقبول، وتصمد كل هذه أضرمت النار في حقيقة أندهش لها اليوم، ويكفي حجة على ما أقول، أنني كنت قد من موقع فكري أو كتبي لعدم جدواها، وذلك لكوني لم أظفر منها بما كنت أنشده مقابل دراهم كانت أدبي، فقد عشت حياتي كلها أعمل وراقاً وناسخاً لكتب غيري، تسد رمقي بمشقة.

ظلت عيون الحاضرين جاحظة مشرئبة تتأملني، فأضفت قائلا:

جمعي ــ أليس ما أعلنه مفارقة مدهشة؟ ما علينا، ولأعُدْ إلى سؤالك، إن ما قيل عن وهناك في مؤلفاتي، بين فلسفة التشاؤم وفلسفة الفكاهة لا أنفيه، فالتشاؤم المنثور هنا أن أتخذه مذهبا كان مجرد صدى لتجاربي وخبراتي، لوّنته بمزاجي الخاص، دون المخلوقات، وأن انجذابه على غرار فلاسفة التشاؤم، ولا أحد يجهل أن الإنسان أشقى والترويح عن نفسه، فكلنا نجمع بين نحو الفكاهة، حاجة طبيعية للتنفيس عن شقائه، تجمع بين الليل والنهار والحرّ والبرد، المتناقضات، لأننا جزء من الطبيعة التي الجد بالهزل، والهزل بالجد، في ذات العمل لكنني لم يسبق لي أبداً أن مزجت رجعت إلى مؤلفاتي كـــ "الهوامل والشوامل" مثلا، أو الواحد، كما فعل الحاجظ، وإذا الصداقة والصديق" فستجدها عاكسة لتمزقات داخلية عشتها، " "الإشارات الإلهية" أو والحَيْرة، أو خيبة أملي في الناس،. أما إذا عدت إلى مؤلفات لي أو لإحساس بالغربة الإمتاع والمؤانسة" أو "النوادر"، فستجدني أؤكد بها قيمة الفكاهة في " أخرى، كـــ الناس، وضرورة تذوق النفس للفرح والهزل وحتى المجون، وذلك درءاً للشقاء حياة الإنساني الطبيعي.

يريد ما إن أنهيت كلامي حتى انتصب الوزير واقفاً وانحنى عليَّ ممسكاً برأسي، عاد إلى مقعده تقبيله، فحاولت أن أثنيه وأنا أستغفر الله، إنما بدون جدوى، إلى أن وخاطبني:

عمق ــ أصارحك أيها العالم الجليل، بأن تقبيلي لرأسك ليس احتفاء بمجيئك إلينا من ولربما الوحيد التاريخ، بقدر ما هو تقديرٌ لقيمتك الفكرية النادرة، فأنت من القلائل، الأدب والسموق في من المفكرين المسلمين العرب، الذين يجمعون بين السموق في وهو أقل ما قيل، إنك الفلسفة والمنطق والنحو والفقه والحساب، حتى لقد قيل عنك، الكبيرة "فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة"، وغيرها من الأوصاف.

وكانت المفاجأة حين سألته:

ــ إلى متى يا معالي الوزير، سأظل سجين هذه الإقامة الجميلة، كطائر في قفص من ذهب؟

إلى لم يقو الوزير على إخفاء ما غشى محياه من حيرة وارتباك، فصوَّبَ نظرة حادة ينقذه من مرافقيه، كأنه يشهدهم على انكشاف سرّ ما، أو يستنجد بهم ليسعفوه برأي مبهمة أوعزت ورطة وقع فيها، لكن ضيوفه كانوا أكثر حيرة منه، إذ تبادلوا نظرات حين أجابني لي بأن في صدورهم أمراً يخفونه عني، لكن الوزير بدَّدَ مخاوفي بصدق الرجال:

ببالي ــ إنني أيها الضيف العزيز الغالي لم أتوقع منك هذا السؤال، ذلك أنه لم يخطر سراً إذا ما أن يكون لك إحساس بالمضايقة إلى درجة الظن بأنك سجين، ولا أخفيك دراية بقصتك هذه أخبرتك بأن لا أحد من رجال الدولة سواي يعلم بوجودك، أو له عليها، ظللت وقتاً من الزمن المحيرة، وأنا شخصياً، حين أطلعني السيد الوكيل العام بين المصدق وغير المصدق.

لِنَقُلْ على بالله عليك، رجل ينبعث حياً بعد أكثر من ألف عام انقضت على وفاته، أو سباته أو غيابه، فمن ذا الذي يقوى على تصديق مثل هذا الخبر؟

هكذا في أقصى حالات الحيرة والذهول بقيت على اتصال تلفوني مع السيد الوكيل نفسي العام، ولزمتني الحالة نفسها وأنا في منزلي، إلى درجة صرت معها أفكر مع بصوت مرتفع، وكأنني ممسوس، مما جعل زوجي تصاب بالفزع، وتتهمني الليلة بالجنون، لكنها أعذرتني بعد أن أطلعتها على واقعتك هذه المربكة للعقل، وفي منزلي ذاتها، أي ليلة أمس، رجوت ثلاثة من مساعدي في الوزارة أن يحضروا إلى العام ورئيس لمزيد من البحث والتقصي، وهؤلاء السادة هم: المفتش العام والكاتب أسرعنا بالقدوم مديرية الشؤون الجنائية، الحاضرون معنا الآن، وفي أول الصباح

للتعرف إليك، هذا كل ما في الأمر.

وتدخل المفتش العام:

ــ سيدي أبا حيان، إن إقامتك التي تراها سجنا، هي من أرقى فنادق طنجة.

وقبل أن يضيف شيئا، قاطعه الكاتب العام للوزارة:

ــ لعل الشيخ أبا حيان يعني بالسجن، حالته النفسية كالعزلة أو الاغتراب، وليس المكان.

فابتسمت للرجل كناية عن موافقتي، وأنا أستمع إلى الوزير الذي شرع في حديثه وهو يبتسم في وجهي:

لأول ــ لم يعد لي أدنى شك في أنك "أبو حيان التوحيدي"، الحقيقي، ولذلك فإنني الواقعة مرة، سأطلع السيد الوزير الأول بصفته رئيس الحكومة المغربية، على هذه.

واتسعت ابتسامته إلى أن قاربت الضحك حين أضاف:

وقد ــ إني أعلم مسبقاً بأن السيد الوزير الأول لن يقتنع إلا بصعوبة لخبرك هذا، أيضا يشبهني بالهدهد، حين زف نبأ ملكة سبأ إلى سليمان حجة على تغيبه، فأنا تغيبت عن المجلس الحكومي المنعقد في هذه اللحظة في الرباط، تحججت بمرض وهمي افتعلته حتى أزورك، وأتعرفك، وأتزود بمعلومات عنك ومنك شخصياً، وسأحظى حقاً بشرف كبير، وأنا أقدم للحكومة تقريراً عن هذا الحدث الجميل.

وتدخل رئيس مديرية الشؤون الجنائية موجها كلامه إلى الوزير:

الأمن ــ إن الشرطة القضائية يا معالي الوزير، وبدون شك، قد أبرقت إلى مديرية الشيخ الوطني في الرباط، بهذا الحدث، ذلك أنها أول من تولى التحقيق مع التوحيدي.

وتدخل الوكيل العام للملك موضحاً:

أين ــ إني أعرف بالمستوى الثقافي لرجال الشرطة القضائية في هذا الإقليم، فمن ملخص ما لهم أن يعلموا أنه سبحانه وتعالى، يحيي العظام وهي رميم. ذلك أنهم في يزعم أنه "كتبوه في محضر تحقيقهم، أن شخصا مجنونا يدعى "أبا حيان التوحيدي حالة تلبس، من مواليد القرن الرابع الهجري في بغداد، وقد ألقي عليه القبض في بجنحة الهجرة السرية، إنهم يجهلون اسم "أبي حيان التوحيدي".

وقاطعه الوزير:

نفسه، ــ إني أتفق معك، فلا علم لمدير الأمن بهذا الخبر، كما لا علم للوزير الأول أبي حيان " فقد أجريت اتصالا بهما هذا الصباح، مما يؤكد عدم انتباه الشرطة لـــ التوحيدي"، وبذلك سيكون للقضاء شرف وميزة السبق إلى التعرف إليه.

والتفت نحوي مضيفا:

قد ــ إن انبعاثك يا سيدي أهم حدث في هذا العصر، فإذا كان علماء ومثقفو العالم ترى سوّدوا آلاف الصفحات البيضاء، احتفاء بالذكرى الألفية لوفاتك، فكيف يا الأكبر، ويا سيكون ابتهاجهم وحفاوتهم بانبعاثك حياً ــ إنني يا سيدي، ويا شقيقي الصادقة، إذا ما والدي الروحي المتمنى ــ ولتسمح لي أن أخاطبك بهذه المشاعر جلوسي إلى "أبي حيان :سئلت يوما عما استفدته في وزارة العدل، فسيكون جوابي التوحيدي".

ذكرني هذا الظرف بأصدقاء فاس وقصر كتامة، فقد كان وداعي لهم مؤثراً، ترك المحبة لدي انطباعاً محموداً لن تمحوه السنون. إنه حال المغاربة قاطبة، فهم يزجون عبد إلى كل وافد مشرقي، وكأنهم ورثوا ذاك الحنين الفياض، الذي حمله معه الرحمن الأموي إلى غرناطة، وقصتي معهم إن كانت جذورها تنسحب إلى جوف التاريخ، فإنني لا أزال أتظلل بأغصانها، في فندق السراب بمدينة طنجة.

وتدخل الكاتب العام للوزارة مخاطبا الوزير:

ــ في وسعنا يا معالي الوزير أن نرتب لشيخنا أبي حيان زيارات لبعض مناطق المغرب، حتى لا يحس السأم ببقائه في طنجة:

ونظر نحوي يستطلع رأيي، فأجبته:

ــ رغبتي أن أزور بغداد.

من جديد، نزل الخبر عليهم كسيف قاطع، فأضفت أعلل رغبتي:

ــ إنني عراقي مولدا ونشأة وعيشا، وحنيني إلى بلدي لا يضاهيه حنين، فمن حقي أن أزوره، إلا إذا كان هناك اعتراض!

رد الوزير:

العراق، ــ أبدا أبدا، لا اعتراض لأحد على رغباتك، فمن حقك زيارة العراق، وغير مدمِّرة إنما بعد انتهاء الحرب، فلعلك على علم بأن العراق يتعرض لحرب!

أسرعت بسؤاله وقد أفزعني الخبر:

ــ حرب في العراق؟ مع من نتحارب؟

أجاب الوزير موضحاً:

ــ قُلت إن العراق يتعرض لحرب، ولم أقل يتحارب، ذلك أن دولا غربية بزعامة عليه أمريكا، طمعاً في ثروة النفط، افتعلت خرقه للشرعية الدولية، فشنَّت حرباً لتستأثر بهذ الزيت.

انتفض عقلي لغموض وهول ما سمعت، فقلت مستفسراً:

ثم إن ــ لم أفهم مدلول عبارة الشرعية الدولية، ولا كلمة النفط، فماذا تعني بهما؟ اتخذه العراق أكبر خلافة إسلامية عربية، وهو محاط بجيران مسلمين، فأي موقف الجيران؟

أجابني الوزير بهدوء، وكأنه غير معني بما يحدث:

ــ ما عاد العراق كعهدك به، خلافة إسلامية لا تغرب عنها الشمس، إنه في عصرنا بينها هذا مجرد قطر صغير، محاط بأقطار متناثرة هنا وهناك، في نزاع دائم فيما شأن أطفال الحيّ.

صمت قليلا وأضاف بالهدوء نفسه:

فالبلاد ــ الموضوع معقد جدا. إنه شبيه بما حدث بين إمارات الأندلس قبل ضياعها ضد بلد عربي العربية اليوم، أمست كنظيرتها الأندلس، تحتمي بالأجنبي، أو تؤازره التي تدمره آخر. والعراق نفسه في عصرنا هذا الذي نعيشه، وبدعم من أمريكا بمن يطلعك اليوم، خاض حرباً شعواء مع جارته إيران. سأبعث إليك كما وعدتك، إلى العراق على كل مستجد يغيب عنك، وما يهمنا في هذه الساعة، هو أن السفر محفوف بمخاطر حقيقية.

توقف الوزير عن حديثه، دون أن يوقف نظرات صوّبها نحوي، كأنه يقيس بها قناعتي، وبالرغم مما كان يعتمل في داخلي من قلق وحيرة، فقد حركت درجات مبدياً قناعة ملتبسة، مما جعله يبتسم ويضيف رأسي:

ــ مادام غيابك عن العراق قد استغرق عشرة قرون وثلاثة وعشرين عاماً، فلا بأس إن زاد بضعة أشهر أخرى، إلى أن يهدأ الوضع.

خيمت فترة صمت قصيرة، فتداعى إلى ذهني محمد شكري، وتذكرت طريقته فيما يبسطه من أفكار بصوت حاد مرتفع، دون أن أنسى أنه كان المطلع المسلية

على بعض مؤلفاتي، العارف بأني كنت قد أضرمت النار فيها، ولن أجد الوحيد لي في هذه العزلة المضطربة. قلت هذا في نفسي، وسألت الوكيل العام غيره مؤنسا بمقدوره دعوته لزيارتي، بعد أن يرحل معالي الوزير إن كان.

لكن ما إن سمع الوزير اسم شكري حتى انفجرت حنجرته بسؤال باغت به الوكيل العام:

ــ من أين هذه العلاقة بين الشيخ أبي حيان ومحمد شكري؟

أجاب الوكيل العام في شبه ارتباك:

التحقيق ــ لا تجمعهما يا سيدي أية علاقة، كل ما حدث أن السيد وكيل الملك، وأثناء كتب الشيخ التمهيدي مع الشيخ أبي حيان، استقدم محمد شكري ليستأنس برأيه في.

ــ من أين لشكري أن يمتلك رأيا في مؤلفات الشيخ أبي حيان حتى يُبديه؟

تساءل والغضب يتسلق وجهه، لكن لا أحد تجرأ على إجابته، فأضاف برنة تقل حدة عن سابقتها:

ــ التحقيق يكون سرياً، سترى كيف سينتشر هذا الخبر غدا صباحاً في أكثر من صحيفة.

فقال له الوكيل العام:

سبق يا سيدي أن أصدرت أمري إلى الحاضرين أثناء التحقيق، بكتمان سر هذه القضية.

(12)

المطلة على البحر، حلّ المساء، وأنا وحيد في إقامتي، فافترشت وسادة في الشرفة الدنيا، اكتسحني وصرت أرقب الشمس قبل مغيبها، وأستحضر في الآن ذاته هموم ما كانت يقين جازم بأن وزير العدل يضمر عداء لمحمد شكري، لعل صداقة إجراء التحقيق تجمعهما، فانقلبت إلى عداوة، وإلا ما كان ليحتج على حضوره أثناء معي، وينعته بوصف يحط من شأنه.

متوازنة، جعلني هذا أفكر في الصداقة بين العالم والحاكم، تلك التي يستحيل أن تكون العالم الحق، يدين إذ من شيم السلطان، الترحيب بالتزلف والاستلذاذ بالإذلال، بينما التزلف ويرفض الإذلال.

تذكرت ما حدث لي مع الوزيرين أبي الفضل بن العميد والصاحب بن عباد، فقد كمن يلقم حجراً كلما استمعت إلى آرائهما، عكس الفقيه "ابن مسكويه"، الذي كنت كان على خلافي، كبير النفس مع العامة، صغيرها أمام الحاكم، قوي الكبرياء مع رفاقه، مسلوبها أمام الوزراء، ما أبصرت عيناي عالماً سخّر عواطفه وأحاسيسه والإعجاب رياء مثل ما فعل هذا الرجل، فقد أوصله تزلفه حدّ إبداء المحبة الصادقة، تجارب الأمم" و " المنقطع النظير لأبي الفضل بن العميد، لدرجة أنه خصّ كتابيه العميد وفترة حكمه، دون "تهذيب الأخلاق" من أجل إشاعة السمعة الرائعة عن ابن كل ذلك ليصبح معلماً لولده أن يرى في ذلك أية نقيصة، وكأنه منزه عن الأخطاء، مكتبة بغداد، ولينزل إلى الدرك أبي الفتح، وليظفر بعدها بوظيفة قيّم ومؤتمن على سهراته وملذاته ببلاطه الأسفل من الإهانة، ليصير نديمه وجليسه في.

أخرى مع يا له من رجل وضيع النَّفْسِ، جرفته تلك الحياة السرابية، ليرتبط بعلاقة ليتسلق نخلة الوزير المهلبي، الذي تسلقه كما يتسلق سارق التمور نخلة، فجاوزه برعاية منه أخرى أعلى وأنضج، هي عضد الدولة، أكبر أمير بويهي، إلى أن حظي القصر الذي جعلته يتصدر قاعة الجلوس في قصر البركة، لا أدري كيف صار ذلك شك قد صهرته كان متمطياً فوق دجلة، إن لم يكن قد جرفه النهر، فإن الأرض دون في باطنها، مثلما غيّبت ابن مسكويه.

أفز أما أنا، فلم أطق إذلال الوزيرين، عافتهما نفسي لتكبّرهما ولتعجرفهما، ولم المنتصر، وهما بسكينتي وتوافقي النفسي، إلا بعد أن تعاليت على مقامهما لأصير أنا قلمي كان أبتر من الخاسران، وما كتابي "مثالب الوزيرين" إلا حجة قاطعة على أن سلطانهما.

ضحكت وأنا أتذكر ما قلته لمسكويه حين أطلعني على ما دونه عن ابن العميد:

ـــ لكنك يا مسكويه، لم تشر ولو بطريقة موارية إلى عشق ابن العميد للغلمان.

فانتزع أوراقه من يدي، وقد اعتلى وجهه غضب شديد ولاذ بالفرار.

أتكون علاقة محمد شكري بوزير العدل المغربي، شبيهة بعلاقتي بالوزيرين العراقيين؟

عدت لأرقب الشمس، كان قرصها قد بدأ يغوص في البحر. فاصطبغ الأفق باحمرار شاحب، مع زرقة أرجوانية داكنة، أضفى عليه خرير ارتطام الموج على اليابسة

واقعاً سحرياً، صبغ نفسي بمشاعر أججت حنيني إلى بغداد ونهاوند، وإلى وجودي بعيدا عن زماني ومكاني.

فكرتُ في الأجيال التي ركبت هذا البحر، أجيال طارق بن زياد، وموسى بن نصير، والشعراء والقراصنة والمغامرين واللصوص، وفكرت أيضا في نفسي حين رفاق القافلة ركبته في ذلك الزمان البائد. أجل، كنت في كامل انشراحي وتألقي، أُفَقِّهُ الأربعة، أوخامسهم، دون أن في العلم والحديث، وأؤم بهم الصلاة، وكأني أحد الأئمة يغيب عن ذاكرتي رجوعي المأساوي إلى مدينة طنجة.

هربت من نفسي إلى تأمل انكسار الأمواج على الشاطئ، بعد أن تأكد لي انفصال تماهي وذاتي. بدت لي كل الأمواج متشابهة، لكنني، بين الفينة والأخرى، كنت أقتنص واحدة تكون غريبة عن أخواتها، فأمثل بها نفسي، هكذا قسراً عدت إلى اثنان، التفكير في ذاتي، وحاولت من جديد أن أفصلها عني، أقنعت نفسي بأني وذاتي وبانفصالي عنها أستطيع أن أجد حلاًّ لعجزها، وأن أنسف بعض ضروب يأسها.فعجزت مرة أخرى.

وبينما أنا كذلك، إذ بجرس التلفون يقطع حبل تأملي، فعدت مهرولاً إلى الصالة، رفعت قطعة الجماد إلى أذني، فوصلني صوت حاد النبرات:

ــ أُنْعِمت مساءً سيدي أبا حيان. أنا محمد شكري في بهو الفندق، أتأذن لي بزيارتك في غرفتك، أم أنتظرك في مكاني؟

ــ تعال إلى إقامتي.

أجبته:

ملتهمتين ما إن فتحت له الباب ليبدو أمامي بشعر رأسه الأشعث، حتى جَحِظت عيناه شخصي، فأدركت أن مظهري أذهله، دعوته إلى الدخول وأنا أقول له:

ــ لاتشرحنّ لي ما طرأ على شكلي، فأنا أيضاً ذهلت أمام المرآة، وأنا أشاهد نفسي بلباسكم هذا.

لغز أشرت عليه بالجلوس، لكنه ظل واقفاً مأخوذاً، كأنه يحاول تفسير حلم مبهم، أو أن محير، وأعدت الإشارة بيدي إلى المقعد الذي كان يعتمره وزير العدل قبل يغادره. فاستوى فوقه، ووضع بجانبه حقيبة جلدية صغيرة كانت تتدلى من فوق كتفه، وظل يحدق في وجهي. ودون أن أكبح ضحكة صدرت عني، سألته:

ــ أتراني أختلف عن بني البشر؟

وهو حي ــ أبداً أبداً والله، بل أراك شديد الشبه بشاعر عربي أعرفه، اسمه أدونيس، يرزق، دعني أشرح لك، عندما رأيتك بالأمس في مكتب وكيل الملك، حسبتك الإنسان محتالا، أو مجنونا، كنت أكثر من استبعد حقيقتك استناداً إلى نظرية اختلاف النظرية القديم عن المعاصر. وحتى بعد أن اتضح أمرك، وتأكدت حقيقتك، ظلت هذه وأنا أراك مستحوذة على فكري، شاغلة ذهني، بين الرافض لها والقابل بها، لكنني البشري لم يطرأ عليه الآن، انتهى يقيني إلى خرافية تلك النظرية، وإلى أن الجنس تغيير منذ وجود سيدنا آدم وزوجه حواء على سطح الأرض.

عدت إلى الضحك وقاطعته:

ــ أأنت على يقين أن آدم تزوج من حواء؟

أربكه سؤالي لوهلة، فضحك وأجاب:

ــ إن المسكين لم يكن له من اختيار، فقد كانت الأنثى الوحيدة في الدنيا، وكان عليه أن يقبل بها رغم أنفه.

ــ هي أيضاً كان عليها أن تقبل به رغم أنفها، فقد كان الرجل الوحيد في الدنيا.

ــ لا شك أن الله أبدعها على أحسن تقويم وبذلك عُمِّرت الأرض بهذه الألوان البشرية.

عدت لمقاطعته:

ــ أمن الضروري أن لا ينصبّ حديثي معكم معشر المغاربة، إلا عن الخوارق أو الساعة؟ النظريات؟ أما كان أجدى أن نترك لسجيتنا حديثها فيما يريحها من أمور أو أي شيء كأن تدلني على واقعكم المعيش، أو علاقة أولي الأمر منكم بالرعية، آخر يبقينا فوق الأرض ويقصينا عن ما تتناقله بطون الكتب؟

ضحك محمد شكري ودسّ يده في جيب سترته، فأخرج علبة صغيرة من الورق المقوى في حجم كفّ اليد وقال لي:

ــ إنها علبة دخان تحوي عشرين لفافة، أستهلك منها علبتين في اليوم، وثمة من يكتفي بواحدة، أو بأقل من واحدة في اليوم. ولعلمك، فهي ليست محرمة، فقد سبق أن أفتى بعض المتزمتين بمكروهيتها، لكنْ سرعان ما أبطل الواقع هذه الفتوى، فانتشر تدخين السجائر انتشار النار في الهشيم. مما جعل أحد الشعراء يقول:

قَالُوا تَعَاطِي الدُّخَانِ قُبْحٌ
فَقُلْتُ لاَمَابِهِ قَبَاحَهْ
يُصَيِّرُ الْمَرْءَ فِي نَشَاطٍ
وَفِيهِ عَوْنٌ عَلَى الفَصَاحَهْ
وَلَمْ يَرِدْ بِالْحَرَامِ نَصٌّ
وَالأَصْلُ فِي شَأْنِهِ الْإِبَاحَهْ

بها تناول من علبته لُفافة ألصقها بفيه، وأوقد في عقبها ناراً، وصار يمتص ما بنفسه، ويستخرج من فتحتي منخاره وفمه دخانا ينشره في الفضاء، وقال لي:

ــ إن ما أقوم به يسمى في قاموسنا المتداول بالتدخين، وأنا أدمنه منذ أن كنت في سيتقد العاشرة من عمري، إنه يساعد مزاجي على الروقان والخصوبة، سترى كيف تقبل ذهني، وتغمرني حالة إشراق تسعفني بفتوى أو مشروع يبعد عنا السأم، هل تدخين لفافة من باب التجريب؟

ــ لم لا، مادام الأمر كما تقول، فلأجرب.

وضعت لفافة في فمي، فأوقدها لي بعود ثقاب، وطلب مني أن أدعها تتسرب إلى واقفا دواخلي، فامتثلت لأمره، وإذا بسعال مفاجئ يبطش بي حد الاختناق، فانتصبت أستوي وهرولت إلى الحمام، غَسَلت وجهي وحلقي، ثم عدت إلى الصالة، وقبل أن فوق مقعدي، بادرته قائلا:

أنت ــ بعد هذه التجربة المريرة أعلن لك، بأني والتدخين شيئان متضادان، لتنعم به أو بطش سعال في حفظ الله ورعايته، أما أنا فإشراقاتي الذهنية لا تحتاج إلى غثيان.

لم يكف عن ضحكه، كأن ما ألمّ بي يدعو إلى الانشراح والقهقهة، فعلق مزهواً بعد أن أخذ نفسا من سيجارته:

فمذاقه مرّ ــ التجربة الأولى عادة ما تكون مُنفِّرة، كحال تناول النبيذ لأول مرة، في أفواهنا إلى مذاق كالعلقم، لكن النشوة التي يحدثها تشفع في إعادة تناوله، ليتحوّل العسل.

قاطعته:

ــ لست على مذهب أصحاب القياس، ولا من المتحججين بالضارة النافعة.

ــ لكم دينكم ولي دين.

أكدت لي جملته هذه طبعه الحاد، وأضاف:

ــ أتعاقر الخمر يا أبا حيان؟

لدواعي لم أجبه، وتعمدت، وأنا أنظر إليه، إطالة صمتي، عله يقدم شرحاً أو مبرراً وكأنه سؤاله، أو يعتذر من الأساس، لكن بعد أن ظل هو الآخر محدّقاً في وجهي ضيافتي، فأجبته فقيه يحث تلميذاً على جواب، أَشْفَقْتُ عليه من غروره، وهو في:

ــ ليس مع العامة، ولا مع الدهماء.

انفرجت أسارير محياه، وخاض في الحديث:

ــ كنت ستخيِّب ظني وتصدِمني إن كنت أجبت بالنفي، ذلك أنه ليس من طباع المشتغلين بالفلسفة والفكر الإحجامُ عن معاقرة المدام، ولو من باب التجريب. أما انحداري في اقتصارك على الخاصة دون العامة، فهذا ما اهتديت إليه أنا أيضا بعد ثم ارتقت إلى الشيخوخة، فقد كانت بدايتي مع المهمشين، ثم ارتقت إلى العامة، بالقرف الخاصة، فخاصة الخاصة، بعد أن صارت مجالس العامة تصيبني.

قاطعته:

ــ تزعم أن التدخين يمنحك صفاء الذهن، ويلهمك إشراقا يبعدك عن الضجر والسأم. ترى بماذا ألهمك وأنت مشرف على تدخين ثلاث سجاير؟

ــ لا تتعجل الأمر يا سيدي، فقد كنت بصدد إخبارك بأنني أعددت في ذهني خطة محكمة للتسلل من فندق السراب هذا.

ــ وإلى أين إن شاء الله؟

ــ إلى قلب مدينة طنجة، ألم تسألني أن أدلّك على واقعنا المعيش؟

ــ بلى، سألتك!

ــ إذن علينا أن نغادر الفندق دون أن ينتبه أحد من المسؤولين أوالخدم. وفي المدينة ستقف بنفسك على واقعنا.

ــ افرض أنهم انتبهوا، فهل يعترضون سبيلنا؟

ــ بكل تأكيد، فرجال الشرطة السريون، يطوقون مدخل الفندق، وهم على علم أي بوجودي معك، فقد تلقّوْا إذنا خاصا من الوكيل العام للملك يسمح لي بزيارتك، حتى زيارتي لك كانت متوقفة على إذن الوكيل العام.

ما العمل إذن؟ سألته فأجابني:

الرئيس، ــ ألم أقل لك إنني أعددت خطة محكمة، اسمع، أنا سأغادر الفندق من بابه الشاطئ، أو عبر كما لو كنت قد ودعتك، وأنت ستتسلل من جهة النافذة المطلة على وتسير بمحاذاته إلى أن النافذة ذاتها. ستنزل دركات السلم المفضية إلى الشاطئ، فتعرج يساراً مولياً ظهرك تجتاز منزلاً صيفياً مضاءً يملكه أحد الأمراء العرب، .صحبة سائق سيارة للبحر. بعد بضع خطوات ستجدني في الطريق العمومي

:تناول حقيبته، وعلقها بكتفه، وقال لي

.ــ أتمنى أن لا تفشل خطتُنا، لا تنس أن تحمل معك مفتاح الإقامة

:خطا إلى الخارج، ثم التفت نحوي وأضاف

.حاول أن ترتدي سترة فوق قميصك، فقد تكون الليلة باردة

(13)

مصحوباً بنسائم عشب كانت الليلة فعلا باردة، سرت فوق رمال الشاطئ المبتلّة، فانتبهت إلى أنني مغلّف البحر، وضوء القمر، وصخب الأمواج، والتوحُّد، والظنون، والحزن، أو من الفرح والكآبة. بأحاسيس مضادة، متناقضة، لعلها مزيج من السعادة استطعت أن أستحضر مكانها لقد سبق أن اعترتني أحاسيس شبيهة بهذه، بل ذلكم هو المكان، وكنت فتى يافعاً، وزمانها، فقد كنت في مدينة المحمّرة الفارسية، .فما أيسر تذكر الأحاسيس حين تعاودنا ذلكم هو الزمان، ليس في هذا أية غرابة، خيل لي أن ريحاً عاصفة تدوي بداخل رأسي، وتغسل ذاكرتي، فتزيح ما تراكم بها من طبقات النسيان، وتفتّقت بصيرتي، لتفرد لي مشاهد لوقائع عينية من حياتي .البعيدة، تلك التي كانت في طي العدم، كما لو أني كنت أعمى، فصرت بصيراً

وانزلق اسمها من لساني، فتوقفت وسط الشاطئ وخاطبت نفسي، ماذا؟ قلت لفظت اسمها؟ لم أصدق، كيف لي أن أصدق وأنا منذ عشرات السنين، شهربان؟ قرون، أحفر عن اسمها في ذاكرتي، إلى أن تملكني اليأس وصار يقيني وقبل عشرة إلى الأبد، وفجأة يطفو على سطح ذاكرتي، لتتقشّع معه كل تفاصيل أيامي بأنه امّحى .المنسية

.ازددت وثوقاً من حالتي الخارقة، وفي لمح البصر مرّ سجل حياتي في ذهني

أجل كنت في ضيافة الحاج عبد الحسين التوحيدي، أعز أقرباء والدي، كان قد

أرسلني إليه لأتعلم الفارسية والسيسانية، رجل على قدر من التقوى والعصامية، وحده تولّى تدريس ولديه قواعد العربية والفارسية والسيسانية، وعلوم الدين والحساب، أستطيع أن أتنسم رائحة طيبه المعلوم من عمامته السوداء، أما صوته الجهوري وهو يتلو القرآن، أو يؤم بنا الصلوات، فإني أكاد أسمعه الآن يرن في أذني، وكأني لم أغادر بعد مدينة المحمّرة.

يتولى كنت وولديه نتناوب على جلب الماء من العين الرابضة عند سفح الجبل، كان متطوعاً، ليس أحدنا كلّ صباح هذه المشقة، لكنني أعفيتهما منها، وتحمّلتها وحيداً إيثاراً أو كرماً مني، وإنما لغاية في نفس يعقوب.

كنت أستيقظ مع نسمات الفجر الأولى، فأستر جسدي ببقيري الصوفي، وألف رأسي بما يشبه العمامة، وأسرع لأسابق الريح نحو العين، قبل أن تنقع ماءها حوافز الماشية والدواب.

هناك، كنت أنتظر مجيء شهربان، فتلوح رفقة صبيات كما يلوح القمر مكللا بنجوم في ليلة ظلماء، فأقترب منها ثم أبتعد ثم أقترب، محاولا أن ألفت نظرها إلى وجودي، وتكرر إقبالي وإدباري، فتجرأت وقلت في نفسي، ماذا لو تقابلنا على انفراد؟ لكنني حققت حلمي في خيالي، فلا رقيب على خيالي، أفتح أزرار قميصها وأدعك ما تلمسه أصابع يدي وراحتها، وحين أصطف مع رفيقيَّ وراء عمي عبد الحسين لأداء الصلوات، أدعو الله أن يغفر لي ما تقدم من ذنوبي وما تأخر، وأعود لأحلام يقظتي.

وتحقق ذلك الحلم البعيد المنال، ليس في خيالي، وإنما على أرض العين في سفح الجبل، بين شجيرات الصفصاف والصنوبر والعرعار، ونباتات برية ذات روائح زكية، وكأن كل شيْء أُعد عنوة ليتم مشهداً كنا بطليه.

ما أروع أن تتحول أمانيك إلى معيش حقيقي، إن ذلك شبيه بالشيء النادر الحدوث، لكنه تحقق لدي مع شهربان.

وابتسمتْ في ذلك الفجر العذري، وجدتها وحيدة تملأ جرتها، وحين تقابلتْ نظراتنا، لها، لكنها لي، ارتبكتُ وانتفض قلبي، وبكلمات مني، مرتعشة مضطربة، لا معنى عرفتُ أنها كانت بليغة في إثبات هيامي بها، وبكلمات منها مرتعشة مضطربة، تكون فارسية من هامت بي، ومثلما سرّها أن أكون عربيا وافدا من بغداد، سرني أن

المحمّرة.

نخفي عند سفح الجبل، صرنا نلتقي كل فجر، نخفي ما نحمله من أواني السقي، مثلما اسمها شهربان، قامتينا بين الأشجار والنباتات البرية الباسقة، لم أكن أعرف بعد أن فاحم، تدلّت لكنني عرفت، بل ونزعت عن رأسها بخنقها لتنكشف لي خصلات شعر أمامها وجها إلى أن خلتها ستصل إلى الأرض، وفتحت أزرار القميص وأنا أنتصب لوجه، مطوقاً برعشة محمومة.

في تلك اللحظة بالذات، قُدر لي أن أكتشف عذاب متعة تحقيق الحلم.

توقفت في الشاطئ، وفكرت في شكري الذي ينتظر التحاقي به، لكنني فكرت في الوقت ذاته في شهربان، وفي الهوة التي تفصلني عنها، وفي حالتي الخارقة هذه، أيكون طيفها يحوم الآن حولي، فيسعف ذاكرتي باستحضار ما غاب عني.

عدت إلى تلك الأيام في المحمّرة، استحضرت ذلك الطقس الخريفي البارد، حين كنت أنسل من بين الأصدقاء، فأتدحرج نحو الشاطئ، أسير فوق رمله المبتلّ وأصدح بالغناء، أو بترنيمات لأبيات من شعر أبي ربيعة أو جميل بثينة أو كثير أعيش عزّة، وأبكي، وأبكي، مستعجلا رحيل الليل لقدوم الفجر، لأقابل شهربان، كنت من العشق الحقيقي، دون أن أعرفه، ولعل مصدر بكائي كان عشقي، أو شدة خوفي فقدان شهربان.

وها أنا ذا أعاود السير ليلا، على رمل شاطئ مبتل، عارف بأحوال العشق، في زمان ومكان غير زمانه ومكانه، كأني الأزل ينتقل من عصر إلى عصر.

(14)

إلى أن لاحت أوليت ظهري البحر، فظل المنزل الأميري عن يساري، سرت بجواره الخلفي، ثم عاد سيارة واقفة في الطريق، ترجل منها محمد شكري وفتح لي بابها ضخم جموح، تُرسل وجلس إلى جوار السائق، فانطلقت بنا السيارة وكأنها حيوان عيناه شرارة ضوء يحيل الظلام نهاراً.

مزدانة أراد أن يقول شيئا، فأسكته ليتركني في سرحاني، لكن ما إن ولجنا أبنية منشغلا بليلة بالألوان، حتى صار يدلني على معالم لم أُعرها اهتماما، فقد كان ذهني حداً فاصلا كانت أطول ليالي عمري، تلك التي تأخر فجرها عشرة قرون، لتكون

بين عصرين.

هل استغرقت تلك الليلة حقّاً عشرة قرون؟

عليَّ أن أصدق قبل أن أطلب من الآخرين تصديقي!

ما إن توقفت السيارة، حتى قفز محمد شكري خارجها، وفتح لي الباب، وخاطبني:

ــ مرحبا بك صديقي أبا حيان في قلب مدينة طنجة، الشارع يسمى "موسى بن نصير" والمطعم الذي سندخله يسمى "الريتز".

عاد إلى صاحب السيارة، سمعته يشكره، ثم رجع حيث أقف، ودعاني لولوج المطعم وهو يقول لي:

بعد أن اتخذت هذا المطعم مقراً لي، جعلت منه ملتقى للمثقفين من معارفي وأصدقائي، أتقبل أن تكون أحدهم؟

حركت رأسي موافقاً ضاحكا، فتقدمني ينزل دركتين لنصير وسط المطعم، انحنيت برأسي مثله محييا ثلاثة أشخاص ملأوا إحدى الموائد. وقف أحدهم وصافحنا، فالتمس شكري منه بأدب جم، أن ينتظر إلى أن يفرغ من أمر له معي، وصار يدلني:

ــ الذي نراه في الزاوية حان صغير، والقنينات المرصوصة فوق الرف أنبذة مغربية.

لم أتمالك دهشتي، فسألته:

ــ خمور تعرض في مطعم علانية؟

ــ ماذا يدهشك في هذا؟ جل البلاد الإسلامية تُسوِّق الخمور جهرا، أما كان في العراق خمور وحانات؟

ــ بلى، هناك حانات من زمن جلجامش، ومنها حانة بغدادية كانت تديرها رابعة العدوية قبل أن تتصوف، أذكر أن أبا نواس كان يؤمها، كما كان يسافر من بغداد بطرق إلى حانات خارج مدينة الحيرة، أما الخمور فلا تعرض في الأسواق، بل تباع وبطانته سرية، ويقام الحدّ على بائعها ومقتنيها، باستثناء حاشية الخليفة.

ــ أنت تتحدث عن العراق قبل عشرة قرون. الأمر يختلف اليوم، دعنا من هذا الآن، وتعال أطلعك على الصور التي تزدان بها جدران المطعم.

تابعت الفرجة على صور تجمعه بأدباء وشعراء وسياسيين. صور عجيبة حقيقية،

يكاد أصحابها ينطقون، توقف عند صورة لرجل دمث الملامح، وقال لي عنه:

ــ إنه الشاعر عبد الوهاب البياتي من العراق، قضى نحبه في دمشق منذ سنوات ثلاثين قليلة. لقد ظلَّ صوته رعداً مدوياً، وكان نسرا جريحاً، أعرفه عن كثب منذ عاماً. انتقل بعدها إلى صورة أخرى، وقال لي عن صاحبها:

ــ مناضل معارض عنيد، ابن مدينة طنجة، حكم عليه بالإعدام، لكن رفاقه دبروا تثير فراره إلى خارج المغرب، وبعد عقد ونصف، عاد ليصبح وزيراً أوّلَ، حكايته الراهنة الإعجاب والدهشة، وقد تفيد في فهم أوضاع السياسة العربية الإسلامية.

لم أتمالك نفسي وأنا أنعم في صورة هذا المناضل المغربي، فقلت:

ــ إنه يشبه بالتمام صديقي أبي زكرياء يحيى بن عدي النصراني البغدادي.

أشار إلى مائدة تحف بها أربعة مقاعد منزوية في ركن عند مدخل المطعم، وأخبرني:

إنها مائدتي الموقوفة عليَّ، لا يجلس بها أحد سواي.

أسايره وأستمع إليه، لكنني كنت منشغلا في الوقت ذاته بحال العراق، بعد عشرة جملته قرون من رحيلي عنه. فقد قال لي، إن الأمر يختلف اليوم، دون أن يدري أن أجوبتها غامضة، القصيرة هذه دوَّختني، وفجَّرتْ في دواخلي بركاناً من أسئلة ستظل رغم ما قد أقف عليه من كل مستجد في العراق.

ما كدنا نجلس حول مائدته المفضلة، حتى وقف علينا رجل في مقتبل عمره، خمري فوق اللون، طويل كنخلة لم تثمر بعد، شاربه قصير داكن السواد، محفُوفٌ بعنايةٍ بسمة لا تفارقه:

فهو ــ إنه عبد الحفيظ، النادل القيّم على جميع الزبناء، لكنني أنا مستثنى منهم، معدتي، يعرف عني كل شيء، نبيذي المفضل، وعاداتي، وأصدقائي، حتى ما تشتهيه ولعلمك، فإن معدتي تشبه معدة عصفور، فهي تفضل الشراب على الأكل.

يضحك ويتحدث، ويطلب من عبد الحفيظ أن يأتينا بما لديه، ويسألني في حضوره:

ــ أتجرب نبيذاً مفضلا لدي؟ ودونما اكتراث أجبته.

ــ أريد ماء.

ــ صديقي يرغب في أن يفتتح الجلسة بالماء، اسقه ماء، ذاك شأنه!

قال للنادل قبل أن ينصرف، ورحّب بالرجل الذي سبق أن صافحنا، وأشار إلى

شخصي قائلا:

ــ هذا أبو علي، صديق من العراق.

ثم انحنى عليَّ، وهمس لي:

ــ حتى لا ينكشف اسمك، ثم إن الشاعر البياتي الذي شاهدنا صورته، كان يفضل أن نلقبه بأبي علي، أليس اسماً عراقيا؟

حركتُ رأسي بالإيجاب، فعاد إلى رفع صوته معرفاً صديقه الشاب:

ــ إنه عبد القادر، كاتب مغربي متميز، ولعله درس الفلسفة بكلية الآداب، إن لم تخني ذاكرتي!

ــ ليت لي مثل ذاكرتك.

علّق عبد القادر، فضحك شكري وقال لي:

ــ الرجل صادق فيما يقول، ذلك أني أمتلك ذاكرتين، إحداهما ذاكرة الأمي والأخرى ذاكرة المتعلم، وقد لازمتني ذاكرة الأمي إلى أن بلغت سن العشرين، ففي هذا العمر تسعفني في حفظ الأشياء والأرقام والحكايات، لكنني وأنا أمي لم أكن جاهلا، بل كنت أكثر إطلاعا بدأت أتعلم القراءة والكتابة. أما قبل ذلك، فقد كانت ذاكرة وأُناوِلُها لمن يقرأ لي مقالات منها، ولباقة من متعلمي هذا الزمن، كنت أقتني مجلات يقرأون شيئا في حين أن هناك متعلمين جاهلين، لا.

ضحكنا جميعا.

غاب أحضر النادل قنينة شراب مع أقداح زجاجية مكتنزة، وقنينة ماء خاصة بي، ثم لِرَدٍّ فترة زمنية قصيرة، عاد بعدها يحمل صحونا صغيرة بمأكولات قليلة، لا تكفي جوع رجل واحد، زيتون وباذنجان وفجل، وردّاً على ذهولي عقب شكري:

ــ لاتحسبَنَّ هذا أكلا، إنه مجرد مزّة معتادة لفتح الشهية لا غير.

ناحيتي، حين صبَّ عبد القادر كأس نبيذه، أسرعت أنا فملأت قدحي بالماء وقرّبته ببعض وكأني بفعلي هذا أعلن رفض شرب الخمر، فابتسم الرجل وألقى في جوفه يهاجم الشيب شرابه. في تلك الهنيهة دخل المطعم شاب مربوع القد، أميل للبدانة، لم واحدا واحدا، فدعاه كل رأسه بعد، وقد طفح محياه بطيبة لا تخطئها العين، صافحنا شكري مرحبا، وقال عنه:

ــ هذا رجل حلو المعشر، طموح، بدأ حياته مدرساً صغيراً إلى أن أصبح أستاذاً

للآداب العربية، اسمه عبد اللطيف.

وأشار إلي، وهو يقول لضيفه الجديد:

ــ أبو علي، أديب وفيلسوف من العراق.

صبَّ كأساً لضيفه وخاطبني:

ــ تأكد يا أبا علي من أنه لا وجود لأحد من العامة في جلستنا هذه.

سكت قليلا، ثم وكأنه لم يُطق صبراً عاد يستفسرني:

ــ إلى متى ستظل تشرب الماء؟

ــ إلى أن يشاء الله، بعد ذلك سأتدبر أمري.

أجبته:

اسم مرَّ زمن شرد فيه ذهني عما كان يروج بينهم من أحاديث، إلى أن استرقت أذني الحديث عن أبي حيان التوحيدي، فتساءلت في حالة استنفار، ظناً مني أنهم بصدد واقعتي:

ــ بالله عليكم، عمَّ تتحدثون؟

أسرع شكري يجيبني:

بول " عن مرارة الاغتراب، وقد استشهد عبد القادر بثلاثة فلاسفة هم "كيركيجور" و الاغتراب تيليش" و "أبو حيان التوحيدي"، صنفهم فلاسفة حاولوا التخلُّص من مأزق النفسي، عن طريق الإيمان بالله.

وأضاف عبد اللطيف:

ــ جعلوا الإيمان ملجأ ومنقذاً من الاغتراب.

صمتوا في انتظار وجهة نظري، فقلت لعبد اللطيف:

قد تصدق نظريتك عن الفيلسوفين الأجنبيين، فأنا جاهل بهما، لكن بالنسبة لأبي حيان، فبودي لو أعرف مصدر استنتاجك هذا.

رد عبد اللطيف:

ستجد "الأمر في بساطة شرب كأس ماء، فبتقليبك لصفحات كتاب "الإشارات الإلهيّة ناشدا التوحيدي ينادي ربه ويناجيه بنبرة صادرة عن قلب خاشع ذليل، متضرعاً، واغترابه التعلق بحبل الإيمان، وذلك دون شك، محاولة منه للفرار من يأسه.

فتدخل عبد القادر.

ــ إن ألبير كامي سمّى أمثال هؤلاء بـــ "الفلاسفة المنتحرين"، لأنهم رفضوا الصمود، هربوا من مواجهة مصيرهم بالعقل والمنطق، واستسلموا لما وراء الطبيعة، شأنهم في ذلك شأن من يتشبث بالسراب اتقاءً الغرق.

لكن حركت رأسي موافقاً، مع أني لم أتفق في داخلي مع استنتاجهم السطحي الساذج، ما أدهشني هو اهتمامهم بشخصي، إذ لم يخطر ببالي ولربما ببال من عاصرني، بأني سأظل حاضراً في المشهد الفكري العربي الإسلامي طيلة هذه القرون، عشرة قرون مرت والناس ينبشون في أفكاري وشخصي، دون أن يأخذ موتي سوى أني لم أكن أنشد المجد كما فعل المتنبي والمعري، لدرجة أني أضرمت جسدي، مع كتبي، إذ كان يقيني أني جئت إلى هذه الدنيا في صمت، وسأرحل عنها في النار في هكذا تعمّدت العيش في الظل، دون أن أسعى إلى سلطان أو مجد، أيكون صمت، تمرّدت على صخب الدهماء وعلى الأصوات النشاز؟ سأتعرَّفُ الحقيقة مادمتُ لأني عدت إلى الدنيا، لكنني إلى حد هذه الساعة ما أعلمه يقينا هو أنني في حياتي قد هذه الأولى تلك، لم أكن أعير ذاتي أي اهتمام، ففي إحراقي لكتبي كنت أحرق ذاتي، والقناعة الذات التي لم تر إلا العثرات بعد العثرات، وإلاّ الاستئناس بالوحشة بالوحدة.

(15)

انتشلني شكري من ذهولي الداخلي صارخاً:

ــ أنت غائب عنّا يا أبا علي، لا تشاركنا الشراب ولا الكلام، ولا حتى الاستماع.

ــ معذرة، فقد كنت شارداً في هموم الدنيا، إنما صدقوني بأني أريد أن أستفيد. فعمَّ تتحدثون؟

أجاب عبد اللطيف:

ــ مازلنا نَنْبُش حياة أبي حيان الذي قهر اغترابه بلجوئه إلى مرساة الإيمان، محاولا التصالح مع ذاته. فما قولك وأنت من بلد أبي حيان؟

دققت النظر في وجوههم جميعاً، وأنا أعتزم دحض ما أجمعوا عليه، فقلت لهم: غريبا عن ــ لم يلجأ أبو حيّان إلى الإيمان لقهر اغترابه ومصالحة ذاته، فهو لم يكن وانتهى مسلما ذاته حتى يصالحها، بل كان متوحداً معها، فقد نشأ مسلما مؤمنا،

نقيضه، كحال الملاحدة مؤمنا. إن اللجوء إلى الشيء لا يكون إلا من خارجه أو من بالله، وأبو حيان لم يكن ملحداً، حين يهربون من القلق إلى الثبات، أي إلى الإيمان تقدم به العمر وخبر الحياة، إلى إيمان فإذا كان قد انتقل من إيمان ضعيف، بعد أن مؤلفاته "الإشارات الإلهية"، فإن ذلك ليس هروبا أقوى، وهو ما أفصح عنه في آخر جديداً للإيمان، فأحرى أن يكون انتحاراً، كما زعم فيلسوفكم ولا لجوءاً ولا اكتشافا كُمْ أو كِمْ كَمْ، لا أذكر اسمه، ولعله مات منتحراً النصراني كَمْ.

فأسرع عبد القادر يقول:

ــ ألبير كامي، لا تقل لنا يا أبا علي إنك لا تعرفه، فهو كما تقول، قد مات منتحراً يقيناً.

فتدخل شكري وسألني:

وما قولك في اغتراب أبي حيان؟

إيمانه ــ الرجل في مسير حياته كلها لازمه إحساسه الشديد بالغربة، مثلما لازمه كان مسلما قويا متمكنا الشديد بالله، ولا تنافر بينهما، ذلك أنه لم يكن مسلما عادياً، بل الاكتفاء بالحج العقلي إذا ضاق " من كل علوم عصره، لدرجة أنه ألف كتاباً أسماه المجالس العلمية بين مؤيد ورافض الفضاء عن الحج الشرعي"، فأحدث بلبلة في فوق فرائض السنة، وهي أفكار ومتردد، وذهب في قوله إلى أن أعمال القلوب ببراهينه وحججه، أما ظاهرة اغترابه، جريئة لا يستطيع تناولها إلا مسلم عالم، قوي اتسم به عصره؟ فلا يمكن فصلها عن عصره، أتعلمون بما

صمت الجميع منتظراً ما قد أضيفه، فتابعت حديثي:

ــ في عصر التوحيدي، عانى أهل الفكر والعلم من الإحساس الشديد بالعجز التوحيدي عن والإهمال والفاقة، تولى جلهم أعمالا وضيعة لسد رمقهم، فجاء ما كتبه القمّة ثقافياً الاغتراب، صدى يمثل روح ذلك العصر، وبإيجاز كان عصر التوحيدي والهاوية سياسياً.

وفيلسوفاً، في الحقيقة، كان بودي أن أعرف موقفكم من آراء أبي حيان مفكراً وأديباً وليس مغترباً فحسب، وكأن الرجل ما عرف في حياته سوى الغربة.

حرك عبد اللطيف رأسه بين الموافق والمتردد، فأشرت له بيدي أن يقول ما لديه، فقال:

ــ لاشك أن رجحان صفة الفيلسوف كانت غالبة عليه، وهي التي أبرزت بطريقة بالاغتراب، لافتة ظاهرة الاغتراب لديه، ذلك أن الفلسفة في جوهرها، ترتبط أساساً إلا إذا وقع بل هي نتاجه. ومن ثمة، فإن أي حديث عن فكر أبي حيان، لا يتسق كتاباته، ولعله لهذا السبب التطرق إلى اغترابه الوجودي الفلسفي الذي تثوي خلفه كل الفلاسفة الكبار، فالإبداع الفلسفي كان يكثر من العزلة والوحدة، شأنه شأن غيره من الفيلسوف والواقع هو نتاج موقف عزلة، نتاج مسافة بين.

لم أطق صبراً، فقاطعته مضطراً:

الفيلسوف ــ يا سيدي عبد اللطيف، ما كانت الفلسفة نتاج عزلة، ولا نتاج مسافة بين في برجه العاجي، والواقع، وكأنك تريد أن تقول إنَّ الفيلسوف هو ذلك الرجل القابع يتأمل الحياة من بعيد.

بل كانت لِنَبْقَ عند أبي حيان، فهذا الفيلسوف الأديب، لم تكن عزلته مادية واقعية، داخله، يعبّر عن عزلة نفسية سامية داخل دائرة الواقع، أي أنه كان يتأمل الواقع من بعبارة أدق، كان يمارس تجاربه الحية، وعن أحواله النفسية كما هي في صيرورتها، التفلسف بوصفه تجربة معيشة.

حيان اسمحو لي، لا أريد أن أطيل عليكم، لكن، ألا ترون معي أن ما وصلنا عن أبي تعرفون أحداً لا يتعدى بعض مؤلفاته؟ إنني أتساءل، وأسألكم في الوقت ذاته، إن كنتم ترجم له أو أدمج حياته في كتاب أو رواية، أريد أن أعرف منكم؟

ردّ عبد اللطيف:

فقيه ــ حديثك أستاذي أبا علي مقنع جدّاً، فقد جعلتنا نحس بأننا تلاميذ في حضرة فإن جميع متمكن، وكما في علمك، فإن الكتابة عنه جاءت بعد أن تلاشت آثاره، لذلك فلا أحد أكد ما قيل عن حياته متضارب، يقوم على الاستنتاج والترجيح والتخمين، أم جار عليه يقيناً حياته البيولوجية، كأن يكون من أصل عربي أو فارسي، تزوج يؤكد أنه لم يكن حب امرأة، فكره الزواج، إنه نفسه أهمل الحديث عن ذاته، مما آخر على إحساسه بلا يطمح في بقاء أعماله بعد مماته. وما إحراق كتبه إلا تأكيد جدوى الطموح.

فتدخل عبد القادر مضيفاً:

ــ إن الإحساس بالإحباط يقتل الطموح فِعْلاً، وقد عرف عن أبي حيان، أنه عاش

حياة الإحباط واليأس والاغتراب.

ــ حافظ، حافظ، قنينة أخرى مع كأس ويسكي مضاعف.

قال شكري، والتفت نحوي:

ــ بالله عليك، يا أبا علي، شاركنا يا أخي كأس شراب، إنه لديكم في العراق من عصير التمر، ولدينا هنا من عصير الكرم، وشتان بين مذاق التمر ومذاق العنب، من أكرر عليك للمرة الضائعة في العدّ، أننا في جلسة خاصة لا يشاركنا فيها أحد العامة.

ــ صمت قليلا وأضاف:

ــ من تقاليدنا في المغرب، أن لا يَرُدَّ الضيف هدية مضيفه.

لم أعرف كيف باغتني الضحك، ولا كيف حرَّكت رأسي رافضاً.

فوضع الكأس أمامه، وقال بخيبة فضحتها حنجرته:

ــ ما شئتَ لا ما شاءَ شكري.

ظل شكري في ذروة حبوره، إذ أخذ يضرب بشدة على ظهر عبد القادر، مفجراً صبيانياً، إلى أن منعه الرجل من مواصلة ضربه، فتناول كأس مدامه، ورشفه فرحاً جرعة طويلة، ثم أعاد قدحه إلى مائدته وخاطب صديقيه في:

أستسمح أبا علي إن أنا أفشيت سرّاً خطيراً مدهشاً.

أفزعني قوله، هذا رجل أحمق، بعد أن لعبت تعاويذ الكؤوس برأسه، سيقدم على فضح سرِّي لأصير من جديد موضوع تساؤلات، أنا في غنى عنها، قلت في نفسي.

لكنه أشار بيده يطمئنني، وقال:

ــ هناك مخطوط أثري فريد، عبارة عن سيرة ذاتية كتبها أبو حيان التوحيدي قيد حياته، عثر عليه مؤخراً في بغداد، وقد شاءت الظروف أن يطلع عليه صديقنا أبو الشاكرين علي، فإذا رأى أننا أهل لسماع شذرات من هذا المخطوط، فسنكون له من ملأ ثلاثة أقداح لصديقيه ولنفسه، وصمت ينتظر ردي.

أثارت عيونُهم جميعاً أسئلة خفية ظلت معلقة تستطلع حقيقة الخبر من كذبه.

لم أعرف بماذا ابتليت، فالرجل بطريقة مواربة يريدني أن أتحدث عن نفسي، وكأني أبو علي يتحدث عن أبي حيان.

ياله من مأزق، إنَّ حياتي تخصني وحدي، ولا معنى لأنشر تفاصيلها على آذان

أناس لا تربطني بهم سوى صلة مجلس شراب عابر.

لكن شكري، وكأنه اكتشف ما يموج بداخل رأسي، قال:

إنها من ــ حياة أبي حيّان، ليست ملكاً عينياً موقوفاً عليه، أو على ذويه أو بلده، الشأن العام المشاع بين الناس، تراث إنساني مشترك بين جميع الأمم.

كلام جديد، لكنه حق ومنطقي، رفعتُ كأس الماء وألقيتُ به في حلقي، وقلت لهم:

ــ لا وجود لمخطوط أثري عن سيرة أبي حيان، لكنني أعلم عنه أشياء قد لا تعرفونها أنتم.

(16)

واقفاً على رجليه، توقفت عن إتمام حديثي، بعد أن فاجأني محمد شكري بانتصابه يشير تارة إلى مقعدين مرحباً بامرأتين وقفتا على رؤوسنا، وهو في حالة ارتباك، لتشاركانا المائدة، وفي الآن فارغين، ويطلبُ منّا تارة أخرى أن نفسح المجال لهما اسمَ الآخر، دون أن يذكر وجه قرابته ذاته كان يسرد أسماء الجميع ليتعرف كل منا بالمرأتين.

ودون لعلهما زوجاه أو شقيقتاه! قلت في نفسي، وأنا أتحسر لمعرفة نوع هذه العلاقة، لفافتيهما بعود إرادتي، انتفضت في مقعدي من هول ما شاهدت، فبعد أن أوقد لهما رجلان لا يختلفان عن ثقاب، صب لهما كأسي نبيذ، فتناولتاه، وتجرعتاه، وكأنهما أثاره هذا المشهد الرجال في شيء، لكن الأغرب من ذلك، أن لا أحد غيري.

إنهما جاريتان، قلت عنهما في داخلي، لكن شكري أبلغ السيدة السمراء، وتدعى صوفيا، بأنني أديب وفيلسوف من العراق، وقال لي عنها بالمقابل:

ــ إن السيدة صوفيا روائية باللغة الفرنسية.

حركت رأسي مبتسماً، لكنني في الحقيقة لم أفهم شيئا، إذ لم أقو على مزج امرأة تعاقر الخمر جهرا، براوية للأحاديث الشريفة!

الذي قلب وبعد برهة زمنية اهتديت إلى التسليم بالأمر الواقع متعللا بالفارق الزمني أن أرى الشمس العالم رأساً على عَقب، فبعد هذه المسافة الزمنية، لم يعد غريبا تسطع من مغيبها، وتغرب من حيث مشرقها.

جلست صامتا مسكونا بهواجس ظلت تُناوشني، فارتأيت أن أسلي نفسي بهذين

الداكنة المخلوقين اللذين اقتحما مجلسنا في بطن الليل، استرقت النظر إلى المرأة مظهراً أيضاً، فقد السمرة المسماة صوفيا، إنها لا تتشبه بالرجال سلوكاً فحسب، بل عنادها لم تختلف قصّت شعرها العاري، وتزيّنت بقميص وسراويل ضيقة، حتى في إلا أنها تمادت في عن الرجال، فقد أمرها شكري أن لا تخلط أحاديثها بالفرنسية، نحو "ماريا"، غيها دون أن تعبأ بأمره، ثم بطرف جفن استرقت نظرات أخرى اعتلتهما تنورة قصيرة فراقتني أنوثتها، إذ كشفت عن ساقين ناعمتين بيضاوين، أرسلته وراء ظهرها، لو لم زاهية بلونها السماوي، بشرتها بيضاء وشعرها فاحم، سحر خاص بعينيها العسليتين، جعلني أكن متعلقا "بنهاوند" لتمنيتها زوجا ثانية لي، اللحظة لم أكن أعلم بعد درجة قرابتها من أتحاشى إطالة النظر إليها، فإلى تلك شكري.

كل شيء كان يطوقني بالدهشة والغرابة وبأسئلة كثيرة طرقت رأسي، فشغلتني دون أن أجد سانحة لأستفسر عنها.

تتناقله كنت أبدو وكأني أستمع إلى أحاديثهم، لكنني في الحقيقة كنت أستمع إلى ما مجلس نفسي من هواجس، تلك الهواجس المرتبطة بحضور المرأتين الغريبتين في بيننا وبينهما واحد معنا، فقد كانتا تتحدثان وتعاقران الشراب كالرجال تماما، لا فرق إلا ما تميزتا به من نعومة البشرة.

صارت الجلسة تمنحني نشوة تذكي أحلام يقظتي الموغلة في أعماق التاريخ.

وخطر لي أن أشاركهم الحديث، فتوجهت بسؤالي إلى صوفيا:

ــ سيدتي، عمن من الفقهاء تروين الأحاديث؟

حملقتْ في وجهي مستغربة، وكأني فهت بكلام غامض، فأسرعت أعيد سؤالي مغايرة، وأنا إخال لهجتي قد عاقتها عن فهمي، والتبس الأمر عليَّ حين بصيغة رأسها يمينا وشمالا، وأشرعت عينيها تأكيدا لعدم فهمها، لكنني لم أتخاذل، حركت توجهت إلى شكري، أستفسره بصريح العبارة بل:

ــ ألم تقل عن السيدة صوفيا إنها راوية، أم تُراني خانتني أذناي؟

تأملني برهة، ثم أجابني مبتسماً، وكأنه تدارك الموقف:

ــ كنت أعني روائية لا راوية، و "روائي" كلمة حديثة يقصد بها من يقوم بكتابة نصوص حكائية من نسج الخيال.

ثم فجأة، افتعل نوبة من الضحك، وخاطب مرافقيه:

ــ مزاح أبي علي لا يفهمه إلا خاصة الخاصة من الأدباء العراقيين، فقد أراد بأسلوبه الماكر إصلاح خطأ وقعت فيه، إذ قلت عن صوفيا راوية عوض أن أقول علي؟ روائية، لكنني نجحت في الرد عليه بأسلوبه الماكر ذاته، أليس كذلك يا أبا حركت رأسي موافقاً وأنا أحس بهم يتنفسون الصعداء، وأكثرهم صوفيا التي سايرتهم في فهم ما لم تفهمه.

لولا نباهة شكري وشطارته لافتضح أمري، قلت في نفسي، وقد تأكد لديَّ أن أحاديث أكذوبته البيضاء قد انطلت عليهم جميعهم، ففكرت في أن لا أشاركهم بسوى بسؤالها الذي عابرة احتراساً من وقوعي في حُفَرٍ جديدة، لكن السيدة صوفيا أربكتني فاجأتني به:

ــ كم لغة تتحدث يا مسيو علي؟

فأسرع شكري يشرح لي:

ــ إن كلمة مسيو فرنسية، وتعني السيد.

إلى أحكمت تسجيل الكلمة الجديدة في ذاكرتي، وأدرت سؤالها في رأسي، وأنا أنظر أجبتها شكري، عله يسعفني بجواب يقيني زلة لسان جديدة. وبعد أن طال صمته،:

مُلِمٌّ ــ إضافة إلى لغتي العربية، أتحدث الفارسية والسيسانية والكرديّة. كما أنّني لغة تتحدثين؟ ببعض أسرار اللغة البيزنطية والمسمارية والبابلية، وأنت سيدتي، كم فتدخل شكري يجيبني:

ــ اللغة الفرنسية هي ورقة توتها الوحيدة، فهي غير متمكنة من صياغة جملة عربية واحدة بطريقة سليمة.

خلت أن كلام شكري سيغضبها، لو لم تضحك وتقول:

ــ تلك حقيقة، وأنا سعيدة بها.

شكري، ليستأثر أما عبد اللطيف وعبد القادر، فكلما هَمَّ أحدُهما بفتح فيه، إلا وأسكته من موضوع إلى وحده بالحديث، ومثلما تنتقل جرادة من مكان إلى آخر، ظل ينتقل آخر، معلنا غبطته بكلِّ فكرة تصدر عنه، وسألني:

ــ أتعرف معنى لاسم صوفيا؟

فعلا لم أعثر على تفسير له، فقلت:

!ــ لعله اسم مصدره الصوفية

:ضحك وهو يمسّد شعر المرأة، وكأنه سيمتدحها، وقال

ــ اسم هجين، تنكر لأصله العربي "صفية" ليتشبه باسم لاتيني مسيحي، مثله مثل اسم ماريا، الذي هو "مريم" في أصله العربي.

(17)

:رفع شكري قدحه وأمر الجميع بالصمت، وخاطبني

ــ سوف تصادف نماذج كثيرة من أمثال صوفيا وماريا، رجال ونساء يشتركون في كونهم ضحايا، وإذا عرف السبب بطل العجب!

!ــ لم أفهم

قلت له، فابتسم وتجرأ على تناول سيجارة من صندوق "صوفيا" المختلف عن صندوقه، وقال لي:

ــ المغرب، هذا البلد الأمين، ظل نصف قرن رازحاً تحت جميع أنواع الاحتلال إلى أن الفرنسي، لكنه لم يذعن، فثقافته، بالمفهوم الشامل، بقيت متراصة ومستنفرة، أُعْطِيَ اسْتِقْلاَلَه، وهنا بدأ العجب!.

:وقاطعه عبد اللطيف

.ــ لم أكن أعلم أنك محلل سياسي، إن كلمة "أُعْطِيَهُ"، هي الكلمة الحق

ــ لست محللا سياسياً. أنا أنقل الواقع، وأعري الضحية والجلاد، فأنا رجل مخضرم، عشت عقديْن ونصفاً في ظل الاحتلال العسكري، وأزيد من أربعة عقود في ظل الاحتلال الثقافي.

:وتدخل عبد القادر قائلا

ــ أشاطرك الرأي، فقد خرج العسكري من الباب، وعادت ثقافته من النافذة، أهذا ما تريد قوله؟ املأ قدحي أيها العبقري!

ــ لا، لن أسقي أحداً قبل أن أنهي حديثي. ولعلمكم، عفواً، ولعلم صديقي وضيفي أبي علي، أعلن له، بأنني في مسير حياتي الطويلة العريضة، والتي كلما تقدم عمري، إلا وبدت لي قصيرة، أعلن عدم انتمائي في السابق والحاضر لأية هيئة سياسية حزبية، وبأني أمقت الحزبيين، الشيوخ الكبار البهلوانيين، حروف الجر

وليس النكرات المجرورات، فهؤلاء اغتصبوا طفولتي وسرقوا كهولتي، لتكون النتيجة، أن صوفيا أصبحت سعيدة بجهلها تركيب جملة واحدة مفيدة بلغتها الأم، هكذا يبطل العجب.

والآن، سأملأ أقداحكم لنشرب نخب مآسينا، لنشرب على شرف عظمة حروف الجر، تلك التي انتصرت على إصابة المجرور بالكسر.

رفع الجميع كؤوسهم إلى السماء، فتساءلتُ عن السبيل لجعل هذه الجلسة تقصر أو تمضي بسلام، فقد فسدت أو كادت، فبسبب الكؤوس التي لعبت برأس شكري، لم معنى لخطبته، ولا معنى لمجالستي شبانا صغاراً في مقام شراب، ولا معنى أجد حريم غريب مشاع بيننا، ولا معنى لإرغامي على انتحال شخصية أديب لوجود لا معنى لأن أظل كل هذا الوقت معلقاً فوق مقعد، وأنا المعتاد على عراقي، بل البساط أو السجاد أو الأرض العارية، لا أن أتسلق الكرسي وكأني في افتراش حاكم حضرة.

تملكني ضيق مشوب بحزن وأنا أتحسس نفوري ممن يحيطون بي، فكان علي أن أصدقاء فاس، فهم أيضا مغاربة، لكن الحال معهم كان مختلفاً، كان أستحضر مجالس شراب، إنما تلك كانت قليلة ومحاطة بسرية تامة، تتخللها موسيقى لبعضهم خالصة، عربية وأمازيغية ويهودية، كانوا يفترشون سجاداً يسمونه زربية، مغربية مطرّزاً بألوان زاهية، حيث تُفْرَدُ لكل شخص منهم وسادة مطرزة ليتكئ عليها.

وتتوسط الجلسة مائدة خشبية ذات أرجل قصيرة يسمونها "طيفوراً"، توضع فوقها قوارير من قش أو مرشات فضية يتطيبون بما بها من رحيق الورد أو الزهر، أو غيرهما من أرحقة نباتات ذات روائح زكية.

واحد يدار لقد عَلِقَ بذاكرتي من أشربتهم "الصَّامت" و "الماحية"، يحتسونهما في قدح عليهم بالتناوب فردا فردا، ويسمون القدح القشي "غرّافاً".

هذه، ما ألذ تلك القعدات، وما أدفأها! فمن كثرة انتشائي بها، ونفوري من قعدتنا وبغداد، إلى يزداد يقيني بانتمائي إلى الماضي، إلى ذلك الجيل من أصدقاء فاس ويحضر هنا، فإني زمانهم وثقافتهم. ولذلك، فلو أني الرجل نفسه الذي حضر هناك والوجدانية في لست الشخص ذاته الحاضر هنا. أيكون الرجل هو حمولته النفسية زمن واحد؟!

لعل مرد اشتداد غربتي إلى أني ابن ذلك الزمان الذي مرت عليه عشرة قرون. فلو إلى أن الأمر يتعلق بالمكان وحده، لخفت وطأة هذه الغربة، و لتقلّصت حدتها، ولو وإلى نزر يُبقي لنفسي بريق أمل، ويشيع فيها حلم عودتي إلى بيتي في الرصافة، خلاني في بغداد.

لكن، أمام هول ما أنا فيه، فلا أرى لي سوى مخرجين، كلاهما مرّ، تحمّلٍ أو جنونٍ.

وأعادتني السيدة صوفيا إلى صخب الجلسة، بسؤالها الموجه إلينا جميعا:

ــ مارأيكم في تغيير هذا المكان؟

فأسرعت أجيبُها:

ــ أتمنى تغيير الزمان، لا المكان وحده!

ضحكوا جميعهم متوهمين بأني أمزح، لكن محمد شكري فطن إلى قصدي، إذ خاطبني وقد بَدَا عليه وهن الشراب من خلال حنجرته:

ــ الزّمان من أعقد قضايا الإنسان وأخطرها، وقد قام علماء، أكثرهم غربيون، بتسويد آلاف الصفحات عنه، لكنه ظل لديهم بدون علاج، إشكال محيّر، يُصيب بالجنون ولا يصاب، يَقهر ولا يُقهر.

وهمست إلى شكري ونحن نتهيأ لمغادرة المطعم:

ــ لن أقوى على الذهاب إلى مكان آخر. أفضل العودة إلى إقامتي.

ــ المكان الآخر نَادٍ ليلي، به موسيقى وغناء وبنات ليل.

ــ لا، لن أقوى.

ــ لك ما أردت.

أجابني شكري والتفت إلى مرافقيه يخبرهم برغبتي في العودة إلى فندقي، فمدوا أيديهم لأودعهم واحدا واحداً، لكن صوفيا لم تكتف بمصافحتي، بل مالت نحوي الملإ وطبعت على وجهي قبلة، ثم تبعتها ماريا وفعلت الشيء نفسه، قبّلتاني أمام فمن كثرة وهما تضحكان، دون أن تثيرا أي تساؤل أو تعليق من رفاقنا، أما أنا، ذهولي أحسست باحتقان الدم في شراييني.

(18)

البيضاء، ظلت المرأتان في طريقنا إلى إقامة السراب، ونحن نمتطي صهوةَ السيارة

لكنه بجوابه المقتضب، تشغلان تفكيري، فطلبت من شكري أن يكشف لي سرهما، أجابني بالحرف الواحد وكأنه يحتج على طلبي، زادني غموضاً على غموض، إذ:

ــ إنهما مجرد صديقتين لا أكثر!

أربكني جوابه حدَّ الفزع، لكنني دون إرادتي، انتزعت منه ضحكاً عالياً، حين تساءلت بصوت مسموع:

ــ تتصادقان والرجال، دون أي اعتبار للشيطان؟

وسألته:

ــ وما الذي يضحك في هذا؟

حاولت أن أرصد ملامحه من خلال ضوء متقطع ترسله أعمدة الإنارة، فاتضح لي أنه يضحك في سره، وخاطبني:

ــ حين أدركك الصباح يا أبا حيان، بعد نومتك الأندلسية في القرن الرابع الهجري، لم تقم وزنا كان العالم قد خطا إلى الأمام مسافة عشرة قرون، لكنك على ما يبدو، لم تدرك هذا لما استغرقته هذه المسافة من تغييرات، وإلا ما كنت لتسألني عن المرأتين! السؤال، إنك تريد أن يتصرف الناس وفق منطق زمانك، هذا مستحيل.

ــ أنا سألتك عن حكاية المرأتين، وليس عن كيف يجب أن يتصرف الناس.

قلت. ولذت بالصمت. بعد فترة زمنية، استعذبت التفكير في حركة السيارة التي جعلتني أحس بما يشبه هدهدة المهد، ولعلني غفوت لحظات قبل أن أنتبه إلى أن الرجل منشغل بشيء ما بين يديه، وحين أوقد سيجارته عرفت أنه كان يبحث في محفظته عن صندوق سجائره، فتذكرت أن التدخين يساعد مزاجه على الروقان. إنه بعد سيجارة واحدة سوف يبوح لي باسرار المرأتين، وصدق حدسي، فقبل أن يأتي على سجارته الأولى، انفطرت حنجرته تعلن استعداده للبوح:

ــ لا شك أن سلوك صوفيا وماريا أوقعك في حيرة من أمرك؟

ــ إنه لكذلك.

أسرعت أجيبه برنة من ينشد سماع المزيد.

فزاد:

ــ لا بأس، ولو أني سأعرض بإيجاز ما قد يتطلب مني ليلة كاملة من الشروح.

كانت أعمدة الإنارة قد اختفت، فبدا إلى جانبي شبحاً، لكنني من خلال هبوط حاد في

أنه ثَمِلٌ نبرات حنجرته، أدركت.

ــ إن تصرفات صوفيا وماريا في مطعم ريتز، مرتبطة برياح التغيير التي لم تشملك، أكرر للمرة الثانية أن العالم أثناء نومك العميق، شهد حروبا وثورات الأندلس، واختراعات واكتشافات، كظهور الطائرة والإنارة وموانع الحمل واختفاء وقيم جديدة وأشياء أخرى كثيرة ومتنوعة، فكان من الطبيعي أن تولد عادات جديدة ومفاهيم جديدة ورؤى جديدة.

لم أطق صبراً، وهو يكرر برتوب كلمات بعينها، وكأنه يخاطب أَبْلَهَ أو شخصاً انبعث من العصر الحجري، فقاطعته:

ــ من يجهل تأثير الزمن في سلوك البشر؟ كل الحضارات منذ سومر وبابل وغيرها، كانت مصادر لعادات وقيم لم تكن موجودة، أو هي كانت والأندلس مخيلة الإنسان، إلى أن دعت الضرورة إليها، فتعرفناها. كل هذا أعرفه موجودة في لكن سؤالي الضيق اقتصر على حكاية المرأتين اللتين قبّلتاني أمام الملأ في وأحقه، والرجال مطعم ريتز، وشاركتانا مجلس الشراب، وتقول إنهما صديقتان لك، وكأنهما سواء بسواء، هذا تحديداً ما سألتك عنه.

ما إن أتممت قولي، حتى توقفت بنا السيارة في وسط الطريق، فخاطبني شكري:

ــ إننا بجانب القصر الأميري، على مقربة من فندق السراب، وسأرافقك عبر الشاطئ إلى إقامتك، وإن اقتضى الحال، أتممت ما تبقى من الليل في ضيافتك.

ترجلنا من السيارة، فطلب شكري من السائق أن ينصرف.

كماله، واستقبلتنا رائحة البحر بهواء ينعش العظام، وارتفع في السماء بدر منير في كشف أديم صفحة البحر، ولمعان بياض أمواجه، مثلما كشف ملامحنا وتعثر خطواتنا فوق رمل رحب استدار حولنا، فصرخت بأن البحر أشد مخلوقات الله وسحراً. انحرفنا يمينا فامتدت أعمدة الإنارة خطاً واحداً مسرعاً من حدائق روعة المنزل الأميري إلى فندق السراب، لكنها بدت أمام شعاع البدر قناديل باهتة محتضرة، فانتشلني شكري من هيامي، وقال لي:

ــ نظريتك القائلة إنَّ الاختراعات تنام في ذهن الإنسان، أعجبتني.

ــ أخبرني أولا بحال المرأتين.

قاطعته في عجلة من أمري، وأمسكت بذراعه أحثه على الابتعاد عن حدائق القصر،

والاقتراب من الشاطئ، فضحك وأشعل سيجارة أخرى، وقال لي:

ــ أجل أجل، أعرف أنك مفتونٌ بالبحر، لِنَدْنُ منه إذن، إنما قبل أن أحدثك عن السيدتين دعني أصارحك بأن مقدمتي عن التغيير الذي أصاب سلوك البشر كان مصدرها اقتناعي بجهلك للمرأة، وبصفة خاصة نساء هذا العصر، فقد عرف عنك مخالطتك للنساء، وباستثناء ما سمعته منك في المحكمة عن علاقتك بالجارية عدم السيدة نهاوند، فإن جل الباحثين في سيرتك أجمعوا على خلو حياتك من المرأة، ولذلك سقت تلك المقدمة.

قهقهت وهرولت محاولا الابتعاد عن موجة اكتسحت الشاطئ، فغمرتني لأغوص بركة ماء بارد بلغ ركبتي، وحين التفتت إليه، وجدته مُقَوَّسَ الظهر من شدة وسط الضحك، وقد تراجع إلى الخلف ركضا في رشاقة نورس حقيقي، واستمر في والموجة تنساب بين قدمي، عائدة إلى البحر بعد أن أنهت مهمتها ضحكه.

ــ أنت ابن الصحراء، وأنا ابن البحر، وإلا لكنت عرفت أن تنجو من البلل، عليك بانتزاع حذائك وحمله في يدك. فهو حذاء جميل.

قال وهو يقهقه بصوت مرتفع.

أنا أيضا غمرتني نشوة فرح طفولي، فأجبته دون أن أكف عن ضحكي:

ــ أفخر بانتمائي إلى الصحراء، مثلما أفخر بأني ابن بغداد، أكبر حاضرة في الخلافة الإسلامية، لكنني عشت كذلك في مدن ساحلية، في البصرة وفي المحمّرة شواطئكم. الفارسية. إلا أن أمواج شواطئنا أكثر رقة ونعومة وانسياباً من أمواج المهمشين، أخبرك بهذا لتضيفه إلى معلوماتك الناقصة. ألم تقل إنك أرّخت لحياة هامشياً لتؤرّخ أيضا لحياة الهامشيين، أو بالأحْرى لمن صار في زمانك.

ــ وأنت أيضا أبا حيان، لتضف إلى معلوماتك، بأن أسوأ ريح تهبّ على طنجة الغربي"، وهي " نسمّيها "الشرقي"، بينما نسمي الريح التي يحملها إلينا بحر الظلمات تسربل مشاعرنا بالنعومة والانتشاء.

ودون أن يتوقف عن ضحكه، أضاف:

ــ نحن معاً معلوماتنا ناقصة، إنك محظوظ يا صاحبي، فهذا النسيم الذي يلفح وجوهنا هو ما نسميه "الغربي"، أما ريح "الشرقي"، فإنك لا تقوى على مقاومة إزعاجه لحظة واحدة.

(19)

ومشينا دون أن أخلع أشرت له بيدي أن نستأنف مسيرنا بمحاذاة الشاطئ، فاستجاب، ورفعت رأسي إلى فندق حذائي المبتلّ وأمسك به في يدي، وكأني لا أملك سواه، البحر، ولمعت في ذهني السراب أمامي، وقد بدا بأضوائه المرتعشة مارداً يحرس يبدده صخب الموج قَوْلَتُه عن جهلي بالمرأة، فأردفت بصوت عال حتى لا:

ــ تعرَّفت نساء كثيرات عربيات وفارسيات، ولي فؤاد خفق وهام وعشق، وذاق الغرام وهَدَّهُ الوجد والبعاد، هذا البحر أحضر لي تفاصيل من حياتي كانت في طعم طي العدم، كنت في حوالى العشرين من عمري، غض الإهاب، حين همت بأول فارسية صبية.

ــ ياسلام! ماذا كان اسمها؟

سأل شكري، وأرخى أذنيه لسماعي، وفي عَجَلَةٍ من أمري، وكأني أمتحن ذاكرتي في لأتعرّف ما قد تستعيده من تفاصيل تلك الأيام البعيدة المنسية، أو لربما كنت حاجة إلى البوح، قلت:

ــ كان اسمها شهربان، ومعناه بالعربية نور القمر.

ــ يا سلام!

صرخ شكري، ورفع نظره صوب القمر، فأسرعت أقول له:

ــ من أجل ماذا تتمثَّل بين الحين والآخر بكلمة ياسلام، ماذا تعني بذلك؟

ــ ألا تردّدون هذه الكلمة في العراق؟ إنها تقال في كل البلاد العربية، وتفيد التعبير عن الإعجاب أو الإنبهار.

تواعدنا ــ ما علينا، قد تكون الكلمة من التعابير المحدثة. بيت القصيد أنني وشهربان في الجبل، أو أن نَظَلَّ على وفائنا إلى أن نتزوج، كنا نلتقي خلسة عند غبش الفجر صارت شهربان دنياي بعد أن يرخي الليل سدوله على المنحدر أو الشاطئ، وبعد أن عكرت صفونا أو ومناي. ولعلني كنت قد صرت دنياها ومناها، ودون شائبة ليل حالك الظلام، خصومة أفسدت هوانا، اختفت مرة واحدة مثلما يختفي القمر في أمْرَيْنِ، إما أن فرحت أبحث عنها دون كلل ولا ملل، حتى غلب على ظني أحد أحد الكهول من آيات الله، السماء رفعتها، وإما أن الأرض ابتلعتها، إلى أن بلغني أن قُم، وأترك لك تخيّل ما ضمها إلى حريمه زوجا رابعة، وهاجر بها إلى مدينة

أصابني من غم، وما لحق بي من كدر وتعاسة.

ــ ألم ترتبط بَعْدَ شهربان بامرأة أخرى؟

ــ أبدا لقد صار النحس يلاحقني، ليظل الفشل حليفي، نحن مسيرون ياشكري بالله لامخيَّرُون. فكل شيء مخطط له في لوح محفوظ بمشيئة الله، قبل أن نولد، ثم حقيقي عليك، كيف تسألني إن كنت قد ارتبطت بامرأة أخرى، وأنا أحدّثك عن حبّ كنت أكنّه لشهربان؟

ــ أقصد بعد زواجها من غيرك. وبعد مرور الزمن، ألم تفكر في الزواج؟

على ــ "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى"، صدق الله العظيم، أذكر أني كدت أقدم تخطيت الزواج مرتين، في المرة الأولى بمدينة شيراز الفارسية نفسها، وكنت قد يلتئم. الأربعين من عمري، كان الجرح الذي تركته شهربان في فؤادي قد أخذ فارسي كنت الحقيقة أنّني لم أفكر في امرأة أخرى، لكن الواقعة بدأت على يد صبي شؤون بيتي، كان أعلمه مهنة الوراقة، وأفقهه في علوم اللغة العربية، مقابل توليه النزق، أخبرني ذات نجيبا مريدا ودوداً، تلك حكاية أخرى. الشاهد أن هذا الصبي ريعان شبابها، وكرر على يوم أن أرملةً من جيرانه توفى عنها بعلها، وتركها في ووصف مفاتنها وخصالها، مسمعي الخبر مرات، دون أن يكف عن الثناء عليها، ظننته مُرْسَلاً من قبلها، ورشّحها زوجاً لي، مما جعلني أشك في أمرها وأمره، إذ عليها، وحين استدرجها لزيارتي بوصفي فاشترطْتُ مشاهدتها قبل أن أفكر في العقد فاستفسرت عن أصلها وفصلها، وقررت أن عالما صوفيا، وجدتها مليحة ناعمة، الله (ص): "اختاروا لِنُطَفِكُمْ فَإِنَّ الْعِرْقَ أزفها إلى نفسي مستندا إلى حديث رسول على علم مسبق بصلاح أشقائها، ويا ليتني كنت أسرعت دَسَّاسٌ"، ذلك أني كنت الكارثة بخطبتها قبل أن تحل.

أخذ شكري نفسا عميقا. واستوقفني ممسكا بذراعي، وسألني:

ــ أية كارثة؟ أتزوجها غيرك؟

ــ ليت غيري تزوجها، فقد حدث ما هو أفظع من ذلك، ترددتْ على بيتي بضع وتواعدنا على الزواج، ولأني لم أكن أتوافر على ما أرتديه من لباس لائق مرات، وشملةٍ، ثم من مقامي أثناء الخطبة، انشغلت بحياكة وخياطة تكةٍ وغلالةٍ وبَقيرٍ يرفع ابتعت نعلين على كوفية وعمامة في بياض اللّبن الحليب، دون أن أهمل قدمي، إذ

مقاسي.

بأنها في خضم انشغالي هذا، قام أحد الوشاة ــ لعنة الله عليهــ فأبلغ أحد أشقائها أن تزورني خلسة في منزلي، فما كان من هذا الشقيق، صونا لعرض عائلته، إلا بئر انقضَّ عليها كحيوان شرس، وبعد أن سفك دمها، ألقى بجسدها الغضّ في جوف على مشارف المدينة.

أمسك شكري رأسه بِكلتَا يديه، وصرخ:

ــ يا للكارثة. إنها حقا مأساة! ماذا فعلت بعد ذلك؟

ووثوقي ــ لم أكن على علم بما حدث، إلا بعد أن زرت والدها، وأنا في أوج تألقي إلا من نفسي، فقد جلست إلى الرجل معرّفا بشخصي في ارتباك وحبور لا يدركه منزلها كليم من أقدم على خطبة امرأة خفق قلبه لها، فأرادها حرثاً له. وغادرت الفؤاد، لأجهش بالبكاء، كامرأة ثكلت أعزّ من تحب.

ــ وهل كان لا بد من ارتداء لباس أنيق كي تخطبها، مع أن علمك خير ما ترتديه؟

ــ إنها الأصول ياشكري، فلباسك يرفعك قبل جلوسك، وعلمك يرفعك بعد جلوسك.

(20)

حرك رأسه استحسانا لجملتي، وقال لي:

سنين، ــ أسايرك الرأي، أنا واللهِ متفق معك، فموضوع الأناقة دوّخني أنا أيضا منذ برجل أنيق، ولا أرى بأساً في إخبارك بأن أقوى ما حفَزني على الكتابة، هو إعجابي فضولي كان محل ترحيب واحترام من لدن زبناء مقهى كان يرتاده، ودفعني كاتبا، ما هذا الرجل، فقيل لي إنه كاتب. فقررت للتو أن أكون لأستفسر عمّن يكون تتجزأ، فالأنيق في أخبرك به سبق وأن أعلنته في أحد كتبي جهراً، ذلك أن الأناقة لا كتاباته وثقافته، لا بد أن يكون أنيقا في سلوكه ولباسه.

وأخذ يضحك بصوت مرتفع وكأن مساً قد أصابه.

ــ ماذا يضحكك يا شكري. أجبْني؟

توقف بعد أن ابتعد عني خطوتين، وهو يمسح عينيه من دموع الضحك، فقال لي:

ــ أضحك على ما سببته لي من تعاسة، فقد جعلتني أتألم، وحين انتبهت، وجدت أن السيدة توفيت منذ قرون، أكثر من عشرة قرون، فحتى لو كنت تزوجتها، أو عاشت

وقتنا مائة عام دون زواج، فقد كان عليها أن تكون في العدم. إنَّ الحزن عليها في هذا أمر مضحك، وإذا أردت الحقيقة، فإني أضحك أيضا من الفرح. من سعادة قصوى تغمرني.

ــ أية سعادة تقصد؟

لم يجبني، ألقى بين يدي بحقيبته، وجرى يواجه الأمواج إلى أن ولج البحر. لم أعرف بماذا ابتليت، هناك بكل تأكيد غاشيةً غشيته، أو جنّيٌّ شقّ صدره فدفعه إلى الانتحار، وتبعته يهدّني الهلع:

ــ شكري شكري، لا تكن مجنونا، ارجع ارجع!

دون أن يتوقف صراخي، وقفتُ والماء يعلو ركبتي، وداهمتني موجة تكسّرت فوق صدري، فكادت تلقي بي أرضا لتجرفني إلى داخل البحر، فتراجعت إلى اليابسة، وأنا أشاهد شبحه يغوص ثم يطفو فوق الماء.

بعد برهة زمنية، وقد أوشك صبري على النفاذ، خرج الرجل المجنون وهو يرتعش البرد. أنا أيضا كانت ركبتي تصطكّان من البرد أو الخوف، أو من هجمتهما من معا.

ــ ماذا بك ياشكري؟ لماذا ولجت البحر؟

لم يكف عن الضحك وهو يخلع سترته وقميصه، فخلعت أنا أيضا سترتي نصف المبلّلة ووضعتها على كتفيه لتمنحه بعض الدّفء.

ــ من شدة فرحي دخلت إلى البحر.

ــ عن أي فرح تتحدث يا هذا؟

في ذروة حبوره وضحكه، أضاف:

ــ إنه التفرد بمعرفة أسرار أبي حيان، وعشقياته، وخيباته، ومنزلته الرفيعة في هذه الدنيا.

أزال حِذَاءَهُ، ورمى به بعيداً في جوف البحر، ثم كوّم سترته وقميصه، ولوّح بهما في البحر ذاته. وواصل حديثه متفلسفاً:

ــ إن القدر الذي حرمك من الزواج، هو نفسه الذي أبقاك حياً لتنعم برغد العيش والحياة. القدر سيعوِّضك ما فاتك في زمانك ذاك البعيد. كل نساء العالم سَيُرِدْنَ كالذباب. هلْ هناك التّعرف إليك، سوف يجتمعن حولك كالنّحل ويرتمين على قدميك

أن تولد. كان عليك أن سعادة أكبر من هذه؟ إن هذا مسطرٌ في اللوح المحفوظ قبل إليه. أنا لا أعرف كيف تعرفه بمجرد علمك بعودتك إلى الحياة، لكنك لم تنتبه سعادتنا، إنما قل لي، إنك لم نتحجج نحن البشر بمبررات لشقائنا، ولا نتحجج بها عن تحدثني بعد عن المرأة الثانية!

ــ أنت رجل أحمق، هيا بنا إلى الفندق قبل أن يزهق البرد أرواحنا.

(21)

همست لشكري:

ــ إني أحس بانجذاب نحوها، يخيل إلي أنها أصابت مني الفؤاد، ليس بقصائدها الشعرية، إطلاقاً، وإنما بأطرافها كامرأة.

انحنى على كتفي، وأحاط فَاهُ براحتي يديه، كي لا يسمعه غيري، وأسرَّ في أذني:

ــ إنها حقاً جميلة، وشاعرة جيدة.

ابتسم وهو يعتدل فوق مقعده بجواري، وتابع انصاته لما تلقيه المرأة من شعر.

ــ شاعرة ليست ولابد، لكن أنوثتها صارخة، قلت في نفسي.

ظلت الأعناق مشرئبة نحوها، إلى أن توقفت، فاهتزّ المكان بالتصفيق.

رمقت شكري يتسلل وسط الحشد مندفعاً نحوها، وقد علّق محفظته على كتفه، في حين كانت هي تنشر ابتساماتها على من أحاط بها من مريدين، أولئك الذين ما أن مقامه انتبهوا إلى قدوم شكري حتى أفسحوا له المجال ليصل إليها، مؤكدين بارتباكهم الأثير لديهم.

مستطيلة، بقيت في مكاني أرعى الوجوه والحركات، فدقَّقْتُ النظر في نوافذ كبيرة بصري ذات زجاج سماوي، تتدلى على حواشيها ستائر زاهية الألوان، ثم انسحب إلى جدار، زيّن بصور لمناظر بهية، وآخر طرّز بزخارف ونقوش ارتفعت إلى سقف الرّدهة، فتدلت ثريات ضخمة بمصابيح صغيرة نحيفة، صعب عليَّ عدّها.

لا، ليس هذا فندقاً كما قال شكري، بل هو قصرٌ خليفيٌّ بحق.

راقني أن أكون نكرة وسط هذا الحشد من الناس. فلا أحد تعرّفني أو انتبه إلى وجودي.

منها فكرت في القصائد الشعرية التي هزّت القاعة بالتصفيق، تلك التي لم ترقني

الشعر، قصيدة واحدة، ولا صدرٌ ولا عجزٌ. فقد كانت أقرب إلى الترسّل منها إلى الإيقاعية، غاب عنها الوزن، وغابت الموسيقى، فافتقر البيت الشعري إلى وحدته التّضمين، أو لعل شعراء وإلى استقلاله التام، وامتد إلى بيت لاحق، ربما هي تجهل عند الخليل هذا العصر تخلوا إرادياً عن نظام العروض كما كان.

تذكرت صديقي أبا نصر الجوهري، ومطارحاتنا الفكرية المستفيضة عن مؤلفيه عروض الورقة" و "كتاب الصحاح المعروف"، فلو كان حاضراً واستمع إلى هذه" حل بكتابيه القصائد، لأقام الدنيا ولم يقعدها، كان لا يجامل أحداً في العلم. تُرى ماذا أستفسر عن مصيرهما. فما دام التحفتين، أخلدا بعد وفاته أمْ أتلفا واندثرا؟ لابد لي أن هو الآخر قد عامله الزمن برفق، أثري قد امتد إلى هذا القرن، فلم لا يكون أثره فأوصله إلى هذا الوقت.

مددت يدي رداً على تحية عبد اللطيف، وقد فاجأني مبتهجاً مخاطباً:

ــ مرحبا بك أبا علي، أما زلت في طنجة يارجل؟

استولى على مقعد شكري بجواري، وجلس واضعاً رجلا فوق رجل، دون أن يكف الترحيب بشخصي، وإبداء رغبته لجلسة أخرى، كتلك التي ضمتنا في مطعم عن انتقل لسؤالي عن مدى إعجابي بقصائد الشاعرة "إخلاص ريتز. ثم".

قال عنها "إخلاص"، أحكمتُ حفظ اسمها في ذاكرتي، وحرَّكتُ رأسي دون أن اتلفَّظ بكلمة، فقد كانت تخطو في اتجاهنا.

في الآن ذاته حدستُ أن شكري قد حدّثها عنّي، وإلا ما كانت لتتقدمه في خط مستقيم نحوي.

وقفتُ ومددت لها يدي، فبادرتني بالقول:

ــ أعتز بحضورك يا أبا علي، إن العراق موطن الشعر الحق.

ثم التفتت نحو شكري، وأنهت ما كانا يتحدثان بشأنه:

ــ وهو كذلك، بعد ساعتين من الآن.

أن سارت بنا السيارة عبر الطريق الشاطئي، كان البحر المتوسط عن يميننا، توقعت تكون الشمس في هذه اللحظات قد جنحت إلى الغروب في الطرف الآخر من المدينة، حيث بحر الظلمات، تشرق من بحر وتغرب في بحر آخر، أسعدني تعرفي قاله ثوابتَ طنجة، وانعرجت بنا السيارة لتتوغل في بطن المدينة. أكد لي شكري ما

أمامنا لعبد اللطيف من أننا سنتعشى رفقة إخلاص بمطعم ريتز، وأخبرني بأن ساعتين كاملتين للفسحة.

كانت العتمة في بداية إطلالتها الأولى، فسطعت أنوار الطرق والمتاجر معجلة على قارعة بانهزام النهار. بشر مثل تجمعات نمل فَرَّ من ثُقْبِ الأرض، وانتشر يدبُّ الطريق. رجال ونسوة وفتيان وصبايا يتسكعون في أمن وسلام.

أخبرت شكري بأن حركة الرجال في العراق تتوقف عند صلاة المغرب، وقد تمتد في بيوتهم إلى وقت صلاة العشاء.

ثم سألته:

ــ أتوجد في عراق اليوم كهرباء، مثل هذه الموجودة في طنجة؟

وحين عاد لضحكته الساخرة، توقعت للتو ما سيقوله.

ــ يكاد العالم اليوم يبدو كله متشابها.

اليوم أسعدني جوابه، سرحت أتخيل ليالي بغداد، تلك الموغلة في الماضي، وحالها ربما فوق مأنوسة بأضواء تسْطع من نوافذ الدور ودكاكين التجار، وتلك المبثوثة صفحات حواشي الطريق، أو أركان الحارات. فكرت في زخم ما سوَّدْته يدي من لو بيضاء، مسترشداً بضوء شمعة بعد شمعة، أو بقنديل هزيل يكاد يضيء نفسه. بغداد اليوم كان لي مثل إنارة اليوم، لكنت قد ألَّفت أضعافَ ما ألّفت من كتب. إنَّ المتراكمة في مثل طنجة إذن، تمرق بها سيارات، وتضيئها كهرباء، ولعل الأتربة بعد أن عُبِّدت كل مكان، وعواصف الغبار المنتشرة كالضباب، اختفت كلّها اليوم الشوارع سافرة الطرق وأضيئت، وتخلَّت المرأة عن الخمار والبرقع، وغدت تجوب الوجه، عارية الرأس، كحال شقيقتها في طنجة.

إلى عالم إذا كان الحال كذلك، فلا داعي لأن أعدّ نفسي منزوعاً من عالم ومقذوفاً بي العراق، يتعاملون آخر. الآن فقط أتأكد من أن المغاربة حين يتعرفوني أديباً وافدا من زمان معي كرجل انتقل من مكان إلى مكان، وليس من زمان إلى زمان.

حين نطق شكري جملته، انتفضت في مقعدي وأنا أحسبه قد قرأ ما يموج في خاطري، إذ قال لي:

ــ القادم من الزمان ليس كالقادم من المكان، شتان ما بينهما من بون.

بعد ذلك انتبهت إلى أنه التقط جملتي حين جهر بها لساني دون إرادتي، وأضاف:

تافه ــ كل مخلوقات الله تسافر في المكان، من سلع وبضائع وأجساد آدمية. إنه سفر إحساسك ساذج، فالسفر في الزمّان هو الإشكال الحق المحيّر، حبذا لو كشفت لي عن الحقّ بهذا الانتقال.

أجبته وكأني أحدث نفسي:

ــ الزمان المتعدّد شرّ متعدّد.

فأسرع يقول في عجلة من أمره:

ــ أرجوك أبا حيان، لا تُعِدْ قول هذه الكلمة، إني أخشى عليك من نفسك.

(22)

اعتدل في مقعده وأشعل سيجارته، وأضاف:

ــ لكي يكون الرجل سوياً، عليه أن يتقبل واقعه، بعواهنه وتقلباته، إن خيراً فمرحبا، وإن شراً فمرحبا أيضا.

ــ قول جميل، لكنه يظل قولا على كل حال.

ــ إنه عصارة تجربة قاسية، ففي شبابي الأول، تعرضت لهزة نفسية بسبب رفضي لواقعي، وكانت النتيجة أنّني عثرت على نفسي مطوحاً بي فوق أحد أسرة مستشفى للأمراض العقلية في قرية مهجورة.

ــ تقول في شبابك الأول، ألك شباب ثان؟

أجابني بغضب حاد:

ــ دعني يا أخي أنهي حديثي، لا تقاطعني، إنك لا تدري إلى أين أريد الوصول، الثاني، ولْأُجِبْ أولا عن سؤالك المقحم في حديثي، بأني أسمّي الكهولة بالشباب اعتراض؟ والشيخوخة بالشباب الثالث، إن لي مسمياتي الخاصة بي، فهل لديك

ضحكت وأنا أتظاهر بالإصغاء إليه، فأضاف:

ــ مكثت بالمستشفى زهاء عامين، ولعلني اهتديت إلى علاج نفسي بنفسي، إذ أراوغ واقعي، أوهم نفسي بتقبله، أخلق عوالم خاصة بي، وأسكبها في متون صرت سردية، وبعبارة أدق، صارت الكتابة ملجئي ودوائي، بعد ذلك تحولت لدي إلى احتجاج.

وكأنه استدرك فكرة كادت تضيع، فأضاف:

ليس هذا مهماً، ذلك أن ما كنت أهدف إليه، حين قلت لك بأني أخشى عليك من نفسك، هو أن أخبرك بقصة أهل الكهف، وهي قصة لم تشغلني حين قرأتها لأول لكنني بعد تلك الليلة في شاطئ المحيط عادت تطرق رأسي وتستبد بتفكيري مرة،.

ــ وهل لي علاقة بهذه القصة؟

أجل، لك علاقة بها، بل إنك أحد أبطالها الحقيقيين.

كان يتحدث بثقة وصدق بالغين، مما ولّد في نفسي فزعاً لم أقو على إخفائه.

وسألته:

ــ كيف ذلك؟!

حكائي ــ القصة استوحاها صاحبها من آية قرآنية لا أحفظها، لكنه صاغها في قالب الكهوف شيّق، وملخصها أن أربعة أشخاص وخامسهم كلبهم، لبثوا نياماً في أحد العالم قد تغير المهجورة، مدة ثلاثمائة عام أو أكثر، وحين استعادوا حياتهم، وجدوا استقبلوا بها كقديسين، عمّا كان عليه في زمانهم، وبالرغم من الحفاوة البالغة التي فرجعوا إلى الكهف، وقضوا فإن صدمة الزمان الجديد، كانت أقوى على نفوسهم، به.

إن الآية القرآنية لا تتحدث عن وفاتهم، لكن الكاتب، ليكشف عن رؤيته لإشكال يفضلون الانتقال في الزمان، وليمنح حكايته بعدا مأسوياً، جعل الرجال الأربعة الموت على العيش في زمان غير زمانهم.

سكت ينتظر رد فعلي، لكنني لم أجبه، فقد سرحت أستحضر الآية القرآنية بكاملها في ذهني، وأنا في أقصى وله من يُنتزع منه اهتمامه ودهشته، ثم أضاف:

ــ تلك وجهة نظر كاتب الرواية، وذاك رأيه، أما أنا فأخالفه وجهة النظر والرأي، لأيام أعيشها في بل إنّني مستعد أن أتنازل عمّا تبقى من شبابي الثاني والثالث ثمنا لأفتح عيني أجد نفسي زمان لاحق، أنام مِلْءَ جفوني عن شوارد هذه الحياة، وحين لأصحاب الكهف، في صحوة عصر آخر، مثلما حدث لك يا أبا حيان، ومثلما وقع الرواية تسميتهم، مارنوش ومشيلينيا ويمليخا والكلب قطمير. هكذا ارتأى صاحب العيش في زمان مثلما ارتأى أن يرفضوا العيش في غير زمانهم. أجل، قد أرفض ستكون عليه الدنيا ولو ولّى بعد أن تعرّفت مستجدات هذا العصر، لكن، أن أرى ما ولعلّك تقر بأن لكل منّا تمنياته بعد قرن واحد، فذلك أَحَدُ تمنياتي المستحيلة،

بمقابلة "نهاوند"، أليس كذلك؟ المستحيلة، أو لنقل أحلام يقظته. إنك تحلم بكل تأكيد ــ!

أجبته، فضحك، وأضاف بين الساخر والواثق مما يقول:

إنها أمنيتك المستحيلة ــ.

إنها خفتُ أن يسخر مني لو صارحته بأني أعيش لأقابلها، فلذتُ بالصمت، لكن قوله، كأحد رجال أمنيتك المستحيلة، أربك مخي، حَدَّ أني تمنيت لو كنت مخلوقا وهميا فتأكد لي أهل الكهف الذين حدثني عنهم، واستحضرت الآية القرآنية مرة أخرى، سيقولون ثلاثةٌ " :حقيقة وجودهم، لكن الآية لم تحدد عددهم ولم تشر إلى هلاكهم ويقولون سبعةٌ وثامنُهم رابعُهم كلبهم، ويقولون خمسةٌ سادسهم كلبهم رجما بالغيب، صدق الله العظيم ."كلبهم، قل ربي أعلم بعدَّتهم ما يعلمُهم إلا قليل.

لمعضلة أراحت الآية نفسي، فشتّان ما بينها وبين شطحات كاتب الرواية، حقا، إنها ليس به أحبّاء أن يجد المرء نفسه وبدون سابق إنذار، في عالم لم يتوقعه ولم يألفه، أحيانا، لكن الحنين نفسه ولاخلان ولا أعداء. فحتى الأعداء قد يحنّ الغريب إليهم البعيد، فيحل اليأس بدله، وأي يتلاشى أمام الهوة الزمنية التي تفصلنا عن ماضينا حنين يتبقى بعد موت الأمل؟

قد يحسب المرء باستحضاره مخلوقات تفصلها عنه قرون، أنه يحن إليها، لكنه في حقيقة الأمر لا يحن إلا إلى نفسه من خلالها، هذه تجربة شخصية أعيشها، ثم البعيد تذكرت "نهاوند" فسرت في بدني رعشة حنين إليها، مع أنها ابنة ذلك الزمان عن ذاتي؟ الذي تفصلني عنه قرون. ولكن، هل سأحن إليها إن أنا فكرت فيها بمعزل خفت أن يقطع شكري حبل تفكيري، فتظاهرت بمشاهدة معالم المدينة من خلال نافذة السيارة وهي تسير ببطء، لكنني لم أشاهد شيئا، فقد بقيت مكتفيا بما يستحضره خيط ما ذهني. فكرت في حنيني إلى "نهاوند"، أَهُوَ حنين صادق حقيقي، أم إن مرده العراق باق، تبقى لي من أمل في لقياها؟ ذلك أنها باقية في مكان ما، مثل ما هو يوجد في وشيراز وفاس، فلعل السبب أن ما يوجد في المكان أبقى وأرسخ مما الزمان.

الزمان إذن هو المعضلة، لكن ليس إلى حد تفضيل الموت على الحياة، كما جاء في الجنة إلى رواية أهل الكهف المتخيلة، وإلا، لكان آدم قد انتحر حين انتقل من زمن

فهل زمن الأرض، ولكان الشيطان قد حذا حذوه. ولأظل في تجربتي الشخصية، انتقالي من زمن إلى زمن سيجعلني أفضل الموت؟

كان على شكري أن يعيدني إلى واقعي العيني:

ــ ألا تريد النزول، فقد وصلنا؟

لم أعرف كيف توقفت السيارة، ترجلت منها وأنا أحاول أن أبدو ثابتاً محافظا على همّتي واتزاني، فأنا عالم منطقي.

كان الليل مُسجًّى يفوح فيه نسيمُ بحري عليل. بادرت شكري:

ــ يسكنني صفاء ذهني خارق، إني لقادر في هذه اللحظة أن أكتب مؤلفا كاملا ولوج ــ لتكتبه بعد أن تعود إلى إقامتك، أما الآن فدعني أخبرك بأننا مقبلون على تديره "باراد"، أجمل مطعم وأروع حان في طنجة، إن لم أقل في المغرب كله، زمرة أصدقائها وارثته "ليليان"، سيدة أمريكية مؤهلة لتكون بطلة لرواية باذخة، نحن ندعوها "ليلي" تصغيرا وتجمّلا.

دفع الباب بيده وفسح لي المجال لأتقدمه. فوجئت بحديقة تظللها أشجار باسقة، ويفرشها سجّاد من عشب أخضر، وموائد بِشَرَجٍ قصيرة تضيء نفسها لا أكثر، بألوان وعلى اليسار بعد صعود درجين، رُصَّتْ موائد أخرى، وطوار وأضواء تتلألأ مقعدا قوس قزح، دعاني إلى حيث الطوار الخشبي الناعم، وطلب مني أن أعتلي للجلوس، بدون متكإ الظهر، وتسلق آخر مثلي.

جاءت "ليلي" مبتسمة ضاحكة، مدّت لي يدها فصافحتها، أما هو، فانحنى على لا أصابعها يقبّلها بلطف مبالغ فيه، وكأنه ولَدٌ مطيع، ودخل معها في حوار بلغط أعرفه.

وبعد أن انسحبت قال لي:

رشاقتها ــ ليلي جاوزت العقد السادس، لكنها تبدو في شبابها الثاني، تحافظ على خليلة لثري بالحركة وعزف البيانو ودرء كل ما قد يربك مزاجها. بدأت حياتها الحياة، أمريكي، فانتهت علاقتها غير الشرعية بعلاقة شرعية، تزوجها وفارق البقاء في طنجة فورثت عنه هذا المطعم وعقارات وأموالاً في أمريكا، لكنها فضلت.

ونادى عليها يطلب شيئا، فجاءته بكتاب أنيق، تناوله وقال لي:

لفنانين، ــ إنه دفتر ضخم للذكرى أعدته "ليلي" لزوارها الكبار، توجد به رسومات

مروا بهذا المطعم، وكلمات لسينمائيين وكتَّابٍ وشخصيات من العيار الثقيل، جميعهم لماذا لا تخط به أنت كذلك كلمات، وتوقعها باسمك الحقيقي؟

ــ وماذا عساني أكتب؟

أخذ يضحك حتى كاد أن يسقط أرضاً، وطلب كأساً إضافية لنفسه، وقال دون أن يكف عن الضحك:

ــ أُكتب يا أخي آية الكرسي.

ــ ولماذا آية الكرسي؟

أجابني وهو يواصل ضحكه:

ــ حتى تحجبها الآية من كل سوء.

عرفت أنه يمزح، فضحكت بدوري، وقلت:

ــ بما أنها ليست مسلمة، فسأدع أمر الكتابة لفقيه نصراني، أو لملحد إن كانت ملحدة.

وضحكنا معاً.

أقرُّ بأني أعجبت بتلقائية شكري، فهو يرفع الكلفة من أول لقاء، ويقحم الهزل في وقته المناسب متى أحس برتوب الكلام الجاد.

وقبل أن يطول صمتنا، قال لي:

ــ لم أزر "ليلي" منذ أسبوع كامل، وقد اعتدت أن أمر بها آخر الليل لأتناول آخر كأس، أسميه عكاز الطريق.

(23)

إلى مطعم ريتز، أخبرني شكري ونحن نهم بمغادرة مطعم باراد، بأننا سنذهب مشياً وأنا إخال نفسي أسير حيث الأصدقاء في انتظارنا، هلَّلْتُ لهذا الخبر بفرح طفولي، يطل، فما إن انحدرنا في الهوينى مكتشفا أزقة وحواري مدينة طنجة. لكن فرحي لم نصير، حتى وجدنا مطعم شارع ولي العهد، ثم عرجنا يساراً على شارع موسى بن ريتز عن يميننا بالمرصاد.

قبل أن ندخل المطعم، همس لي شكري:

ــ لا تلتفت خلفك، فحراسك على خطوات منا!

ـــ هم يعلمون إذن بمعاقرتك الخمر، وقد يبلِّغون عنك.

سألته، فدعاني إلى الدخول، وقال لي بصوت خفيض:

ـــ لا تكترث لذلك، فلن يجرؤ أحد منهم على حشر أنفه فيما لا يعنيه.

لكن مزاجي تعكّر.

كانت الجماعة جالسة حول مائدة عن يسار مدخل المطعم، في الركن الخاص إخلاص وعبد اللطيف ورجلان لا أعرفهما، حاولت أن أدرأ عني الغمّ، بشكري، بداخلي قول امرئ القيس: اليومَ خمرٌ وغداً أمرُ فردَّدْتُ.

ودعاني أسرع القيم على المطعم الشاب حافظ، يسعفنا بمائدة، فيما جرَّ شكري مقعداً لتصبحا واحدة إلى الجلوس، وجاء بآخر لنفسه قبل أن ينهي حافظ ترتيب المائدتين، ملأ شكري أقداحاً مستثنياً كأسي وكأس إخلاص وكأس عبد الإله، وعرفت أن الرجل أصغر الآخر اسمه حسن، دقيق الملامح، أبيض البشرة، نحيف، مستقيم الأنف، بَدَا أعمارنا الحاضرين سنا، لكن عبد الإله هو الآخر أقرب إلى عمر حسن منه إلى.

سألني عبد اللطيف عن أحوال الحرب في العراق، فتصدّى له شكري معلناً رفض سماع أخبار الحرب.

كانت إخلاص تجلس قبالتي، أسعدني وجودها بيننا، كيف لا، وأنا الظمآن لأنثى تروي عجاف سنواتي الهاربة مني، لكن همتي وحيائي جعلاني أتحاشى النظر إليها، تحقيق بل تعمّدتُ أن لا أجعل نظراتنا تتقابل، إنما رويدا رويداً، صرت أجرؤ على السلطة، وإنما رغباتي الدفينة، وذلك بالتنعم فيها، ليس بوقاحة حاشية الخلفاء ورجال أو سانحة محمودة، بوقار العلماء وعفَّتهم حين يسترقون النظر كلما وجدوا غفلة، له في مخيلتي ما هكذا كنت، أختزل في نظرة عابرة، ما يقع عليه بصري، فأفرد تصبو إليه نفسي.

المرأة شابة، ذات بياض ناصع، يميل إلى شقرة في لون سماء الغروب، كل شيء تنطق به، فيها يشدك إليها، ما ظهر بدواخلها وما خَفِيَ، فهي تتجمّل في القليل مما وإنما تنظم تنتقي كلماتها وتصوغها في تعابير مستحدثة جميلة، وكأنها لا تتحدث، نثراً فنياً.

بدت بهمتها وكبريائها وأنفها القصير أميرة بيزنطية بحق.

كيف السبيل لأن أضمها إلى متاعي زوجاً على سنة المصطفى، لكن من أين لي

بعلاً لها؟ بمهرها؟ أيقبل معالي وزير العدل بأداء قيمة الصداق؟ وقبل ذلك، أتقبلني أزلتها، فكرت في شخصي، وفي عمامتي التي تخليت عنها، وفي لحيتي التي شبابي وشكرتُ لهؤلاء المغاربة بدعهم، فبفضلهم انتقص عمري ضعفه، لأصير في الثاني، كما يقول شكري!

غابت عني مواضيع أحاديثهم، لكن بعد أن أخرج عبد الإله من محفظته ورقة وأخذ يقرأ مابها، ركّزْتُ انتباهي لسماعه:

سَمَاوِيٍّ/ يُرَطِّبُ/ أنا المصْنُوعُ/ من تَبْغِي الرَّخِيصِ/ وقَهْوَتي المُرّةْ/ ومِنْ ماءٍ نَفْسَها/ الشُّهْرَةْ صَرْخَتِي الحُرَّةْ/ ولا أحتاجُ مقبرةً/ تُسَمِّي!!

ما إن توقّف، حتى ارتفعت حناجرهم إعجاباً، وكأن ما استمعوا له يعد شعراً خالصاً: استرقت أذني حديث عبد اللطيف حين سأل عبد الإله إن كانت القصيدة لإخلاص، فأخبره بأنها لشاعر مشرقي لا يقل سموقا عن إخلاص.

مشرقٌ يقولون عن هذا الكلام إنه سموقٌ شعريٌّ، وينسبونه إلى المشرق، هل هناك سيطوله عربيٌّ آخر لا أعرفه؟! ركبتني الحيرة، فما كنت أظن أن ديوان العرب والتنبؤ التغيير هو أيضا، فيقع التخلي عن خاصية الشعر الرائعة، وعن الحكم العروض، والتأمل وكشف أسرار الحياة، وعن مراعاة الوزن والقافية وقواعد ووجدت نفسي أسأل عبد الإله:

ــ هل ما قرأْتَهُ يصنّف ضمن الشعر العربي؟

استقبل سؤالي بامتعاض، وكأني ألقمته حنظلا، ثم نظر إلى عبد اللطيف وإلى إخلاص، نظرة من يستشهد بأحدهما، وأجابني بكل وثوق:

ــ إن ما أنشدتُه يُعَدُّ من أجود الشعر العربي!

إن الانسحاب من مجلسهم أخف على نفسي من سماع هذه الترهات، فقد صدمني في الوهلة ذاتها، انتبهت إلى شكري الذي أشار عليَّ بالصبر، من أين لي .جوابه بالصّبر وكلامهم مطرقة تدق رأسي. فكرت في أن أدلي بوجهة نظري، لكن الشك حاصرني، إذ خفت أن يكون عامل الزمن قد وَجَّهَ الشعرَ وجهة أخرى تغيب عني، فيبدو حديثي في نظرهم على قدر كبير من السخف. لكن بالرغم من ذلك، لم أقو على الصبر، فقررت مجابهتهم باحتراس، كأن أَستدرجهم إلى أن أقف على ما أمسى عليه الشعر في زمانهم، ووجهت سؤالي إلى عبد اللطيف:

ــ هل تذكِّر ني بما طرأ على الشعر العربي حتى أصبح على ما هو عليه في وقتنا هذا؟

جميعا، كنت أظن أن عبد اللطيف وحده استمع إلى سؤالي، فتبيّن لي أن الأمر يعنيهم إذ لاذوا بالصمت، وظلوا في حالة ترقب لما سيجيب به الرجل:

مصطلح ــ أنت تعلم يا أبا علي بأن إخواننا في العراق، كانوا سباقين إلى إطلاق الشعر الحر، أي تحرر الشعر من القيود القديمة كنظام الشطرين والوزن والقافية. الواقع، ومن غير وقد وُفِّقوا في هذه الريادة، ذلك أن للشعر قيمة عليا ترتفع عن تحول. إن كل تجربة المعقول أن يظل حبيس ستة عشر بحراً، مكرراً نفسه، دون أي من بحور الشعر، لذلك كان إنسانية، بما تحمله من آمال ومعاناة وآلام، تمثل بحراً عليه أن ينفتح على جميع بحور الحياة.

رشف من كأسه وأضاف:

فثمّة الشعر. ــ إنّ الشاعرية موجودة حتى في النثر، فأينما وُجِدَ الإيقاع في الكتابة ترى معي أنها مرهقة، فلماذا نقيده بالبحور! ولنأخذ على سبيل المثال القافية. ألا والانفعال وغيرهما؟ تجعل الشاعر يضيع في البحث عنها على حساب المعنى هو يتحدث وأنا ألعن في سرِّي بني قومي العراقيين، مبدعي مصطلح الشعر الحر، الاجتماعية، ليتهم كانوا قد سَخَّروا طاقاتهم لمحاربة الطغيان والاستبداد والفوارق وتركوا الشعر لشأنه.

الشعر وتذكرت ما قالته إخلاص في أول لقاء بها هذا العشي، مِنْ أن العراق بلد أسألها الحق، فأيّ شعر حق كانت تقصد، القديم أم هذا الحر؟ ووجدت نفسي:

ــ سيدتي إخلاص، أتتفقين مع ما ذهب إليه عبد اللطيف؟

رسمت على محياها ابتسامة خجل، وصمتت للحظة كأنها تدعو الحضور لسماعها، أو لعلها كانت ترتّبُ أفكارها، وقالت:

والإنجاب، ــ تلك حقيقة، فمثلما تحررت المرأة من وظائفها القديمة، كخدمة الرجل والقافية، فقد كذلك تحرر الشعر الحديث من وظائفه القديمة، ومن العمود والوزن فاقترب بذلك من الشعر تخلّى الشاعر المعاصر عن العِمامة والعقال وركوب الفرس، السيارة والطائرة. لقد أصبح العالمي، وصار يرتدي البذلة وربطة العنق، ويركب ذلك أن الحضارة المدنية الصناعيّة. يكتشف الآفاق، ولم يعد مجرد معبر، وإنما خالقٌ

حلَّت محل الحضارة الزراعية الرتيبة.

كنت أحس بكل كلمة تصدر عنها خنجراً يُغرز في صدري. فلو كانت تعاقر الخمر يصدر لحسبت كلامها هذياناً، لكنها وهي تتحدث بثبات الرجل الفحل، المُقَدِّر لما في الأدب، عنه، جعلتني أرتاب في الأمر، ربما لم يعد الشعر يحتلُّ مكان الصدارة طيلة كعهدي به في زماني، قلت في نفسي. وتذكرت كيف أن الأدب ظل منظوماً الأدب، لكن ذلك التاريخ، إلى نهاية القرن الثاني، ليستقل الشعر بنفسه معتليا صدارة أعلن عنه بشار حدث منذ اثني عشر قرناً. ثم تذكرت مصطلح الشعر المحدث الذي إنه زمن طويل، كاف !بن برد وأبو نواس وأبو تمام في أيامي البغدادية، يا إلهي بحوره لظهور الشعر الحر وغيره، إنما ليس إلى حد التخلي عن.

مناقشتهم في لمح البصر، تناسلت هذه الأفكار في ذهني، لأزداد اقتناعاً بعدم جدوى سيظل الشعر ذو في أمور استحدثت في غيابي، ذاك دَيْدَنُهُمْ وهذا ديدني. لكنْ، الخلق، والأوفى الأوزان الشطرية، في ملتي واعتقادي، هو الشعر الحق الأبلغ في وربطات أعناقها في التعبير عن حياتهم الجديدة نفسها، بسياراتها وطائراتها.

وانتشلني شكري من حواري مع نفسي، ليرفع الغم عن صدري بقوله:

ــ الشعر الحر صرعة عصرية عابرة لن تطول.

والتفت نحوي مبتسماً وكأنه ينبهني إلى عدم تسليمي بآرائهم، وبعد أن أوقد لفافته، تابع قوله:

دائم ــ جمهور تيار الشعر الحر قليل جدا، مقارنة بعشاق الشعر القديم، لذلك فأنا التساؤل عما سيكون عليه حال الأغنية إن فقدت القصيدة وزنها وقافيتها.

سكت وظل محدقاً في شخصي، فوصلت إليّ رسالته البليغة الصامتة، لتغمرني عارمة، زادت نفسي حباً وتقرباً من هذا الصديق، وأحسست بشهيتي تنفتح بنشوة للكلام. فبعد أن علمت بعمر مصطلح الشعر الحر، وبأن جمهوره قليل، شعرت بأني أقف فوق أرض صلبة، وبأني هناك، وارتأيت أن أبدأ حديثي من حيث توقف فقلت متوجها بكلامي إلى عبد اللطيف .شكري:

تستقيم إلا ــ الغناء حُلَّةُ الشعر، إن لم يلبسها طُويتْ. ذلك أن الألحان لا تتهيأ ولا على شعر منظوم موزون مقفى، فلا يعقل أن نتغنى بكلام منثور.

ألقيت في جوفي كأس ماء، وتوجهت إلى عبد اللطيف متابعا قولي:

الواقع. ألم لم أفهم في الحقيقة ما قصدته من قولك إنَّ الشعر قيمة عليا ترتفع عن لعلك تقصد خوض يكن الشعر مرتفعاً محتلاً صدارة الآداب منذ العصر الجاهلي؟ أم إذا كان الأمر كذلك، الشعر في العوالم المثالية، وتخليه عن هموم وانشغالات الناس؟ ترى في هذا إفراغاً للشّعر من فأية قيمة ستظل للشعر إن تخلّى عن هموم العباد؟ ألا لتتخلوا عنها طمعاً في بحور أخرى معناه الحقيقي؟ ثم كيف ضاقت بكم بحور الشعر البحور نفسها التي نظم بها القدماء في كل مغايرة للعلم والمنطق؟ أليست تلك هي والحب والعداء والهجاء، وهي مجالات تستغرق مجالات الحياة، من السلم والحرب حياتنا إلى يومنا هذا؟

تجود ثم إن الاعتقاد والنوايا واللباس والمطايا، لا علاقة لها بشيطان الشعر، فقد .طائرة قريحة ممتطي جمل أو معتمر عمامة، بما لا تجود به قريحة راكب سيارة أو .ظلت نظراتهم مصوبة نحوي في ذهول

(24)

سيبويه، كانت عادتي، ألا أتحدث العربية الفصحى إلا حين أكون رفقة صديقي والبلاغة، رحمة الله عليه، وربما تكرر ذلك مع غيره من علماء النحو والمنطق أشنف أسماعهم رحمة الله عليهم جميعهم، لكنني مع هؤلاء المغاربة، فطنت إلى أنني العراق. فحرست ألا حين أنطق العربية الفصحى بتنغمية الأعراب القحاح في بادية على وجدانهم، بل ومن أحيد عن هذا السبيل، وأنا أرى نفسي متمكنا من السيطرة .سحق بعض آرائهم في الشعر سحقاً

هكذا كانوا يصابون بالدهشة والخشوع، دون أن يقوى أحد منهم على قطع حبل تفكيري أو إرباكي بتدخل سمج ساذج، فاستمر حالي على هذا المنوال، وأنا أبسط .بنات أفكاري على طريقة مالك، إلى أن تم لي ما أردت

بعد أن توقفت بمحض إرادتي ورويت نفسي بماء زلال بارد، داهمتني إخلاص :بصوتها الأنثوي الخجول

ــ أعترف لك يا أبا علي، أنه لم يسبق لي أن قابلت أديباً له قوة بلاغتك أو سحر !حديثك

!أكملت جملتها وحملقت في وجهي كأنها ذكر وأنا أنثى

ثم واصلت تجملها بإيقاع مغربي متفرد، كان سمعي قد أخذ يألفه:

ــ إن كلامك مقنع، أقصد آراءك، فهي تنساب وكأنك تتلو من كتاب بين يديك، تراه ولا نراه.

فتدخل عبد اللطيف، مخاطباً جمعنا:

ــ تلك حقيقة، إن الصديق أبا علي لظاهرة، عند كل لقاء يجمعنا، نكتشف سحراً جديداً يخفيه عنا.

خفضت بصري دون إرادتي، ليس حياء من مديح عبد اللطيف، أبداً، بل ضعفاً أمام ليّنًا نظرات إخلاص، ذلكم طبعي منذ يفاعتي. قويا كنت بين الحكام والوزراء، وهشٌّا أني لم أمام الحريم. لكن مع إخلاص، شملني ضعف من نوع خاص، بالغ اللذة، حتى وهي رميم"، أجد سبيلا لمقاومته، فبقيت متقد الوجدان، "سبحان الذي يحيي العظام له، فكما أن لعلني رددت هذا في نفسي، وفكرت في أن الوجد لا عمر ولا إرادة هواه الصبيّ يتشبث بحاضنه حدّ العشق، يتشبث الشيخ بمن يسقط عليه!

لكن نهاوند كانت لي بالمرصاد، فقد أحسست بطيفها يحوم حولي، أنظر إلى إخلاص كثيرات، وأحيانا، فأراها نهاوند لحماً ودماً، لم يكن هذا جديداً، فقد تمثلتها في نساء حتى تحضر ما أن ينتعش وجداني ويتصابى فؤادي، فيرتعش من سحر امرأة امرأة ترومها نهاوند، كأنها ربة العشق، مالكة لزمام أمره، فتحول بيني وبين أية عاطفتي، ويكون لها ذلك.

بدونها؟ استغرقتني نهاوند وإخلاص على مقربة مني، أكان لا بد أن أرحل عن بغداد عشرة قرون؟ هب أننا هاجرنا معاً، هل كانت ستلبث معي في تلك المغارة الأندلسية!

العراق يرحمها الله ويدثرها برحمته الواسعة، إنها اليوم راقدة في قبر مجهول، في السوسي أكد أو في الأندلس أو في المغرب، من أدراني؟! أتذكر أن الساحر إبراهيم ولكن، على مسمعي أن سحره غير مخالف للشرع، سيحفظ جسدينا إلى أن نلتقي، كيف تشملني رقيته وحدي وتستثنى هي منها؟!

أحسست بصوت نذير خفي في داخلي يُسرّ لي، بأن نهاوند قد أصابها ما أصابني، وهي هائمة تبحث عني، فانتفضت للخبر إلى أن تصبَّبَ من جسدي عرق اخترق لباسي، إذن هي مثلي في العاجلة، في مكان ما تبحث عني. إن الأمر لا يجب أن يكون إلا كذلك.

يا إله السموات والأرض! كيف غابت عني هذه الحقيقة؟

سلمتُ بعودتي إلى الدنيا بعد عشرة قرون من غيابي، ونسيت عودتها؟! مع أني أين غاب أعطيتُ بخنقها لإبراهيم السوسي ليعد رقيته حتى تشملنا معاً، أنا ونهاوند!؟

المنطق الذي أتكئ عليه لينير طريقي؟ أين كان عقلي؟

أعادني صوت شكري إلى يقظتي يستفسرني عن دواعي هيامي، فأصابني الارتباك، ألمّ وسحبت نفساً عميقاُ، ثم أحطت كلتا يدي ببطني وتظاهرت وكأن مغصاً شديداً بي.

فكرت بأنه السبيل الوحيد لأبتعد عن مجلسهم، حتى أفكر في أمر نهاوند، فهي بكل تأكيد هائمة في مكان ما تخفي حقيقتها.

اقترحت إخلاص أن أتناول كوبا من الزعتر، مصدقة مرضي المفاجئ، فشرح لي بأن الزعتر نبات بري يغلى في إناء ماء ويشرب، وله مفعول السحر في شكري لكنني انتصبت على قدمي معلنا عودتي إلى الفندق الشفاء، .

ألقى شكري في جوفه بقية كأسه، ووقف إلى جانبي وهو يعلق محفظته الجلدية فوق كتفه، فاعتذرت لإخلاص حين أبدت استعدادها لمرافقتنا، ومددت لهم يدي، بي. فصافحتهم واحدا واحدا، ثم أعدتها لتمسك ببطني متظاهراً بالألم الذي استبدّ كذب أبيض، قلت في نفسي.

سرّني أن يتطوع شكري لمرافقتي دون أن أطلب منه ذلك، فقد كنت في حاجة إلى مؤنس أبوح له بسري، أتحدث إليه بصوت مرتفع عن مصيبتي، هذه المصيبة التي تكشفت لي من تحت طبقة الغبار في ذاكرتي المحيرة.

أنا كان عليّ أن أعلم قبل اليوم بأن الرقية التي أعدّها إبراهيم السوسي تشملنا لم أفكر سوى ونهاوند، وبأننا سنظل في العاجلة إلى أن نلتقي، لكنني من شدة أنانيتي في ذاتي.

ما أن غادرنا مطعم ريتز حتى أخبرت شكري بأني سليم معافى، وبأن مرضي مجرد تمويه لأطلعه على ما يشغلني.

لم يمهلني لأنهي حديثي، بل قاطعني ضاحكا:

ــ إنها أيضاً أبدت اهتمامها بشخصك!

ــ من تعني؟

!ــ إخلاص

!ــ يا لك من متسرع متهور، إن ما يشغلني هو نهاوند وليس إخلاص

أرخى أذنيه لسماعي بذهول، فانسابت مصيبتي على لساني إلى أن أتممت قص تفاصيلها.

ظل فترة من الزمن مأخوذاً، مُقَلِّباً الخبر في رأسه، وخاطبني:

ــ إنها قضية كبيرة، شائكة، تصلح لأن تكون مادة لرواية شائقة، إني أراها فوق مستوى تفكير الإنسان العادي.

صمت قليلا، وأضاف:

ــ من ذا الذي يصدق خبراً مثل هذا؟ جارية تبحث عنك منذ عشرة قرون!؟

أدار رأسه يميناً وشمالاً، وبعينه ارتياب، وكأنه يبحث عن فضوليٍّ أو متلصصٍ يسترق السمع إلينا قال لي:

!ــ إننا يا أبا حيان نتحدث وقوفاً في الشارع

!ــ وأين تريد أن نتحدث جالسين؟

ــ أقترح مطعم "بيرغولا" المواجه للبحر، ودعني أصارحك بأنني صرت في حاجة كأس إضافية تخصب مخي حتى يقوى على استيعاب هذا الخبر الجديد المحير إلى فبالكاد صدقت قصتك الغريبة، وها أنت تضيف إليها ما هو أغرب! إن هذا يذكرني بالقولة الإسبانية: "كنا أربعة عشر نفراً، فأضافت الجدة مولوداً آخر".

قذف بنا شارع موسى بن نصير، ليتلقفنا شارع آخر فسيح، قال عنه شكري:

ــ هذا شارع باستور.

ثم أخذ يلقي خطبة بعيدة عن موضوع قضيتنا.

ــ باستور، اسم مسيحي لطبيب عالم اكتشف دواء يشفي من داء كان فتاكا، وهو عشرات الاسم الأجنبي الوحيد الذي أبقى عليه مسؤولو مدينة طنجة، بعد أن استبدلوا أسماء الشوارع بأسماء عربية.

كدت أصارحه بعدم أهمية ما يقول، لكنني فكرت في أن تلك طبائع بعض البشر، يقحمون مواضع هامشية في قضايا مصيرية تشغلك، و تظاهرت بالإصغاء.

حديثه فاستأنف:

ــ ليتهم اكتفوا بشطب أسماء القادة العسكريين الأجانب، وأبقوا على أسماء العلماء

والمفكرين والفنانين الأجانب!

اللباقة تلزم سماعه ومسايرته، لكن شكري صديقي، فقلت له:

ــ لكن لماذا لم يختاروا منذ البداية أسماء عربية لشوارعهم؟!

ــ كانت طنجة مدينة دولية، أي تحت نفوذ الأجانب المسيحيين، وهؤلاء من أقاموا الشوارع وتولوا تسميتها، وبذلك، فإن تغيير تلك الأسماء من لدن المسؤولين تحريف وتزييف للحقيقة!

سكت قليلا وأضاف:

ــ ألم تطلعني يا أبا حيان على موعد كان لك مع نهاوند في جنة العريف بغرناطة؟

تنفست الصعداء، إذ أسعدني أن يعود بي إلى قضية نهاوند، فأسرعت بالقول:

ــ بلى، إنه لكذلك، فقد كنا على موعد في جنة العارف!

لكنه أجابني:

ــ هب أن اسم جنة العريف تغير إلى اسم آخر! فماذا سيكون موقفك؟ ألا ترى في الأندلس، هذا تغييراً للحقيقة؟ ولعلمك فإن الإسبانيين بعد أن أخرجوا المسلمين من نقوم نحن بتزييف أبقوا على بعض الأسماء العربية، حفظاً لذاكرة التاريخ، فلماذا التاريخ وإرباكه؟

كان عليَّ أن أشاركه موضوعه، رغم أنف مصيبتي، فقلت له:

ــ أوافقك على ما تقوله الآن، فتلك حقيقة كانت تغيب عني، وأتمنى أن تكون بغداد محتفظة بأسماء أحيائها ومعالمها القديمة!

كنا نسير في شارع طويل عريض بجوار البحر، مضاء بأعمدة نور لا تحصى، فقلت له:

ــ لنعد إلى واقعنا، في أي بلد يحتمل وجود نهاوند؟

أسرع في خطواته، وكأنه بذلك يطلب مني أن نؤجل الحديث إلى أن نصل المطعم.

(25)

فبدت لنا صالة سرنا صامتين إلى أن ولجنا مطعم "بيرغولا". صعدنا بضع درجات، رمال رحبة نصف مغطاة، ملأتها مقاعد وطاولات، وأشرفت على شاطئ ذي خاصة وقد بيضاء، امتد إلى أن انبطح لأمواج البحر. كان المشهد مثيراً لحواسي،

العجيبة، ليلة جعلت أشعة الإنارة ظلامه نهاراً مضاء جعلني أستحضر تلك الليلة ابنة "بهاء الدولة البويهي"، الاحتفالات بعرس الخليفة "القادر بالله"، حين تزوج سكينة دجلة، وأخرى تزيّن الحارات فقد كانت الأضواء تسطع من عشرات المراكب فوق بالألباب والأزقة، جاعلة ليل بغداد نهاراً بهيجاً يأخذ.

بدفء في تلك الليلة البغدادية المضاءة، وشهوتها تداعب عواطفي وتسربل أحاسيسي موقت جارية ترقب عودتي، بقيت ساهراً رفقة صديقي بديع الزمان الهمداني إلى نسيب آذان الفجر، كنا بحي الكرخ على ضفة دجلة، أنشده مما يستحضره ذهني من تتناقل وغزل القدماء، ويسمعني من أطايب مقاماته الجديدة، وحين نصمت للراحة، أن ينقطع إلى مسامعنا مواويل بدوية حزينة، تصدر من مركب على مسافة منا، دون الخليفة مغنين صدى لأهازيج غنائية يحملها نسيم النهر. كان عرسا بحق، استقدم له وقصر والد جواري وغلمانا من الهند وفارس ومصر، فتوزعوا بين قصر الخليفة العروس وقصور الوزراء ودور الحاشية وكبار رجال الشرطة.

حدث ذلك منذ حوالى عشرين عاماً أو أقل. أجل، أتذكر العام بالضبط، سنة ثلاثٍ وثمانين وثلاثمائة هجرية، ونحن الآن في عام ثلاثةٍ وعشرين وأربعمائة وألف، وأقول منذ حوالى عشرين عاماً! يا لسخرية القدر!؟ ورسى بصري في اتجاه واحد، ضيافتها على الميناء نفسه الذي استقبلني مهاجراً سرياً، تذكرت شرطة طنجة وكرم بواخر تغادر تلك الليلة، فقد كانت أتعس ليلة في حياتي. أصوات منفرة تصدرها مرمى حجر مني. الميناء وأخرى تحل في رحابه، لم أغظ طرفي عنه، فقد كان على المراكب إليه، أما الضوء ولعل الضوء البعيد هناك، كثير الغمز، أقيم عنوة ليرشد وزودت بمعلومات عنه في إقامة الآخر المقام للغاية نفسها، فقد سبق أن تعرفته إرسال برقه بين لحظة وأخرى السراب، إن مصدره محتجب عني، لكنه لا يكف عن.طوال الليل

لا أنكر نشوة التنعم في انعكاس إشارته الضوئية في السماء و على صفحة مياه لكنه البحر دون أن تخفت أنفاسه. لعله من أعجب اختراعات بني الإنسان وأغربها، يستحضره لم يشغلني عن التفكير في عرس الخليفة ولا في نهاوند، ولا شغلني عما فقد كنت مولعاً ذهني مما كان قد مرَّ بي أيام شبابي في شط مدينة المحمرة بفارس، ملتهباً ووديانا شاحبة بالمقارنة بين الصحراء والبحر. كنت أرى الصحراء عراء

الصغيرتين الحافيتين إلى أن يطاردها الجدب، فتذكرت الرمال الساخنة تحرق قدمي وجزره، وأستكمل من رأسي ينسلخ بعض جلدهما، وكنت أرقب البحر في مده والبصرة، فتصحبني في نومي، أساطير وأسرار سردها بحارون من مدينتي المحمرة تؤرقني أو توقظني مفزوعاً، مكسواً عرقا.

وبقيت على تلك الحال، إخال الصحراء صادمة، والبحر ملهم، إلى أن أوضح لي الزمان بأن كل ما يصدم يلهم، فتساوت لدي الصحراء بالبحر.

كدت أضيق بصمت شكري، فهو لا يفتح فمه إلا ليتجرع كأساته، مما جعلني أخرجه من صمته بسؤالي:

ــ إن نهاوند تبحث عني، فما السبيل لأعثر عنها أو لأجعلها تعثر عني؟!

نهش في شعر رأسه، وأجابني بصوت خفيض:

ــ ما دليلك أنها تبحث عنك؟

ثم إني أستند إلى قناعتي ولا تهمني قناعتك، هب يا رجل أن ما ــ دليلي بصيرتي، أقوله هو عين الواقع، وفكر معي في وسيلة توصلني إليها.

ــ لك ما تريد.

نطق كلمته بتكاسل، ودسّ في فيه سيجارة أوقدها بيدين مرتعشتين، وقال:

ــ إن أقصر السبل إلى نهاوند أن تعلن عن وجودك، أن تجعل الصحافة والإعلام يتحدثان عن انبعاثك بعد عشرة قرون من غيابك، والجملة الأصح، بعد عشرة قرون من موتك! ولربما قد تستمتع بلقاء السيدة نهاوند. لكن يقيناً سوف لن تستمتع بالجلسات الهادئة في الأماكن التي ارتدتها أو في تلك التي لم تتعرفها بعد!

أهرق كأسه في جوفه، وسافر ببصره بعيدا نحو البحر، ثم نحنح مهيئا صوته للحديث، وكأنه سيحسم الموضوع برأي لا يُردُّ له أمر، وقال واثقاً من نفسه:

ــ بإشهار وجودك، سيرتبك العالم كله. سيصبح خبرك حديث الناس في كل بقاع الأرض، شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، بين المصدق والمرتاب والنافي. سيسعى الرابع البشر إلى الظفر بمشاهدة هذا المخلوق العجيب الغريب القادم من القرن آلاف ساحراً أو الهجري. فئة منهم ستقول عنك المهدي المنتظر، وفئة أخرى ستعتبرك والفضوليون، إنها جنياً. سيتزاحم على رؤيتك الصحفيون والأدباء والسياسيون المجانين على اغتيالك، ضريبة الشهرة، أعني جزيتها. ومن يدري، فقد يجرأ أحد

لمجرد الحسد، أو ليشاركك شهرتك.

قاطعته:

ــ ألهذا الحد وصلت أهميتي!؟

ــ أجل إلى هذا الحد! بل إلى أبعد مما تتوقع! فإذا كنت أنا محمد شكري، الرجل البسيط، كتبت مجرد كلام جريء عن مسير حياتي، وعن وجوه صرفها القدر في طريقي، أتعرض لمضايقات مزعجة، من لدن الخاصة والعامة، فما بالك بأبي حيان التوحيدي، مبدع أمهات الكتب في الفكر والمنطق والفلسفة؟ وأكثر من ذلك، فإن وجودك، الحياة استعادته من بعد موته بعشرة قرون!؟ إني لا أرى فائدة في إشهار وإلقاء نفسك في مكاره من أجل امرأة جارية عشقتها!

لم أطق سمع بقية خطابه، فعجلت بالرد عليه:

ــ لتصمت يا شكري غفر الله لك. إن ما تقوله قد يوافقك عليه رجل من العامة، الدنيا تطغى ذاته على ما عداها، أما أنا أبو حيان التوحيدي، لن أخلع نهاوند بمباهج يرجى من وكنوزها، إني استرخص كل مخلوق لا يخفق قلبه بالحب، ولا أرى نفعاً قطعاً لم رجل يصدُّ محبوبه لقاء كسب مادي، فأحرى مخافة الشهرة والعزلة! إنك تُكتو بنار العشق، ولا ذقت طعم خمرته!؟

اعتدل في مقعده، واشرع عينيه وكأن كلامي أفاقه من غيبوبة طويلة، وخاطبني:

ــ أكاد لا أصدق ما تسمعه أذني! أبو حيان صاحب الإشارات الإلهية، المتخذ من التصوف قضيته الكبرى، تحوّله جارية إلى عاشق مستهام، تنزع عنه بردى الورع والتقوى، وتلبسه عباءة قيس بن معمر.

ضرب كفّا بكفّ وهو يتأملني، وتابع خطابه:

عشق ــ إنك أيها الفقيه السلفي كنت متسقاً مع نفسك في بغداد، حين لم تذكر كلمة واحدة في جميع مؤلفاتك، ولا أشرت إلى أية امرأة في جميع ما كتبت. واليوم في طنجة، تضع نهاوند في كف وما عداها في كف أخرى، تعلن استرخاصك لكل مخلوق لا يخفق قلبه بحب امرأة. المحيّر، أنك عالم، فقيه، متصوف! يا لسخرية القدر! أنا حقا لا أفهمك!

ابتسمت استخفافاً برأيه، وأوجزت جوابي في جمل مبتورة:

ــ ما تبرمت من الورع والتقوى، ولا قايضت ديني بأية امرأة. فأنا الشخص ذاته

بماضيه في بغداد و بحاضره في طنجة. ما حدث هو أنني أبحث عن امرأة سكنتني، مسلم جزما مني بأني أيضاً سكنتها. فأنا مخلوق بشر قبل أن أحمل باقي الصفات، أنا وإذا كنت يا شكري. أعمل لدنياي كأني أعيش أبدا وأعمل لآخرتي كأني أموت غدا، لا يتعدى تراني قد عدت للبحث عنها بعد فراق دام عشرة قرون، فذلك بالنسبة لي التدوين بضعة أشهر، هي ما استغرقه سفري من بغداد إلى طنجة، أما عزوفي عن معاشرة المرأة عنها أو عن أية امرأة غيرها فلا يدعو إلى أي استغراب، ذلك أن ثرثرة منفرة، غير واقع عيني بديهي، وتدوين البداهات لدى العلماء والفقهاء بقلبها لا يضيف إلى مستحبة. فأن يخفق قلب الرجل بحب امرأة أو يشقى للظفر الواضحات من المفتضحات. ولعلك الكتابة الأدبية أو الفلسفية قيمة جديدة، فتفسير من أن جنس الشعر وحده ما يستوجب تذكر ما أعلنته في حضرة الوكيل العام للملك تخصيصه للنظم عن المرأة.

قاطعني هازئاً:

ــ وجهة نظرك قديمة، بالية، مضحكة، ربما كانت مقبولة قبل عشرة قرون، أما في يحق عصرنا هذا فلم يعد هناك ما يحدّ من حرية الكتابة. فمثلما يحق لنا أن نتحدث عادت قيمتها لنا أن نكتب. ثم إن المواضيع الأدبية عموما، نثراً كانت أم شعرا، ما الجوهر، ولربما في جوهرها، وإنما في كيفية تناولها، أي صار الشكل مرجحاً على واحداً، يطلق عليه الكتابة لهذا السبب تداخلت الأنواع الأدبية وتمازجت لتصبح نوعا ذات الشكل الجديد.

انتفضت في وجهه:

ــ يستحيل أن أقبل بهرطقة كلامية كهذه، تمزج الشعر بالنثر كمن يمزج القمح بالشعير، تتذوق الشكل قبل الجوهر! ما سمعت عن أحد أطربه شكل قصيدة قبل جوهرها! إنكم باجتهادكم هذا تقدمون العربة على الحصان.

أخذ يضحك وقاطعني:

ــ إنك لم تدعني أنهي حديثي يا أبا حيان. طيب، لأزودنك علما بأن الشكل أصبح هناك، دون أن يظل مقتصراً على المجال الأدبي، بل امتد ليشمل أنواع المعرفة كلها. صار سمة مهيمنة على جميع أمور حياة هذا العصر، حتى العدل لم ينج منه، تصور العدل! وعلى سبيل المثال، إذا أقدمت على بسط تظلمك على القضاء، يلزمك

وجوبا اعتماد شكلٍ محددٍ حصراً تحت طائلة بطلان حقك، فقاضي هذا العصر صار مثل الناقد الأدبي، يقوّم الشكل قبل الحق، وكم من حق ضاع بسبب شكلي تافه.

ــ وأين منكم قولة علي بن أبي طالب ما ضاع حق ورائه طالب؟

ــ صارت سنبلة فارغة!

ــ يا إله السموات والأرض، خفّف عن مخلوقك ما ابتليته به. أرجوك يا شكري أن تصمت، فما عدت أتحمل سماع مثل هذه الأخبار، إن عصركم هذا لعصر مجانين بحق.

أراد أن يضيف شيئا، فأسكته بإشارة من يدي، وقلت له:

أنت تربكني يا شكري، لعلك تقصد بالشكل والجوهر، اللفظ والمعنى؟

ــ تماما، ذاك بالضبط ما قصدته، فالشكل هو اللفظ والجوهر هو المعنى، وقد أصبح اللفظ في عصرنا الحالي مرجحاً على المعنى.

ــ شخصياً قد لا أتفق معك، ذلك أن ترجيح اللفظ على المعنى هو بمثابة ترجيح الجسد على الروح. فاللفظ كالجسد، عارض متغير فان. أما المعنى فهو كالروح، أن خالد لا يتبدل. ولذلك قيل في زماني السابق "إن الشعر تجويد للمعاني"، ذلك ذلك الشاعر وحتى العالم أو الفيلسوف، هو الذي يجيد التقاط المعنى، فتأتي بعد طريقة تجويدها.

بدا غير مقتنع بوجهة نظري، وقبل أن يتحدث أضفت قائلا:

ــ أفهم أنكم صرتم في هذا العصر تجمعون على ترجيح اللفظ على المعنى، هذا الجاحظ أيضاً ليس بالشيء الجديد، ففي عصري السابق وُجد من قال بهذا. أذكر أن يلتقطها المسلم عليه رحمة الله، قال ما معناه، إن المعاني ملقاة على قارعة الطريق، وهو قول في ظاهره والنصراني والمجوسي، لكن الحرفية تكمن في كيفية صياغتها، كذلك يبدو وكأنه يرجح اللفظ على المعنى، لكنه في عمقه ليس.

ابتسم شكري وهو يوقد سجارته وتلمظ رحيق كأس صبّها في حلقه، ثم تطلّع إلى سقف الصالة وكأنها ستمده بما يعتزم الردّ به، وخاطبني:

ــ أنت أيضا أربكتني يا أبا حيان، فلم أعد أعرف من منّا على صواب! طيب إني أفكر في أن أطلعك على آخر مستجد في النقد العربي.

قال ذلك ورفع بصره مرّة أخرى إلى سقف الصالة، فاستعجلته:

ـــ هات ما لديك، إني أتوق لمعرفة هذا المستجد.

ضحك، وانخرط في الحديث:

المرتبة ـــ قبل خمسين عاماً إن لم تخني ذاكرتي، كان المشتغلون بالنقد، يضعون في بعد ذلك توحّدت الأولى الكاتب قبل نصّه، فقد كان الكاتب أهم من النص الذي يكتبه، الكاتب، هذا الآراء على استبدال الكاتب بالنص، ليصبح النص أكثر أهمية من الغرب المسيحي، التفضيل للنص، لم يدم طويلا، فقد قام أحدهم من معشر منظري قارئ. ضحك ودعا إلى ترجيح التلقي على النص، أي عدم جدوى النص دون

وأضاف:

ـــ ما قول الأديب الفيلسوف القادم من القرن الرابع الهجري، أزهى عصور ثقافة العرب؟

بالرغم من الكؤوس التي صبها في جوفه، أحسست به في كامل قناعته بما يقول، فارتأيت أن أعود به إلى موضوعنا مخافة فساد جلستنا، فقلت له:

الفكر ـــ إن التلقي، ومنه الإصغاء كأحد مدلولاته، ليس مفهوما جديداً وافداً على بشأنه العربي، فقد كان موجوداً في بداية العصر العباسي، وكانت لنا مطارحات.

أوقفني بإشارة من يده، فخلته سيشكرني على حصافة رأيي، إلا أنه فاجأني بما لم أتوقعه منه، إذ قال:

ـــ عليَّ أن أكون صريحاً معك، فقد أخذت تربكني حقا، كل مستجد أطلعك عليه، العصر تنسبه إلى تاريخك البعيد، لم أعد أعرف إن كنت تتعمد ذلك أم أن مثقفي هذا يجهلون تاريخ ثقافتهم؟

قاومتُ غضبي، وقلت له:

إلمامي ـــ أنت الأعلم يا شكري بأنني لم أقرأ كتاباً واحداً منذ القرن الرابع، وأن لأتحدث عنه بالتلقي والإصغاء يعود إلى أيامي البغدادية، بل إني على أتم استعداد العربي منذ أزيد ساعات وساعات، ولعلمك فإن الإصغاء كان حجر الزاوية في أدبنا من عشرة قرون.

أمسك بقنينة نبيذه وملأ قدحاً صبّه في حلقه، وقال لي:

ـــ منذ أن التقينا وأنت تزج بي في معضلة وراء معضلة دون استراحة.

إني بصراحة لا أطيق الصنف الجاد من البشر لأكثر من ساعة، فقد تخليت عن

التدريس لهذا السبب، وكذا عزوفا عن سخافة منطق المدرسين، وأنت تجاذلني مهنة بمنطقهم.

أحسست بالغضب يتسلق صدري، لكني في ذات اللحظة صرت أقاومه، مكثفا لدرء استفزازه. أنا لا أُستفز إلا بإرادتي، رددت ذلك في نفسي وخاطبته إرادتي مفتعل، وأنا أكتم غيظي بهدوء:

ــ لكنك يا شكري أنت الذي اختار الحديث عن المفاهيم المستجدة في الأدب، ومن يطرق الباب عليه سماع الجواب.

ــ لكنك أطلت الحديث في أمور عقلانية لا تناسب المقام.

في ذلك وأنت من اختار المقام؟ ــ ما العيب

ــ الحلم والوهم وحدهما يناسبان مجالس الشراب.

ــ لا تنسى أن الإكثار منهما، مضاف إليهما الشراب، يؤدي إلى الجنون.

ــ مرحبا بالجنون، من كان دون جنون يُرفض من زمرة المبدعين. أتعرف أنني بترحاب أثناء كتابتي لروايتي "الخبز الحافي" كنت في حالة جنون، فاستُقبلت الرواية في أوج منقطع النظير، وعندما أتبعتها بكتاب "غواية الشحرور الأبيض"، وكنت التعقل، لم يلتفت إليه أحد.

أحسست أني أجالس شخصاً غريبا عني، أكيد أن الرجل أصيب بلوثة عقلية، أو لربما جنونه طغى على تعقله، فلا معنى أن ينقلب مزاجه من أقصى درجة الوداعة إلى أقصى درك الوقاحة. تذكرت كيف كان يضرب على ظهر عبد القادر بشدة دون أدنى سبب، وكيف ولج البحر في الهزيج الأخير من الليل، بعد أن ألقى وقسوة بحذائه وسترته في وسط الأمواج المتلاطمة.

أشياء وتصرفات خرقاء صار ذهني يستحضرها، إلى أن قال لي:

ــ إني أتقبل بشغف أن تحدثني عن علاقتك بنهاوند، فالظرف الذي جعلك تتعرف جميلة. إليها يدعو إلى الدهشة. أهديت الوزير كتباً فأهداك جارية، يا لها من حكاية بمسميات أخرى، في زماننا الحاضر لم يعد الوزراء يملكون جواري، أوهم يملكونها عشيقة أو صديقة.

الظلمات. لم أجبه بشيء. كان ذهني مشتتاً، تتزاحم به أفكار تتلاطم كأمواج بحر الشاذ، أفكر في إعلان البحث عن نهاوند لتدفئ فراشي، وأفكر في مزاج شكري

ما فوق وأفكر في تمالك نفسي التي لو لم أتق شرها لكنت ألقيت فوق رأسه بكل المائدة، وانسحبت من دائرته إلى الأبد.

من جديد فاجأني وهو يضحك:

الصالح ــ إننا نحن العرب جميعا نعيش حياة مركبة، حياة انفصام. ندعو إلى السلف ولا مع صانع النكسات والمآسي ونستلذ التبعية للغرب المسيحي. أنا لست مع هذا ثمار لم ذاك، لا مستقبل يرجى من العودة إلى الوراء، ولا فائدة ترجى من قطف نشارك في زرعها.

أخذ يضحك حتى خلته مجنونا حقاً، ثم تحامل على نفسه لينتصب على قدميه، وأخذ يحوم حولي متابعاً ضحكه:

ــ أنت أبا حيان، تنتعل حداء عصرياً وتتدلى على صدرك العراقي ربطة عنق في الغرب، وتخفي عظامك داخل بذلة فاخرة، فوق قميص غربي ناعم، إنك صممت عن المشارقة في شيء، بل عن العرب عامة، ولست الوحيد القادم من لا تختلف الهجري، فجميعنا قفزنا على عشرة قرون، استبدلنا ركوب الجمل القرن الرابع الطائرة، دون أن نسهم في صناعتها. لكننا نبرر ركوبها بحرق والحمار بركوب المراحل.

توقف عن ضحكه وأخذ ينعم في وجهي وأضاف، لكنه هذه المرة نطق بمودة فضحتها حنجرته:

ــ إني أفسر صمتك برفضك لشخصي، أرجوك أبا حيان، لا تغضب مني، أكن لك حقيقية، لعلي في حالة سكر، لكن عرضي وافر، وأنا في الوقت ذاته في كامل مودة العقلية، ذلك أن سكري مثل جنوني لا يستغرقني سوى لحظات. عليك أن قوتي القدر الذي جمع بيننا، فلو كنت صاحبت غيري، ما كنت ستحظى بالاطلاع تشكر ما نحن فيه، أقصد ما يعتمل في دواخلنا. لنكف عن الوهم والجنون على حال.

لاحظت أنه ساه عن سماعي، فتوقفت عن الحديث. مرت فترة صمت دون تواصل وعلى صدى صوت نسوي أدرت رأسي ملتفتا خلفي، فألفيت حشداً من بشر بيننا، كان فارغاً، نسوة ورجال تكدسوا فوق مقاعد كتجمعات النمل، وازدانت ملأ حيزا بأشربة ومزات وقهقهات، وانقدح خاطري إلى أن إحداهن في حالة سكر موائدهم طغى صوتها على ضجيج المقهى طافح، فقد.

انتبه شكري إلى غيابه عني، فخاطبني بمودة:

ـــ معذرة أبا حيان، فقد سهوت عنك، انشغلت بأم كلثوم.

لم أفهم شيئا، أو بالأحرى حسبته منشغلا بالبنت السكرانة، وتساءلت مع نفسي كيف عرف أن اسمها أم كلثوم إلى أن قال لي:

ـــ أم كلثوم، سيدة الطرب العربي وتدعى كوكب الشرق، وهي الآن تغني قصيدة لأبي فراس الحمداني.

أدخلني شرحه في دهليز مظلم، فبادرته بالقول:

ـــ إنك زدتني غموضاً، أوضح رعاك الله!

ضحك وقال:

في ـــ الصوت المسجل الذي نستمع إليه الآن، هو للفقيدة أم كلثوم، وقد سطع نجمها التي تشدو الغناء العربي، سطوع نجم المتنبي في سماء الشعر العربي، أما القصيدة بها، فهي للشاعر أبي فراس الحمداني.

لم أقو على كبح ذهولي، ليس إعجابا بالموسيقى أو صوت المغنية فحسب، وإنما أيضا بقصيدة أبي فراس الذي لحق بي إلى القرن الرابع عشر الهجري، وأرخيت أذني لأذوب في رقة معاني شعر أبي فراس، وهي تنساب في حُلَّة من أنغام العود والدّف والصنج: أراك عصي الدمع شيمتك الصبر، أما للهوى نهي عليك ولا أمر.

(26)

حين أحس بي شكري مشدوداً إلى السماع، سألني:

ـــ حبذا لو أعرف مدى تقبلك لهذا النوع من الغناء، وهل أصلا تفهم في الغناء.

أسكته بحركة من يدي إلى أن انتهت السيدة من غنائها وقلت له:

ـــ لا تنسى يا شكري أني كنت صديقاً لجهابذة علماء الموسيقى في عصري، كأبي نصر الفارابي وأبي الفرج الأصبهاني، وبهذه الأصابع التي تشاهدها، قمت بنسخ جميع كتب الفارابي، كـــ "الإيقاع" و "الموسيقى الكبير" وكذا "أصل العلوم" و إحصاء العلوم"، وجميعها في علم الموسيقى واللحن، كما نسخت وحفظت "كتاب" الأغاني" لصديقي المرحوم أبي الفرج الأصبهاني.

عاد يقول:

ــ أعرف أنك موسوعة، لكني لم أسألك عن الجانب العلمي في الموسيقى وإنما عن تذوق الألحان.

قاطعته ضاحكاً:

ــ أزعم أني أفوقك تذوقاً للألحان، وذلك لأني أحيط بعلم الألحان النظري من جهة، وبتذوق ما يهز منها مشاعري تطبيقا من جهة أخرى. فعلى سبيل المثال، إذا كنت وقع خطأ في العزف أو في أحد الإيقاعات، فإني أكتشفه في الحال، ولعلمك فإني كنت مغرماً بعزف إبراهيم الموصلي وشقيقه إسحاق، وكذا بتلميذهما زرياب الذي أنوي اللحاق به في الأندلس.

نظر إليَّ باستغراب، فأضفت قائلا:

ــ أتعلم أن العود بعد أن كانت له أربعة أوتار من الحرير، أضاف له زرياب وتراً خامساً، أسماه الأوسط؟جعله تحت المثلث وفوق المثنى، واتخذ مضراب العود، إسحاق الريشة من جناح النسر، بدلا من قطعة الخشب، وجعل عوده بحجم عود الموصلي، لكنه أخف وزناً بمقدار ثلث وزن عود الموصلي.

ستقول هذه معرفة، لكن صدقني أن صوت علية بنت المهدي وطريقة أدائها للغناء، كانا ينتزعان مني مشاعري ودهشتي ويسموان بي إلى أعالي السماء،كان صوتها في صفاء السيدة صاحبة أغنية أراك عصيَّ الدمع ومواصفاتها.

أصابت الدهشة شكري، فقال لي:

ــ من يصدق ما تقوله؟ من سيصدق أن أبا حيان يعرف عن الموسيقى والألحان أكثر مما يعرفه مثقفو عصرنا هذا؟

وقلت له:

ــ أصارحك يا شكري بأن أبا ناصر الفارابي إلى جانب العالم والصوفي كان مغنيا الفيلسوف وعازفاً مبهراً، كان يعيش بداخله العالم والفنان متلازمين. وإذا كان معتبراً الموسيقى الطبيب أبو يوسف الكندي قد سبق الفارابي إلى التأليف الموسيقي، استوعب علمه وفاقه في فرعاً من الرياضيات، ووسيلة لشفاء المرضى، فإن الفارابي ثقافة العجم. أذكر عندما أمر الأصوات والأنغام والتآلف، وزاد عنه اطلاعاً على غايته من تأليف هذا الكتاب كانت كنت أنسخ كتابه "الموسيقى الكبير"، اكتشفت أن عليه رحمة الله الواسعة. نعم بسبب ما وجده من نقص وغموض في كتب الإغريق،

وابن مسكويه دون شائبة، إلى أن الرجل، تعاشرنا في السنوات الأخيرة أنا وهو سرنا في موكب حزين نعيده إلى التراب.

أنا أتحدث، وهو يحملق في وجهي مأخوذاً، إلى أن قال لي:

ــ هل تحفظ لحناً للفارابي أو الأصبهاني؟

ــ أحفظ لهما ألحاناً كثيرة، لكني لم أغني منذ زمن طويل.

ضحك وقال:

ــ أرغب أن تسمعني مقطعاً من أغاني ذلك العصر، لا يهمني الصوت، أرجوك أبا حيان.

ــ لكن الغناء لا يستقيم إلا بالموسيقى.

ــ ليس بالضرورة، فأنا أريده بدون موسيقى.

ــ لكني أشترط حضور الموسيقى في الغناء، فالعلاقة بينهما ليست وشيجة فحسب، بل هما واحد في لبوسين، وبذلك حرَّمتُ على نفسي الغناء دون آلة موسيقية.

ــ معنى ذلك أنك تجيد العزف؟

ــ علماً وعملا.

ــ طيب، إذا جئتك بعود، هل تغني؟

ــ ليس وسط هذا الضجيج.

التفت خلفه يستطلع من في الصالة، وخاطبني مزهواً:

ــ لم يعد صحبتنا سوى أربعة أشخاص، وفي وسعي أن أخرسهم جميعهم.

ابتسمت له موافقاً، فنهض مسرعاً، غاب زمنا قصيراً إلى أن عاد يحمل آلة عود، ناولني إياها ثم خطى إلى حيث الأشخاص الأربعة، وهمس لهم كلاما لم أسمعه فتوقفوا عن أحاديثهم.

على في تلك الأثناء، كانت آلة التسجيل قد كفّت عن بث موسيقاها، فأطبقت السكينة المكان، ولم يعد يُسمع سوى هدير خفيف لأمواج تتكسر على شاطئ البحر.

داعبت أوتار العود قليلا، وقلت لشكري:

ــ إن العود الذي اعتدت عليه في بغداد وغيرها، كانت به ست أوتار فردية، أما هذا، فبه أحد عشر وتراً.

امّحى الفرح من وجهه، وقال في كآبة:

!ــ إذن لن تستطيع العزف

:ابتسمت وطمأنته

ــ سأعزف أنغاماً شجية، فلا شيء تغير في العود، سوى أن كل وتر أصبح باستثناء الوتر السادس، فقد ظل منفرداً، فبدونه لا يمكن تحقيق الغاية مزدوجاً، اللحنية على مستوى الصندوق الرنان.أي بطن العود.

:ابتسم شكري وحرك رأسه مشجعاً، فأخذت أداعب كل وتر وأنا أشرح له علمي يصير مدوزناً ــ هذا العود مُدَوْزَنْ على مقامات أندلسية، عليَّ أن أقوم بتحويله حتى على المقامات المشرقية القديمة، ليتسنى لي أن أسلطن عليها.

:بعد لحظة تمكنت من دوزنة العود، وخاطبت شكري

.سأسمعك أغنية من أغاني عُليَّه بنت المهدي

وبعد أن عزفت المقدمة اللحنية، أنشدته جاعلا كل نغمة تتماه مع كل كلمة أنطق بها،

لَبِّ الهَوَى كُلَّمَا دَعَاك

وَلاَحِ في الحُبِّ مَنْ لَحَاكَا

مَنْ لَامَ في الحُبِّ أَوْ نَهَاكَ

فَزِدْهُ في غَيِّكَ انْهِمَاكَا

إنْ لَمْ تَكُنْ في الهَوَى كَذَاكَا

نَالَ لَذَّاتِهِ سِوَاكَ

أغني وأرقب في الوقت نفسه تسرب الناس إلى قاعتنا، ولعل مستخدمي مطعم بيركَولا أنفسهم صاروا ضمن أولئك الناس.

ما إن ختمت وصلتي حتى دوت الصالة بالتصفيق المتواصل، فارتمى شكري عليَّ مقبلا رأسي ويدي وقد اغرورقت عيناه بالدموع، وخاطبني وهو في أقصى حالات الانفعال:

ــ أنت أعظم فنان في هذا العصر، بالله عليك أبا علي، كيف سمحت لنفسك بالتستر على هذا الكنز الفريد؟ إن صوتك يخفي سحراً أخاذاً يهز النفس ويبهر العقل.

لم أقل شيئا ولا حتى أطلت الابتسام، كي لا أبدو مزهواً بنفسي، بل عدت أداعب تلك أوتار العود، مستأنساً بتقسيم على الطبقة الصوتية الخفيضة، إلى أن حضرتني الأغنية التي كنت أعزفها بعد أن ودّعتُ نهاوند في بغداد.

الأغنية واكتنفني شعور حاد بالأسى على فراق نهاوند، فأدركت أن تعبيري في أداء وذوق القادمة سيكون صادقاً، لأن عاطفتي كانت فياضة، وبذلك سأغني بفن وسأستميل قلوب سامعي.

واندفعت أعزف وأغني:

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ في بَغْدَادَ لي قَمَراً
بالكَرْخِ مِنْ فَلَكِ الأَوْزَارِ مَطْلِعُهُ
وَدَّعْتُهُ وَبِوِدِّي لَوْ يُوَدِّعُنِي
صَفْوُ الحيَاةِ وأَنِّي لا أُوَدِّعُهُ

وقد أعدت أداء الأغنية ثلاث مرات، لسببين اثنين، أولهما استجابة لرغبة الحاضرين العراق، أفاض بعضهم في الإشادة بحسن أدائي، وحسبوني مطربا حديثاً قادماً من فقلت له .وثانيهما استجابة لإلحاح شكري الذي تحدث عن موهبة استماعه وتذوقه:

ــ بدون المتلقي لا قيمة للمغني، فلكي تحصل لذة الطرب لا بد من توافر صدق صوت المغني وحسنه، ورغبة المتلقي في الاستماع والتقبل، وأنا أتفق معك، فالموهبة كما تكون للمغني تكون للمتلقي.

ناولته العود، لكنه رفض وأصر على الاستماع إلى أغنية أخرى، فتعالت الأصوات تؤيده.

ابتسمت، وخاطبت شكري بصوت خفيض:

ــ لا بأس، سأختم هذه الليلة بأغنية كانت مفضلة لدى صديقي ابن فهم الصوفي أبي القاضي، كان رحمه الله، إذا سمعها هاج وأزبد، وتعفَّر شَعْرُه، وهي من شعر ربيعة.

احتضنت العود وعزفت مدخلا موسيقياً من مقام لحن الأغنية نفسها، وذلك حتى أجعل الآذان تعتاد جو المقام، ثم عرجت على اللحن الخاص بالأغنية من غير أن أترك لأحدهم ذرة إحساس بانتقالي من زمن موسيقي إلى زمن موسيقي آخر، بل كطائر مفرد مغرِّد محلِّق في سماء صافية رحبة سرت.

وانسابت القصيدة تنفذ في شرايين الموسيقى، وكأنهما جسد وحلة لا يليقان إلا ببعضهما.

أنيرِي مَكَانَ البَدْرِ إِنْ أَفَلَ البَدْرُ

وَقُومِي مَقَامَ الشَّمْسِ مَا اسْتَأْخَرَ الفَجْرُ
فَفِيكِ مِنَ الشَّمْسِ المُنِيرَةِ نُورُهَا
وَلَيْسَ لَهَا مِنْكِ المَحَاجِرُ والثَّغْرُ.

(27)

اتصل شكري بسائق السيارة، واقترح أن يرافقني إلى فندق السراب في الجبل، فأومأت برأسي موافقاً.

ونحن نهم بركوب السيارة، قدمت رجلي اليمنى على اليسرى وكأني سأجعل السائق خلفي، ثم استدركت خطأي فعدت لألج السيارة بشكل سليم، فضحك وقال لي:

ــ تبدو كأنك أنت السكران!

ضحكت بدوري، وقلت له:

ذاك كان حالي مع صديقي الناسخ ابن عدّي النصراني، هو يشرب وأنا أسكر وكانت بطنه صغيرة مثل بطنك، لكنها قاحلة كالصحراء، لا ترتوي أبدا عوضه.

أقلعت بنا السيارة، وكمن يخاطب نفسه بصوت مسموع قال:

ــ عليَّ أن أنتظر إلى صباح غد لأتأكد!

وقبل أن أستفسره عن الشيء الذي يريد التأكد منه، أسرع مضيفاً:

ــ أتأكد إن كان ما عشته هذه الليلة واقعا عينياً أم مجرد لدغة حلم.

لم يكف عن الضحك، وهو يضيف:

ــ لو أنك أخبرتني سابقاً بأنك تجيد العزف والغناء لصدقت نصف الخبر.

ــ وما هو النصف الآخر الذي لم تصدقه؟

أخرج من قرابه صندوق سجائره، ألصق بفيه واحدة وأقفل نافذة السيارة عن يمينه كي لا تطفئ الريح عود ثقابه، فأتم له ما أراد، وخاطبني:

ــ مشاهدتي بأم عيني عزفك وغنائك، هي النصف الآخر من الخبر.

فتح نافذة السيارة ليتسرّب دخان سيجارته إلى خارجها، والتفت نحوي يخبرني:

ــ إني يا أبا حيان مستهام بالغناء، عاشق للأصوات الجميلة وللعزف الرفيع، أدخر هذه في منزلي تسجيلات متنوعة لأهم المطربين والعازفين عرباً وعجماً، لكنني عليه من الليلة وأنت تحلق بي في ملكوت الفن الراقي، جعلتني أقزّم كل ما أتوفر

تسجيل.

أرجو أن تثق بي يا أبا حيان، فقد دوّختني، أحياناً كان يخيل لي وأنت محتضن أو هي العود، عازفاً منشداً، أن أقواما من الجنَّة مختفية عن الأنظار تنظم عزفك، انه السحر .مختبئة بين ثنايا الأوتار، وأنت تستنطقها فردا فردا، وجماعات جماعات مثلما يعتق الخمر بعينه. لعل سباتك الطويل في تلك المغارة الأندلسية عتّق صوتك والله صوتك، مسكر الأصيل بعد أن يرقد لأمد طويل في مخزن هادئ منعزل؟ هكذا قد يحدث لبني البشر كالخمر المعتق، أين منك مطربي هذه الأيام؟ إني لا أدري ما حين يكتشفوا عذوبة صوتك وسحر عزفك!

لكني اكتنفني زهو فطري، وأنا أستمع إلى شكري يشيد بمهارتي في العزف والغناء، كدت أحتج لم أدع تثمينه يوقظ غروري، أو لربما لا مسه خفيفاً. ومن باب الدعابة، يحصد على تشبيهه لصوتي بالخمر، لكنني عدلت عن رأيي خشية إقحامي في نقاش ما تبقى من ليلتنا القصيرة، فيضيع مني مخططي للبحث عن نهاوند.

ووجدت نفسي أصارحه، دون أن أزيغ عن سياق الحديث:

ــ عندما كنت أعزف قصائدي وأنشدها، كنت أستحضر نهاوند وأخاطبها، كنت أنها تسمعني وتراني، فأغني لها، وأشاهدها وحدها وهي تشير عليَّ بيدها أحس هذا المقطع، أو لأكرر هذه الجملة الموسيقية الحزينة. ولكن، حين تشتد لأعيد تصفيقاتكم وتتعالى أصواتكم، أستفيق على واقعي، وأدرك أنها قصية عني وأني أغني لجماعة من السكارى ومستخدمي الحان، فيتضخم حال وضعي النفسي المأزوم بالاغتراب، فأسكبه في القصيد المغنى نفسه، وأعود لاستحضارها.

أنيري مكانَ البدر إن أَفلَ البدرُ

وقومي مقامَ الشمس ما استأخرَ الفجرُ.

إنها القصيدة نفسها التي كانت تستهويها، فلا تمل سماعها مرات ومرات.

السيارة تلتوي بين منعرجات الجبل على مشارف بحر الظلمات نحو إقامتي، وشكري بعد أن أنصت في ذهول لما صارحته به، قال لي:

ــ إذا كان وراء كل مبدع شيطان، فأنت وراءك شياطين.

سكت ينتظر ردي، وحين لم أجبه، أضاف:

ــ صدق المعاصرون متناولوك بالدرس إذ نعتوك بأديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء،

في لكنهم أغفلوا الحديث عن علمك بالموسيقى والغناء، ربما لأنك لم تتحدث عنهما مؤلفاتك، ولا القدماء أشاروا إليهما على ما أظن!

هو يتحدث، وأنا مأخوذ بجمال الليل، وعبير بحري بارد، يتسرب من نافذة السيارة المفتوحة على يميني، فانتبهت، وأسرعت بالقول:

لا ــ إني أجهل ما قيل عني بعد وفاتي، لكن ما أعلمه عن نفسي، أني سوَّدت أوراقا تحصى عن علم الموسيقى والغناء، وعن ليال في الإمتاع والطرب كنت سيدها، ويقيني أنها لم تنجو من قبضة النار مع غيرها من مؤلفاتي، وإني لأخال أن ما وصلكم منها، لا يمثل سوى نزر قليل مما تبقى محفوظاً لدى خلاني.

ظل شكري مشدوداً لما أرويه عن نفسي، فأضفت قائلا:

ــ إن ما يهمني اليوم هو مصير نهاوند، وأريدك أن تساعدني في البحث عنها.

أدار برأسه نحوي، وقال محتجاً:

ــ نهاوند نهاوند، ألا تحاول نسيانها، إنها بعيدة عنك مسافة عشرة قرون، يستحيل أن تظل على قيد الحياة.

اعتدلت في جلستي، وصرخت فيه:

ــ عن أي استحالة تتحدث وأنت تشاهدني حياً أرزق، إن الذي استعادني للحياة من جديد، قادر على استعادتها من جديد.

قاطعني:

عملة ثمينة ــ لو أن الأمر كما تقول لعمّ خبرها العالم بأسره. اسمع يا أبا حيان. إنك إعلان وجودك، فريدة، وفي حياتك الجديدة هذه، سوف تلتقي بنهاوندات، إن مجرد الظفر بالتعرف إليك حدث فريد في تاريخ البشر، سيجعل نساء الدنيا تتسابقن إلى.

قاطعته:

ــ ما كنت زير نساء حتى أسخر علمي لاستمالة النساء. أنا مكتف بامرأة واحدة ساقها القدر في دربي، فاصطفيتها عن بقية نساء العالم، وحبي لها ليس حاجة عضوية تنشد الإشباع حتى أسعى إلى أخريات. إنني في سني وتجربتي وثقافتي تخطيت مرحلة الانجذاب الجنسي إلى ما هو أعلى وأسمى.

ــ تريد القول بأنك عاشق عذري؟

ابتسمت مدركاً أنه لم يفهم ما أرمي إليه، فأجبته بصيغة تهكم، سائلا إياه.

ــ أتدرك حقيقة الحب العذري؟

صدرت عنه ضحكة متغطرسة وكأني سألته عن لون الماء، وأجاب مزهواً بعلمه:

ــ الحب العذري واضح كالشمس، فهو حب مثالي، مأساوي، يرجح بطلاه متعة على متعة الجسد، فيرتبطان بعلاقة تشوبها العفة والطهارة إلى غاية حصول الروح الزواج. إنه واقعك أنت مع نهاوند، أتريد مزيداً من الشرح؟

لم أقو على كبح امتعاضي، فقلت له:

ــ إني لا أسعى إلى الزواج من نهاوند، فهي أصلا زوجي، ثم إنك لم تصب في شرحك، بل كررت ما سال الحبر عنه في الكتابة والكلام، أي نقلت ولم تجتهد، وليتك نقلت ما هو مفيد. ولعلمك يا شكري، فإن العاشق العذري رجل أناني، مريض، شهواني، يبالغ في حب نفسه، متوهما أن ذلك الحب هو لمعشوقته.

قبل أن أسوق له أمثلة على ما أقول، قاطعني محتجاً:

ــ الآن دخلت في الهرطقة، تنفي الحب العذري من أساسه، تنفي قصة جميل وبثينة وقيس وليلي وعروة وعفراء، لا، لا، إنك أنت من ابتعد عن الصواب.

أسرعت بالرد:

ــ دعني أنهي رأيي وقل بعد ذلك ما شئت، ثم إني لا أنفي قصص من ذكرتهم من الشعراء. غير أن ما يستمد من قصائد جميل، أنه لم يكن يحب بثينة بقدر ما كان يحب نفسه، ولا كان يرغب في الزواج منها أصلا، وإلا، ما كان ليتغزل بها في التي أشعاره علانية وهو المدرك لتقاليد قبيلته التي تمنع زواج من يشبب بالمرأة حبه عن يريدها زوجاً. فلو كان جميل قد أحب بثينة وأراد الزواج بها، لكان كثم وتقاليدها، الناس، لا أن يقوم بإرادته الحرة ليعرقل زواجه، متحديا أعراف قبيلته وترغب في مفضلا أن يظل عاشقاً على أن يصبح زوجاً، وإذا كانت بثينة تحبه صحيحاً ما يَنسب الزواج منه، ما كانت لتتباهى بعشقه وتعلنه أمام رفيقاتها. فليس الجسد. فأي متعة للحب العذري من العفة والطهارة وتفضيل متعة الروح على متعة متعة جسدية روحية يحسها رجل يختلي بامرأة في عصمة غيره، إن لم تكن.

ــ دعني أهزمك ولو مرة واحدة يا أبا حيان، إنما بالله عليك، قل لي، في أي خانة تصنف حبك لنهاوند؟

ــ ليس من الضروري أن نصنّف عواطفنا في خانات، وكأنها أراء في الشعر أو

الموسيقى. بالنسبة لي، أحب نهاوند وكفى، فبعد أن اتخذتها زوجا، وعرفتها، وعاشرتها، عشقتها فلم أطق فراقها.

ــ ألم يكن جمالها سبب عشقك لها؟

الغرباء ــ جائز، بيد أن في الحب دوما إبهام، فما يراه المحب بعينيه قد لا يراه العاشق بأعينهم، ولعل رأيي هذا يقترب من رأي صديقي الجاحظ الذي قال: "إن الموصوف كثيراً ما يعشق غير النهاية في الجمال، ولا الغاية في الكمال، ولا بالبراعة والرشاقة، ثم إذا سئل عن حجته في ذلك لم تقم له حجة".

هكذا هو حبي لنهاوند. ولعلمك يا شكري، فإني أميل إلى تصديق المقولة الشائعة بأن في حياة كل رجل امرأة واحدة.

ضحك وأخذ يردد الجملة نفسها، وطلب من السائق أن يتهمل في سيره، وقال لي:

لا داعي لمزيد من الشرح، أنا أشاطرك رأيك.

سرح يفكر، وكأنه يبحث عن شيء غاب عنه، وقال:

حبها ــ أنا أيضا من طينة من تصدق عليهم تلك المقولة، فالمرأة الأولى التي استقر البيضاء في قلبي ظلت الأخيرة، وغيرها كثيرات، لكنهن مررن كالسحب الصيفية.

فتح نافذة السيارة وألقى بعقب سجارته خارجها، وسألني:

ــ هل ترغب في سماع قصة حبي الأول، تصور أني لم أبح بها لأي شخص، ولم عنها شيئا، لكني في هذه اللحظة تتفتح شهيتي للحديث عنها، قد يكون حنيني أكتب يدعوني لتلك الأيام أو شوقي إليها، أو لعل اقتناعي بحصافة رأيك في الحب هو الذي لأحدثك عنها.

ــ هات ما لديك يا شكري، أسعد لسماعك.

نطقت جملتي بمودة لا تخطئها الأذن، فمن غير اللائق أن أطلعه على مكنونات قلبي، ولا أن أمنحه وقتاً ليبوح بلوائع عشقه، فقال:

ــ بدأت حكايتي مع زبيدة منذ حوالى ثلاثين عاما، لا، أكثر قليلا، فقد كنت حديث الالتحاق بمدرسة المعلمين في تطوان. آه زبيدة.

غمره الضحك إلى أن انخرط في السعال، وأضاف:

ــ أتعرف ما يضحكني؟

لا أعرف!

أجبته، وصمت قليلا ليطلعني على مصدر ضحكه.

ــ بالطبع لا تعرف، يالسخرية القدر، ضحكتُ من نفسي، إذ صرت مثلك، أتحدث عشق قديم كاد الزمان يتلفه. ما علينا، كانت زبيدة قد جاءت إلى منزل والدي عن لتحضر حفل خطبة شقيقتي مليكة، معناه أنها إحدى صديقات أختي. في تلك السويعات من ذلك المساء التطواني البعيد، وقبل أن يقع بصري عليها، كنت قد اتخذت مكاني فوق مقعد خشبي شاغر دون إرادتي، فقد كان قصيراً وبدون متكأ بأني للظهر، لكن ما أن لمحتها وانتبهت إلى وجودها على خطوة مني، حتى تأكد لي ما كنت لأختار غير ذلك المقعد.

وغمرني زهو الشباب وأنا أطوف بعيني أستجلي وجوه النساء الحاضرة في الحفل، هذه عبوس ذات وجه مستدير كوجوه الفلاحات، وتلك شبيهة ببقرة عجفاء، والأخرى لتتملى أقرب إلى رجل منها إلى امرأة، إلا زبيدة، كانت بأنوثتها تثير الدهشة، تشدك متلبساً فيها رغم أنفك، لها عينا ظبية مشرقتان ضاحكتان، صوبتهما نحوي لتجدني بالتفرس فيها، أزاحتهما عني وانشغلت بلا شيء.

نفسي، إنها الخطوة الأولى، قلت في داخلي، وستليها خطوات أجرأ، وانشغلت بتقويم مركز اجتماعي هل أنا قادر على استمالتها، وحسبي أني أيضاً كنت شاباً وسيماً ذا أحسد عليه، كنت طالبا في مدرسة المعلمين.

كان على غير عادته يتحدث ببطء شديد، وكأنه يرتجل حكاية يسردها لأول مرة، فاغتنمت لحظة توقف خلالها متذكراً، وسألته:

ــ أتحسد لأنك طالب علم؟

ــ بل أحسد لأني أتقاضى راتبا شهريا، وأنا بعد أخطو نحو العشرين من عمري.

أجابني، وأضاف:

ــ قبل أن ينتهي الحفل وتغادر زبيدة المنزل، أقسمت جازماً بأنها سمكة في شبكتي، فقد همست لي مرتبكة:

ــ سأترك عنواني لدى شقيقتك مليكة.

سربتُ وقبل ذلك، وبالرغم من أن الظرف لم يتح لنا وقتاً لنتبادل أحاديث مسهبة، فقد ضخم في عبر أذنها، جملة تختصر مؤلفا كاملا في العشق، وهمست لي بمؤلف كبير الهوى، مختصر في جملة قصيرة.

تملكني الضحك انتشاء بأسلوب شكري السجي وسألته في عجلة من أمري:

ــ ماذا قلت لها، وماذا قالت لك؟

ــ أنت التي كنت أبحث عنها قبل أن أولد، لن أعشق غيرك.

صرختُ بهذه الجملة مرتين حتى تلتقطها أذن زبيدة، ذلك أن الحاضرات كن يرددن أغنية مع صوت الراحل "محمد فويتح" المنبعث من أحد التسجيلات، وفي غمرة تعالي تلك الأصوات النسائية، صرخت بدورها تجيبني:

ــ اطلب عنواني من مليكة، واكتب لي:

وتناقلت منذ تلك اللحظة وأنا أذوب عشقاً في تلك الأغنية، كلما تناقلت إلى أذني إلا بعبق معها تلك الأصوات الصافية لأولئك النسوة الحاضرات في الحفل، ممزوجة لا العطور والأضواء، ودهشتي، وفرحي، وقلبي الصغير ينشغل، لأول مرة، بشيء يوصف، يسمونه الحب الأول.

وأخذ يردد مقطعا من تلك الأغنية باللهجة المغربية:

قولولي مالُه غَيَّرْ حالُه... قولولي مال الاشقر آش جرالُه

توقف عن الغناء وكنا قد اقتربنا من فندق السراب، فعدت اسأله:

ــ ماذا بعد ذلك، كيف التقيتما؟

ــ لم نلتق، أو بالأحرى التقينا بعد عشرين عاما، قال ذلك وسكت. كانت السيارة تلتوي بنا بين منعطفات الجبل، بطيئة في حركتها، وكان ضوء القمر الساقط على صفحة البحر أخاذاً مثيراً لشجوني، فمزقت الصمت بسؤالي:

ــ لم أفهم شيئا، ألم تراسلها؟

ــ أبداً، بقيت أنتظر أن تحصل أختي على عنوانها أياما طويلة، ثقيلة، وكأني في انتظار يوم القيامة، إلى أن حلّت الصدمة الأولى.

أسرعت بسؤاله:

ــ أي صدمة؟

ــ رفضت أن نتعارفا.

أجابني، ثم تابع حديثه:

ــ بعد أيام أخرى وقلبي تنهشه النار، عادت أختي تخبرني بأن زبيدة تزوجت، وسافرت لتقيم في مدينة سبتة المغربية السليبة.

توقف وكأن بحنجرته غصة، ثم أضاف برنة حزينة:

ــ أبا حيان، لا تقلل من شأني فتخلع عليَّ حكما كالذي أصدرته على العشاق العذريين، ذلك أن حبي لها ظل عذرياً مثالياً، دون أن أطلع عليه أحدا، لا أخفيك أني منشغلا بها، حاولت أن أنساها، لكن أي نسيان،.ففي كل لحظة، كنت أجد نفسي أغمض عيني أو أهرب منها إليها، فاستسلمت لقدري. صار حلمي تعويضا لواقعي، مروضاً يركض بي إلى أتركهما مشرعتين، فأخال نفسي فارساً مغواراً أمتطي جواداً صدره سيفي، وأهرب حيث زبيدة، فأنتشلها من أحضان زوجها بعد أن أغرس في ثم أخال أشياء أخرى، بها بعيدا إلى منزلي في جبل درسة المطل على بيوت تطوان، إن المرأة تنسيك في :وهكذا دواليك، إلى أن التقطت أذني ذات يوم، حكمة تقول الأخرى.

هللت لهذه الحكمة، وهمت باحثاً عن امرأة تنسيني زبيدة، تلغيها من وجداني، زاحمت تطردها من أحلامي. التقيت بالمرأة الأولى، وبالثانية، والخامسة، ولا واحدة دون أن زبيدة، فزادت قناعتي بأني كنت أفتش عنها في كل امرأة أتعرف إليها، شراعي. أجدها في امرأة واحدة، فعاد مركبي لمهب الريح. فقدت سيطرتي على بعد صارت تتقاذفني نساء الليل واحدة لأخرى، وحانات طنجة تعتصرني واحدة أخرى.

شكري يروي سره، وأنا أرخي أذني لسماعه في أقصى حالات اهتمامي، فقد كنت أحس صدقه في كل كلمة ينطق بها، واسترسل في سرده:

بسبب ــ في تلك الأيام كنت قد عُينت مدرساً في طنجة، لكني لم أقو على التدريس أبا حيان، محنتي وكأساتي، فأُسندت لي مهمة اقل عناء، معيد في الإدارة. لن أخفيك بعد ذلك متعة أنني في تلك السنوات الأولى من عملي انكببت على القراءة، لأكتشف هي مستعصية، إن لم الكتابة، إنك أعلم مني بحالها، فأنت الكاتب المقتدر، تدرك كم وأقعده في كتابات تمرينية، تمنحها نفسك لن تمنحك نفسها. هكذا، صرت أقيم الليل عنها جميعها، لكنني بما إلى أن راكمت قصصا ومسرحيات وروايات لم أفرج ونفوذاً لم يتكرم عليَّ بهما نشرته منها أكسبني مصالحتي مع ذاتي، حقق لي سلطة لي موقعي في جغرافية الإبداع، إلى أحد، ولا يستطيع أن ينتزعهما منّي أحد. أصبح رأيهم وليس رأيي. المفيد أني ما عدت أن قيل عني، الكاتب المؤرخ للمهمشين، هذا

نهاراً، إلى أن قابلت زبيدة. أجل التقيت بها، اقرب الشراب إلا ليلا، أومن حين لآخر اللبن، وصارت شمسي في منحدر غروبها، هي لكن بعد أن كان الصيف قد ضيع بمودة تُحسد عليها، لم تنج من قبضة فصل أيضا بالرغم من أن الزمن عاملها بكمشة أولاد، تجر وراءها خيبة زواج فشل في الخريف، فقد جاءتني بكاهل مثقل تعاتبني أيامه الأولى، وقفتْ أمامي:

لماذا لم تراسلني، فقد ناولت شقيقتك عنواني مرتين؟

ــ سألتني دون مقدمات وكأننا لم نفترق سوى أمس، وبإرادة مشلولة انبرى لسان حالي يحثها على إعادة السؤال، متمنيا أن تكون أذني قد أخطأت سماعها.

تلك كانت الصدمة الثانية، أن أعلم أن شقيقتي من حال دون تحقيق سعادتي. خطأ ولكانت فادح، أو تافه، بالنسبة لي اليوم سيان. إنما لولاه لكنت ربما شخصا آخر، زبيدة امرأة أخرى، أتستوعب ما أقوله يا أبا حيان؟

ــ إني معك قلبا وقالبا، يالمضاضة ظلم ذوي القربى! إن ذلك كان مكتوبا في لوحك قبل أن تولد.

أجبته، فعاد يضيف:

ــ ليتني ما علمت بذاك الخبر، فقد وصل بعد فوات الأوان. كان أثقل مما أتحمل، تصور، مجرد خطأ يرتكبه شخص يُحوّل مجرى حياتك الهادئة إلى شقاء دائم.

كنا قد وصلنا إلى فندق السراب، وكان الأفق يعلن انهزام الليل.

(28)

فجمعت بين فتحت عيني، فوجدت الظلام يخيم على غرفتي. لعل نومي كان ثقيلا بدت لي بعيدة النهار وجزء من الليل. فكرت في آخر ليلة قضيتها مع محمد شكري، مجرد حلم. لا وكأن شهوراً مرت عليها فغيبت بعض تفاصيلها عن ذهني، قد تكون أدري!

مفتاح حاولت أن أغفو ثانية، فلم أحس بأدنى رغبة في النوم، امتدت يدي تبحث عن للمرة الكهرباء، لم تجده في مكانه، فكرت في أنه كان على يميني، أعدت الكرة أفترش الثالثة والخامسة دون جدوى. داهمني بعض القلق، بعد أن اتضح لي أني لأتحقق الأرض ولا وجود لسريري، لا وجود أيضا لوسادتي. مسَّدتُ وجهي بيدي

الحلاقة منذ من وجودي أنا أيضا، فازداد ذعري، إذ حسبته وجه رجل آخر لم يقرب شهور أوسنين.

اشتد نبض قلبي، وارتفع هديره إلى أن وصل أذني، تشتت ذهني. أسئلة كثيرة تزاحمت، فانحبست في داخلي. أغمضت عيني وسط الظلام علني أسترجع رشدي، يُعقل أن ألقي بجسدي فوق سريري وأنام، فأصحو لأجد نفسي أفترش الأرض، لا لحيتي، وكأني لم أحلقها منذ سنين وتطول.

أأكون بداخل قبري؟ من أين لي أن أدري! رفعت يدي لألمس سقف قبري. لا، هذا ليس به سقف.

لعله قبر ضخم يسع قامة رجل واقف أو ممدد.

تحاملت على نفسي إلى أن انتصبت واقفا، ففطنت إلى أني خائر القوى. بصعوبة أقف على رجلي. أرسلت يديّ في كل اتجاه دون أن يعترضني سقف أو جدار، لكن قدمي تعثرتا بقطعة قماش صلب حسبتها وسادتي أو جزءاً من سريري، وحين لألتقطها تبيّن لي أنها سرج حصان، وبجانبها قطع حديدية لم تكن سوى انحنيت الحصان ركاب سرج.

من جاء بها إلى غرفتي؟

لم أفهم شيئا، أو بالأحرى أجّلت أن أفهم.

لكني حين تعثرت رجلاي بالخنجر، وتحسست مقبضه وغمضه والحجرين الماسيين المرصَّع بهما، تطاير صوابي من شدة ذعري.

لم يبق ما يمكن تأجيله، باغتتني أجوبة متخفية تفضح ما احتبس في داخلي.

صرخت مستنجدا بإله السموات والأرض، عسى أن يدرأ عني كابوس هذا الحلم، فأنا لست في المغارة بل في غمرة وهم الحلم.

عفى الله عن المغارة منذ أن أخرجوني منها، وأركبوني الباخرة العملاقة محاطاً بحارسين، وكأني من قطاع الطريق.

كل شيء كان واضحاً جلياً. مفوضية شرطة الميناء، الحاج ابراهيم ضابط الشرطة الممتاز ذو العينين الصغيرتين المطلتين من وجه طويل بشارب ممزوج بالشيب، والشرطي البدين المكرش الذي جرني من قفاي كأنني كلب، والآخر النحيل أصفر الوجه من تولى تدوين محضر استنطاقي. لا لست في المغارة. إني في حالة حلم

عابر سأصحو منه قريبا، سيكون لي معه شأن.

جرجرت رجلاي خطوات باحثا عن منفذ أغادر منه الغرفة، سأكسر بابها حتى وأنا أنني في حال الحلم، لكن جبيني ارتطم بأحد الجدران لينبهني ألمي إلى صحوي، إلى بالألم حقيقة قائمة في أقصى حالات وعيي وإرادتي وشعوري، في كامل إحساسي والخوف والقلق والتذكر.

إذن، لا غبار على حقيقة وجودي في المغارة بمدينة المنقب، سرج حصاني وركابه إليه وخنجري وثيابي يشهدون بذلك، ولكن، لمَ لا أكون بأحد السجون؟ نقلني القضاة أثناء نومي، وأحضروا أغراضي من المغارة! كل شيء محتمل الوقوع.

أن أكون سجينا بداخل حجرة في أحد السجون، محتمل جدا، إنما أن يتولى القضاة حبسي دون محاكمة، فهذا بعيد الاحتمال، لكن الشرطة يمكنها ذلك، ولو من قبيل القضاء الانتقام، فهي الوحيدة التي لم يقنعها دفاعي عن نفسي، فبعد أن أحالتني على سلامتي من كل متلبساً بجريمة الهجرة السرية، تلقت أمراً بحراستي والحفاظ على الارتياب، على الأقل من مكروه وأنا أقيم في أضخم فندق في البلد! شيء يدعو إلى وجهة نظرها.

المغارة لا، لا يعقل أن أكون في المغارة، فأغراضي كوسائل إثبات على وجودي في أعمدة .لن ترجح على شهود عيان عاشرتهم في طنجة، وما شاهدته وما خبرته الظلمات. الكهرباء المبثوثة على جوانب طرق معبدة. فندق السراب المطل على بحر أخرى .دركات ثلاث تفضي بك إلى داخل مطعم ريتز في شارع موسى بن نصير هناك في .تصعد بك إلى مطعم بيركولا المواجه للميناء والبحر الأبيض المتوسط وأنشدت الصالة المشرفة على البحر، قمت بدوزنة العود الذي جاءني به شكري، من جيلي، ضمتنا الحضور أحلى أغاني عُليَّه بنت المهدي البغدادية، آه عُليَّه! إنها وصديقي أبو مجالس عامة وأخرى خاصة رفيعة. غنت لنا وغنينا في حضورها أنا الغناء بالرغم من ناصر الفارابي، لكن ابن مسكويه الحاضر دوما، لم يكن له في الآن فهو أيام طنجة، تلك إجادته الاستماع، تلك حكاية قديمة حقيقية، أما ما يشغلني مجرد حلم؟ التي تتماهى بين الحقيقة والحلم، هل يمكن أن تكون في مطعم بيركَولا، ارتمى علي شكري مقبلا رأسي ويدي، اغرورقت عيناه بالدموع وهو يخاطبني:

ـــ أنت أعظم فنان في هذا العصر.

الملتوي، أسرّ في تلك الليلة ذاتها، بعد منتصفها، والسيارة تختال بنا في طريق الجبل غيري لي قصة حبه الأول، تلك الحكاية المثيرة التي لم يبح بها لأحد.

إذن عشت في طنجة، واقع يشهد به وكيل الملك والوكيل العام ووزير العدل نفسه، من أين لي بهؤلاء الشهود؟

أعياني وقوفي، فتهالكت على الأرض، جلست القرفصاء، وهمت مفكرا، زكمت أنفي على رائحة رطوبة عطنة، هي الرائحة ذاتها الموجودة بالمغارة القديمة. عدت لأقف المغارة قدمي، ودلفت بين أرجائها باحثا عن منفذ بها، فلم ألمس سوى ما لمسته في مرة ثانية؟ السابقة، أتكون هي ذاتها؟ بماذا يمكن لي تفسير عثوري على نفسي بها أيعقل أن أُحمل من فوق سريري بفندق السراب بطنجة ويُلقى بي داخل مغارة لا منفذ بها في مدينة أندلسية نائية؟

إما أني عشت في طنجة حقيقة وعودتي للمغارة حلما، وإما أني لم أغادر المغارة أبدا فتظل أيام طنجة حلما!

ذلكم هو المنطق القويم، هو ما يدل عليه سرج حصاني الذي حملني من فاس إلى طنجة، وخنجري الذي رافقني من بغداد إلى هذه المغارة في الأندلس، وسراويلي لأستريح وثيابي ولحيتي الكثة الطويلة، بمعنى أني لم أغادرها منذ أن ولجتها بإرادتي بها ليلة واحدة.

لا يُعقل أن أنام عشرة قرون، لا يعقل أن يعيش المرء حاضرين في زمانين يبتعدان عن بعضهما عشرة قرون!

الآن، ولو أني كنت في حالة حلم، أتفطن إلى سبب رفض المغاربة تصديق قدومي إليهم من عصري العباسي البائد، أنا نفسي لم أقبل بذلك!

إن الحقيقة الصارخة القاسية هي التي أواجهها هذه اللحظة، هي استيقاظي في محاصراً المغارة بعد نومي بها ليلة أو ليلتين، ولربما قام أحدهم بسد منفذها فبقيت بداخلها.

أما صحوتي السابقة وخروجي من المغارة فقد كان مجرد حلم، تماماً مثل أناس طنجة، فلم أتعرفهم سوى في الحلم.

من يؤكد لي حقيقة وجود رجل يدعى محمد شكري مقيم في طنجة؟

إنه شخص هلامي من الشخوص الحاضرة في الحلم، وبالرغم من ذلك فإن مرافقته أدفأت أيامي وليالي، وكأني عاشرته حقيقة!

وراء ما يؤكد أن ما حدث كان حلماً، هو قوله ذات ليلة إن الحضارة الحقة تأتي من أني البحر، من لدن الغرب المسيحي، ونحن العرب مجرد مستهلكين لها، الغريب صدقت ذلك!

أتذكر في السياق نفسه، جواب وزير العدل بعد أن سألته:

ــ من تعني بغير العرب؟

ــ أقصد الغرب المسيحي، فمنذ النهضة التي شرع فيها قبل خمسة قرون، ونحن ظاهرة لأبحاثه واكتشافاته، ويكفي إخبارك بأنك أنت شخصياً أبو حيان التوحيدي وقع التنبيه إليك، وإلى مؤلفاتك من لدن الغرب قبل العرب.

يا لضعفي الإنساني وهشاشة عقلي في غمرة الحلم، فقد سلمت بهذه الأخبار وهي تنافي المنطق!

من يصدق أن من كان وراء اكتشاف قيمتي العلمية والفكرية ونبه إلى مؤلفاتي هو الغرب المسيحي؟ مهزلة! بهتان!

أما الشخص الآخر وكيل الملك، أحد الشخوص الهلامية في مشهد الحلم، فقد توغل في الهذيان، حين زعم أن الأندلس سقطت في قبضة النصارى إمارة إمارة، خرافة، لدغة أحلام! هذيان حقيقي!

أحمدك يا ذا الجلال والإكرام، أن ما وقع كان مجرد حلم، وأن الأندلس مفخرة والشعراء، إنها العرب لا تزال عدوة مغربية عربية إسلامية منبثاً للعلماء والأدباء هناك، مثلما العراق الحبيب قوة شامخة هناك.

أي معتوه هذا، سيخطر بباله تعرض العراق للدمار والنهب؟ ومن قبل من؟ من لدن دولة غير موجودة! أوجدوها في حلمهم وسموها أمريكا! أو بالأحرى أنا من استنبطها في حلمه، أنا من خلقهم جميعا في حلمه! يا لخرافة أحلام المغارات! عمرها من يقوى على هزم خلافة إسلامية عربية مسيّجة بأشقاء مسلمين عربا؟ دولة سومر إلى كما قيل في الحلم، خمسمائة عام، تهزم العراق، منبع حضارات الدنيا من حضارة الإسلام؟ خرافة، هراء، كلام قيل في لحظة لا وعي!

استقمت واقفا وخطوت إلى الأمام ورجعت إلى الخلف، ثم عدت فجلست على

الأرض وأنا لا يشغلني سوى هذا الحلم.

لكن الأحلام لا تتداعى بهذه التفاصيل الصغيرة الدقيقة الواضحة، وكأنها الواقع المعيش.

لعل الأمر يتعلق برؤية وليس بحلم. أحداث الرؤى ترسخ في أذهان أصحابها دون أن تتباهت أو تتلاشى كالأحلام.

بكل تأكيد هي رؤية حقيقية، من تلك التي يخص بها الله عباده من الصفوة الصالحة الزاهدة في الدنيا.

ألم أكن زاهدا في حياتي العراقية والإيرانية؟

لكن الآخر الموجود بداخلي يلح أن أعتبرها مجرد حلم، ذلك أن الرؤى غالبا ما سلام على تتحقق، وإذا ما كتب لهذه أن تنفذ إلى الوجود فتتجسم واقعاً عينياً، حينذاك مستضعفة، الأندلس، سنغادرها لتصبح حضارتنا في خبر كان، سنتحول إلى قبائل أنا في صف بشرا، حيوانات ترعاها حضارة مسيحية جديدة، لا لا لن تكون رؤيا، أنها رؤيا، الآخر الموجود بداخلي، أقول معه، أن من يملك ذرة منطق، لن يصدق لتجارب لن يصدق أننا العرب مصدري العلم والوعي سنصبح منقرضين، ظاهرة عابر منفلت، حلم غيرنا، أبدا أبدا، ليست رؤيا، ليست عالماً ممكنا، إنها مجرد حلم مضحك، يدعو إلى الشفقة!

إني في المغارة الأندلسية، ليس لي من مؤنس سوى أحلامي، حلم طنجة كان الوحيد لأظل حيا، أما ما يحدث في الواقع، هو أن خلاني المغاربة في متنفسي يبحثون عني، سوف يهتدون إلى مكاني، وسأنضم إليهم لنكمل رحلتنا إلى انتظاري المسلمة العربية، سنتبارى في سرد أحلامنا، فجميعنا أقمنا في مغارات يشبه غرناطة بعضها البعض.

تنفيذا آه نهاوند، الحبيبة البغدادية الغالية، لا ريب أنها في طريقها إلى غرناطة مسامعها لاتفاقنا، سألتقي بها صباح يوم جمعة في جنة العريف، سأقص على تفاصيل حلمي المغربي، وكيف تعرفت إلى محمد شكري ونبأ ضياع الأندلس، وتعرض العراق للدمار والنهب، ستضحك مثلي.

لكن حتى ألتقي بها، عليَّ أن استجمع قوتي لأعود إلى قرع الجدار.

ياله من حلم غريب!

بحثت عن خنجري، أمسكت به وطفقت أقرع الجدار وأصرخ، لكن لا أحد انتبه إلى قرعي أو سمع صراخي، فاستبدلت بخنجري سرج حصاني، نزعت الركاب عنه به ذا الجدار وذا الجدار، محدثا ذوياً يخترق سمع الأصم، لا أتوقف وصرت أقرع أن يكلَّ مثني، وأعيد القرع والصراخ مرات تضيع في العد، إلى أن صار إلا بعد بأن هذا الجحر المسكون بالظلام والأحلام، سيكون لا محالة قبري يقيني.

بعد أن استسلمت لقدري، وسقطت على الأرض ناطقاً بشهادتي، ذوى في أذني لطرق من الخارج، بعد لحظات تأكد لدي الطرق بوضوح لا لبس فيه، صدى بالدمع إعلانا عن ولادتي من جديد، إذن أنا حي أرزق. وقفت، وعدت ففاضت عيني الجدار وأصرخ لأقرع:

ــ أنا أبوحيان، أغيثوني.. أغيثوني.

(1)

مسمّراً فوق مقعدي بقيت طيلة المسافة الفاصلة بين الميناءيْن الإسباني والمغربي، المتناوبَيْن على دون أن أهتم بأني أُجبرت على الجلوس بأمر من الشرطيَّيْن تلك الهوة السحيقة التي حراستي، فاهتمامي الوحيد كان مصوّبا إلى ما بداخلي، إلى باعدت بيني وبين كل ما يحيط بي.

من كان الطقس دافئاً مشمساً، والأمواج متراخية غافية، كأنها تخشى إيقاظ البحر سباته، وبعض راكبي الباخرة يصعدون إلى شرفات سطحها ناشدين تأمل الأفق أو التزود بمتعة مشاهدة البحر، أو ربما كان الطقس نقيض ما توقعت، مكفهراً مضطرباً، والبحر في أشد هيجانه، تتعالى أمواجه وتتلاطم، فتعترض سير السفينة ساعية في ابتلاعها.

من أين لي أن أعرف كل هذا؟

من أين لي أن أعرف ما كان يقع خارج دائرة نفسي، وكل اهتمامي كان منصبّاً على مصيبتي؟

كنت أحس أن خيطاً رقيقاً يربط ماضي بحاضري سينقطع بين لحظة وأخرى، فأنفصل عن أحد الزمانين، وأدور في أبديّة لا نهاية لها.

هكذا كنت في حالة خارقة من الذوبان في دواخلي، وحين كنت أجرؤ على التفكير

ما عادوا فيما يجري حولي، أجده منفراً مقزّزاً، فالأماكن لم تعد هي الأماكن والناس ما ألفته هم الناس، والروائح لم تعد هي الروائح، والكلمات، والإشارات، وكل حواسي، اختفى واندثر، وحل مكانه الهلام.

الباخرة العملاقة نفسها، لم يستوعبها عقلي، فقد ظننتها قصراً خرافياً تسحبه الشياطين بخيوط غير مرئية فوق أمواج البحر.

وقلت لنفسي، لا يمكن لهذه أن تكون باخرة، فليس بها رجال ذوو قامات مديدة وسواعد مفتولة يتناوبون على التجديف، أو أشرعة ما تدفعها إلى السير بهذه السرعة!

إن لم يكن عالم السحرة والشياطين، فهو عالم آخر أجهله تماماً.

وعرة، انتصبت واقفاً بأمر من الشرطيين وخطوت رفقتهما، انحدرنا في سلالم ضيقة شاسعة فذهب ظني إلى أنها ستفضي بنا إلى بئر سحيقة، لكنها أسلمتنا إلى باحة فولاذية السقف والأرض والجدران.

كدت أختنق من روائح قوية عافتها نفسي، ومن هدير كدويّ رعد متواصل صادر إحدى زوايا تلك الباحة، شموع قصيرة مبثوثة في سقفها لاتطفئها أعتى الرياح، من العدوة هي الشموع ذاتها التي أفزعتني في الليلة السابقة بعد أن ألقي عليّ القبض في الأندلسية فحسبتها عيون شياطين، وتراءت لي كوة ضخمة مرعبة تفضي إلى فولاذياً لم الخارج، لكن بعد أن غادرناها تبيّن لي أنها باب كبير، وأن ما ظننته سجنا يكن سوى بطن السفينة الخرافية العملاقة.

واستقبلني فضاء مزعج مضاء بِسُرَجٍ مبثوثة هنا وهناك، لا تبدد الظلام القاتم فحسب وإنما تُحِيلُهُ نهاراً متألِّقاً.

سرت محاطا بالشرطيين، أستدير برأسي يمينا ويساراً، فضغطت بشدة على عنقي جواد لأتبَيّن إن كنت حقا أعيش هذا الواقع وأنني لست في حلم، وانتفض قلبي مثل امرأة أخرى جموح حين شاهدت "نهاوند"، لكن، منذ الوهلة الأولى، تبيّن لي أنها نهاوند" ظلت " تشبهها، فلم أغضّ الطرف عنها إلا بعد أن تعثرت في سيري، لكن الخفية إلاّ من خلال مشعة في ذهني، فتذكرت أنه لم يسبق لي أن تحسّسْتُ مفاتنها الحياة كما يفعل مرافق أصابع يدي ليلا في مضجعي، وليس أمام الملأ ودبيب حركة عن مفاتنهن بتلقائية، ورجال المرأة الشبيهة بها. نسوة أخريات كن يسرن وقد كشفن

.خجل أو وجل أزالوا لحاهم وشواربهم وقصوا من شعر رؤوسهم دون

إلى ولجنا داراً كبيرة كتب فوق مدخلها "مفوضية شرطة الميناء"، عرفت أني أدخل دار الشرطة، وأن الرجال أصحاب الأحزمة الجلدية والقبعات الغريبة هم من الشرطة، أشاروا عليّ بالجلوس فوق مقعد خشبي إلى جانب رهط من الناس، فجلست.

جاء شرطي بدين وأمسك بقفاي، ثم جرني من بين الجالسين إلى مكتبٍ فسيحٍ، اسمه وأمرني بالجلوس فوق مقعد أمام "الحاج إبراهيم"، ضابط الشرطة الممتاز، كان وصفته منحوتين على لوح صغير بني اللون وضع أمامه، بينما جلس هو خلف منضدة توزعت فوقها أوراق وصكوك وأدوات لا أعرفها؟

وبدون مقدمات قذف الرجل في وجهي بذات الأسئلة الغريبة التي ألقيت عليَّ من لدن شرطة الباخرة، بعد أن تسلمتني من شرطة الأندلس.

ــ ما اسمك؟ كيف تسللت إلى إسبانيا؟ أين تقيم؟

وجه كرّر أسئلته أكثر من مرّة، لكني بقيت أحدّق في عينيه الضيقتين المطلتين من إلى مستطيل، حليق، صقيل إلا من شارب مَوْخُوطٍ بشيب دون أن أجيبه، فالتفتَ كأنني كلب، مرافقيْه الواقفيْن بجانبه، أحدهما بدين مكرّش، هو الذي قادني من قفاي استنطاقي، وخاطبهما والثاني نحيل رَثُّ الهيئة أصفر اللون، تولى كتابة محضر:

ــ لا أبداً، ليس مجنونا كما تظنان، إنه يدّعي الجنون، لاغير.

وتدخل الشرطي البدين الذي رافقني في الباخرة، مخبراً رئيسه:

أو ــ حاولنا يا سيدي جرّ لسانه إلى العربية وإلى لغات أخرى، حتى ظنناه أطرشَ وجهينا أصمَّ، أبكمَ. فاستعملنا لغة الإشارات، فلم يرد بشيء، بل ظل يحملق في وكأنه لايرانا، تماماً كما يفعل الآن.

ضرب "الحاج إبراهيم" بقبضة يده اليمنى على المنضدة حتى كادت تتطاير الأوراق من فوقها، وقطّب حاجبيه فازدادت عيناه الضيقتان انسداداً، وقال لي:

ــ لن يجديك هذا الصمت، فستُحبس، وتُجَوَّع، ويُدَقّ رأسك إلى الأرض إلى أن تعترف!

حركت رأسي كمن يفهم دون أن أَنْبِسَ بكلمة، فسادت فترة صمت خفيفة، تبادل يقال، الرجال خلالها نظرات ذاهلة، أكدت يقينهم بأني كنت أسمع، وأستوعب ما كان

أقصر ولعلهم فكروا في أنّ التهديد بحبسي وتجويعي وضرب رأسي إلى الأرض هو قيل، السبل لتتدفق من فمي أجوبة ترضي مآربهم. كنت أسمع في الحقيقة كل ما بدواخلي، على لكنني لم أحفل بأي تهديد، فرعبي الوحيد كان منصباً على ما يجري بالوحدة، بوعيي الكامل انشغالي بشأني النفسي المفجوع بالغربة، بإحساسي الشنيع بوجودي في غير مكاني، وفي غير زماني.

وحين حركت رأسي إشارة إلى كوني أسمع وأفهم، كانت تراودني فكرة التحدث إليهم، علني بذلك أكتشف بعض الغموض عن نواياهم، أو عن مصيري مثلا، ونطقت .إبراهيم "الحاج إلى رئيسهم كلامي وجهت":

ــ سيدي أطال الله عمرك، ما كنت يوماً لصاً ولا شريرا ولا جبانا، ومادمت لا أخفي سُوءاً ضد الله ولا ضد عباده، فلن يرعبني أي تهديد، ولعلمك، فقد جئت إلى وأهل المغرب، ينتابني شوق عارم إلى ملاقاة فلاسفة وفقهاء من ديار أهل المغرب والحكمة، وكان ظني الأندلس، لا أقل ولا أكثر، إنني قدمت مهاجراً ناشداً المعرفة لكنني وحسبي ما وجدت أني سأجد قوماً يكرمون وفادة الغريب ويقدرونه حق قدره، بالاغتراب سوى ما غَشَّى صدري بالغم، ورأسي بالكمد، ونفسي.

ما أن أتممت جملتي الأخيرة حتى رأيت الذهول قد طغى على وجوه الرجال، وأخذ ينظر بعضهم إلى بعض في تساؤل من الْتبس عليه الأمر، وقد فغرت أفواههم، وجحظت أعينهم وكأنني فهت بكلام غريب مبهم، لا يصدر عن إنسان عاقل.

بهندامي أنا أيضاً أصبت بالارتباك، والتبس عليَّ الحال، فظننت أن الأمر قد يتعلق الغريب مما جعلني ألقي نظرة فاحصة على نفسي، وتابعتُ قولي:

قمصاناً ــ إن أحدهم في ثغر "المُنَقَّبْ" سترني بهذه الثياب، فو الله ما عرف جسدي أنكم ولا سراويل بهذا الشكل، ولا حتى غادرت بيتي يوما عاري الرأس، أعرف سر تريدون أجوبة مني على أسئلتكم، أنا أيضا أرغب في أجوبة منكم تستجلي لي هذا الغموض المحيط بي، فَتُزِيحُ عن صدري غمه، وعن رأسي كمده، وعن نفسي غربتها، فهل تبدأون فأفصح، أو أبدأ فتفصحون؟!

ظلت الدهشة مرسومة على محياهم إلى أن تحدث "الحاج إبراهيم" متلعثماً، محاولا اصطناع جملٍ عربية سليمة:

البليغ ــ حاشا يا سيدي أن تكونوا لصاً أو ما شابه. في الحقيقة فاجأنا كلامكم

من واجبنا الفصيح، أدهشنا صوتكم العذب الرنان، إننا على استعداد لمساعدتكم، بل على أسئلتي أن نوضح لكم ما التبس عليكم، إنما قبل ذلك، أريد أجوبة صريحة.

حركت رأسي بالإيجاب، فنطق:

ــ ما هو اسمكم وما هي جنسيتكم؟

لم أقو على إخفاء ما غشى وجهي من استخفاف بسؤاله، منطقيا ولُغَويّاً، فأجبته:

ــ اسمي "أبو حيان التوحيدي علي بن محمد بن العباس"، وجنسي ذكر، عربي مسلم.

ــ أنا أسأل عن جنسيتكم وليس عن جنسكم!

وبالاستخفاف الممزوج بالامتعاض نفسه أجبته:

ــ أنا يا سيدي رجل واحد فرد، وأنت تخاطبني بصيغة الجمع، فهل ترى في شخصي جمعاً من الرجال، أم أن هناك سبباً أجهله وراء هذا الخطاب؟

(2)

تدخل الشرطي النحيل الأصفر الملامح، موجها كلامه إلى رئيسه:

ــ أسأله من أي بلد هو قادم، أقصد عن اسْمِ بلده.

فاستجاب له رئيسه، معيداً سؤاله بصيغة معقولة:

ــ من أي بلد قدمت؟

استرخت أسارير وجهي وأنا أجيبه:

ــ من "بغداد" يا سيدي.

التفت "الحاج إبراهيم" إلى معاونيه، وكمن يخاطب نفسه قال لهما:

ــ يقول من "بغداد!"، أما كان أولى أن تسلمه السلطات الإسبانية مباشرة إلى بلده عوض أن تحيله علينا.

ثم نظر إليَّ:

ــ ألديك أوراقٌ تثبت أنك عراقي؟

مرة أخرى يجانب سؤاله الصواب، لكنني أجبته:

ــ لم يسبق أن حصّلت وثيقةً تثبت ولائي للعراق ولا إلى بلد آخر؟

ــ وكيف تريدني أن أقتنع بأنك عراقي؟

على الرغم من غموض سؤاله، لم أسخر منه، كنت أرغب في أن أكون صريحاً

وصادقاً، فقلت له:

الوطن ــ وما مرادك يا سيدي لكي تتأكد إن كنت عراقيا أم فارسيا أم حجازياً، أليس حيث أقامك الله؟! مع أني أجهر بأني عراقي، صراحة أود لو أعرف؟

أطرق صامتاً وكأن كلامي فاجأه، فتابعت حديثي:

ــ سبق يا صاحب السلطة أن أخبرتك بأنني مسلم، وفي ملتي واعتقادي أن المسلمين ورفعاً في ديار الإسلام سواسية، إلا إذا كان لك شك في إسلامي، ففي هذه الحال، والفروع لأي غموض، أعلن أمامك بأنني مسلم حنبلي، عالم متفقه في الأصول والحديث، وأمور الفقه عامة، من مذاهب ونحل ومسالك ومعاملات.

طلب مني أن أصمت قليلا، وأشار على معاونيه بالسكوت، ووضع راحة يده على جبينه، وسرح ساهماً وكأنه يواجه حالة شاذة فريدة تقتضي حرصه وصبره، أو كأن ما أواجهه به يجانب في نظره المنطق والصواب.

بعد برهة، خاطبني وهو يحاول أن يبدو هادئاً:

إن ــ إنني يا سيدي لا أشك في إسلامك، وقد أعجبتني ثقافتك وراقتني دقة أجوبتك، ما أرغب فيه صراحة هو أن أعرف كيفية مجيئك إلى المغرب، وطريقة دخولك إلى إسبانيا؟

طأطأت رأسي موافقاً مستحسناً سؤاله، وخضت في الحديث:

ــ قدمت إلى المغرب كحال جميع الوافدين عليه، أما إذا كان قصدك أن تعرف الطريق الذي سلكته، فلا أرى بأسا من إطلاعك على تفاصيل رحلتي بكاملها.

أسرع يقول بلسان تشوبه بشاشة معينة:

ــ تماما تماماً، ذلك ما أرغب فيه، استمر استمر.

وتابعت حديثي:

ــ يمّممت وجهي شطر دمشق، فالإسكندرية، فبرقة، فالقيروان، فتلمسان، إلى أن دخلت حاضرة فاس، سليماً معافى ولله الحمد.

أجده وقد أنستني فاس ما كان قد تخلل رحلتي من محن ونوائب، إذ وجدت بها ما لم في حواضر غيرها، مرتفعات مزدانة بشجر الغاب، ونباتات الكروم، والتين والموز والزيتون، والليمون والتفاح، والمشمش والبرقوق، والعنب والكرز، واللوز وساكنتها، ووجدت الكل والجوز، استطبت هواءها وجنانها، وراقتني مبانيها وأَزِقَّتها

.الأصبحي رضي الله عنه على دين الإسلام ومذهب إمام الهجرة سيدنا مالك بن أنس

كان "الحاج إبراهيم" يحرك رأسه استلطافاً لكلامي، وكنت أروي أخباري وأنا أتلصّص ببصري بين معاونيْه، لأستطلع وقع ما أقصه عليهم، فاستنتجت عدم ارتياحهما لما أعترف به، لكن رئيسهما "الحاج إبراهيم" كان أكثر ما يهمني، وأضفت:

ــ اصطفيت من آل فاس خلاناً وأصحاباً أكرموا وفادتي، وقدروني حق قدري، أذكر قليلة أخذ من بينهم الفقهاء، الجوطي والدباغ والسليماني والكغاط والشبيهي، وفي أيام أَذَلَّنِي في يألف بعضنا البعض، فصرت أطلعهم على الصغيرة والكبيرة مما كان قد سفري من بلد إلى بلد، وما كان عليه طبعي وحالي في بغداد.

قاطعني "الحاج ابراهيم":

ــ سيدي! جميل ما تقصه عن مقامك في فاس، وما كان عليه طبعك في بغداد، لكنني أكثر شوقاً لأعرف كيف دخلت إلى إسبانيا.

فقلت له:

ــ المهم، أن أصدقاء فاس عرّفوني بقافلة كانت قد قدمت من سجلماسة في طريقها إلى غرناطة، وكان بها تجار نبهاء وفقهاء نبغاء، فانضممت إليهم لأرافقهم في والحمير، قافلتهم المكونة من خمسة وستين رجلا، وعَدَدٍ من النساء والخيول والبغال ودواب أخرى حملت صبية، وتكدست فوقها أمتعة ومؤن وأغراض أخرى.

وعاد "الحاج ابراهيم" إلى مقاطعة قصتي:

ــ باختصار، وصلتم إلى طنجة!؟

ــ أجل، كانت حاضرة طنجة محطة مستهدفة لنبحر منها إلى بلدة "طريف" لكننا توقفنا في حاضرة "قصر كتامة" لنستريح من ضجر الطريق وعناء بالأندلس، وهي بلدة يشقها نهر يدعى لوكوس، أرضها منبسطة خصبة معطاء، تحف السفر، خضراء وجنان مثقلة بالكروم والفواكه على مدار فصول العام، أهلها بها بساتين كرام، فصيحو اللسان، حاضرو البديهة، سريعو النفاذ إلى القلوب، ومن أَجْوَادٌ السّهر والسّمر وقصّ ما استجد من العلوم والأخبار، ومما أستحضره عنهم، عاداتهم، سرده على مسامعنا أحد رجالاتهم من بيت آل القنطري، أنه قابل شخصيا، منذ ما غمارة، حَوَالَى خمسين عاماً المدعو "حاميم المتنبي"، البربري الذي ظهر في قبيلة

مرتين في اليوم، فأنشأ بها ديناً وقرآنا بربرياً، واقتصر في دينه الجديد على الصلاة والعجيب الغريب، وأبطل الحج إلى بيت الله، كما أوجب صوم الأربعاء والخميس، لكنهم في قصر "كتامة" أن عدداً كبيراً من برابرة شمال المغرب اعتنق هذا الدين، لا ريب فيها، ويمكنك تصدّوا له، مثلما تصدوا لنشاط الخوارج. ما أقصه حقيقة والدنهاجي والفاسي استفسار بعض أهالي كتامة من التقاة، كالصرصري وبوعجاج الفهري.

ثم رحلنا عن البلدة في صباح باكر بعد أن أدينا فريضة صلاة الفجر في مسجدها الأعظم المهيب، وقد قيل لنا إنه كان كنيسة رومانية في عصر بائد.

وقاطعني الرجل أصفر الوجه الذي يدوّن أقوالي:

ــ اختصر كلامك يا أخي، فلديْنا عشرات المهاجرين السريين!

فتصدى له الحاج ابراهيم مقاطعاً:

ــ اصمت! ودع الرجل يتحدث بالكيفية التي يريدها.

ثم ابتسم في وجهي وخاطبني:

ــ نحن معك إلى أن تنهي كل أقوالك.

فاستأنفت حديثي:

أصيلا" هكذا يممنا في اتجاه طنجة، لكن القدر كان يخفي علينا أننا سنتوقف في "ثغر والشكر لله، يومين كاملين، بسبب وعكة صحية حلت برفيق لنا، لكنه قام منها سليماً أمنيتي أن أقف و "أصيلا" قرية بهيجة، تشرف على بحر الظلمات الصاخب، كانت أمنيتي، وكبرت على مرمى حجر من هذا البحر الهادر وأتأمله عن كثب، فتحققت ومَسَامّي سعادتي وأنا أحس بهديره يملأ أذني، ونسائمه تتسلل إلى رئتي.

أقمنا في هذا الثغر يومين سيظلان موشومين في ذاكرتي ما حييت، فحين نزلنا في تلك السويعات الأولى من بزوغ خيوط الشمس لمشاهدة مروج البحر، وكان صخبه كرومٌ هدأ، وأطرافه قد انكمشت، مخلفة طَحَالِبَ بلورية، وأعشاباً مبللة، كأنها قد لروائح خضراء في أحد بساتين جنة الخلود، يا لها من نسائم رطبة ندية هي نقيض عيّنات، الصحاري، فمن شدة ما استطابتها نفسي وانشرح لها صدري جمعت منها عصيد"، فساعدني الفقيه "أبو عصيد" على ربطها عند مخلف سرج حصاني، نعم "أبو للدراويش والمعوزين. ذاك الفقيه الإمام المبرِّز في أصيلا، رجل متصوف، يبسط يده

سمك يدعى رُوِيكْلْ، من بين مريديه وأصدقائه أتذكر وجها وديعا خجولا لصياد بينما يهتم أبو عصيد رجل لا يعرف عن الدنيا سوى أنواع السمك وأقصاب صيدها، يرتبطان بعلاقة مودة لافتة. بأشعار المتصوفة والأنساب والتراجم، وبالرغم من ذلك أنهما معاً من أشد وأقرب من عاشروا ومما ذكره أبو عصيد في ليلة سمرنا الأولى، عمر" خلال سنوات نفيه في "أصيلا"، بعد السلطان الإدريسي "يحيى بن إدريس بن موسى بن أبي العافية"، وحسداً منه على ما " أن كان حاكما للمغرب كله، لكن الحاكم من حب المغاربة، نصب له مكائد إلى أن نفاه إلى كان يتمتع به هذا الأمير الشاب ""ثغر أصيلا.

السلطان دلني هذا الفقيه على دار بجوار حمام ومعبد يهودي، كانت محل إقامة هذا وقد مساء محملا الذي كان على قدر من العلم بالفقه والحديث. وكان رويكَل يزوره كل عن شيخه الذي أخذ عنه بشراتل من الأسماك الطازجة. وفي الليلة الثانية، حدثني الفقيه بن محمد"، الملقب "بالإمام كتاب البخاري "الإمام أبي محمد عبد الله بن ابراهيم سنة، أسعدني في الحقيقة أن أستمع إلى الأصيلي"، وكان قد توفي منذ حَوَالَى ثلاثين عنه ما تيسر لي من بعض مريديه ومعاشريه في بعض أخبار هذا الإمام، بعد أن سمعت .إقامته هناك منذ حَوَالَى خمسين عاماً بغداد، ومكة، والمدينة، أثناء
أخباراً عنه، إذ توقفنا ترحّماً على قبره في حديقة مسيجة خارج أسوار المدينة، فتبادلنا الشافعي وأبي بكر الأبهري أكدت له أن الإمام كان صديقاً مقرباً من الإمام أبي بكر وأبي بكر الآجُري. وفي المدينة ومن شيوخه الأفذاذ في مكة الإمام زيد المروزي بأن الإمام الأصيلي، بعد أن عاد من قاضيها الإمام أبي مروان المالكي، فأخبرني القضاء في سرقسطة وقرطبة، وبعد مدة، عاد المشرق إلى أصيلا، رحل عنها ليتولى واحدة في منزل خاص بها، وعاشرهن بالعدل مرفوقاً بثلاث زوجات، أسكن كل غيرها، إلى أن قضى، فدفن هنا في مسقط والقسطاس، دون أن يفضل واحدة على .رأسه
له توقفتُ عن إتمام حديثي حين انحنى الشرطي الأصفر الوجه على أذن رئيسه، وهمس استئناف بكلمات غير مسموعة، لكن الرئيس ثَنَاهُ عن همسه بإشارة من يده، وطلب مني إلى أن الرجل ما عاد سردي، مبدياً ابتسامة متكلفة، غير أن ما كان يسود المقام نبهني أقوالي، تلك طباع رجال الشرطة يطيق سماع ما أزوده به من أخبار، أو لعله لم يصدق

والحيطة. ولربما طريقة سردي التي بدت في كل البقاع، فعملهم يجبلهم على الارتياب إلى سماعي وليس مضمون أخباري، مما له سجية مرسلة، هي أقوى ما كان يشدّه إن أخبرته برحيلنا عن "ثغر أصيلا"، جعلني أختصر كلامي، وهو عين ما حدث، فما الثلاثة الفاصلة بين أصيلة وطنجة، واستئجارنا والعوائق التي اعترضتنا في قطع الأنهر أن تصبح أكفاناً لنا في لجّة البحر، حملتنا من "طنجة" لمراكب خشبية ذات أشرعة كادت حتى قاطعني مستفسراً إلى"طريف" بالأندلس،:

ــ منذ متى تم هذا السفر إلى الأندلس؟

أجبته صادقاً:

ــ منذ بضعة أيام، أي في أقل من أسبوع واحد.

هنا ارتفعت أصوات الجميع بالضحك والقهقهة، فعاد الرئيس لاستفساري قائلا:

ــ أريد معرفة التاريخ، لا يهم اليوم أو الشهر، أريد العام بالضبط؟

يالغرابة السؤال! قلت في نفسي، وأجبته:

ــ قلت لك إن ما حدث كان منذ بضعة أيام، أي في هذا الشهر، وفي هذا العام ذاته، ألسنا في ذي القعدة من عام ٤٠٠ للهجرة؟

ملامحهم انتشر الاستخفاف على محياهم جميعهم، ولم يعد عسيراً على عيني أن تقرأ في رباطة علامات دالة على أني في نظرهم شخص مجنون، لكنني واصلت حفاظي على جأشي، وتوجهت بالحديث ليس إلى الرئيس وحده، وإنما إليهم جميعاً:

ــ أؤكد لكم أنني سليم معافى، وفي كامل قواي العقلية والجسدية، فإن وقع التباس فيما أرويه عن رحلتي، فإن مرده إلى عدم فهمكم.

وتدخل "الحاج ابراهيم" بعد أن أطال النظر في وجهي:

العام ــ طيب، تقول إنك قدمت من العراق في هذا العام، وركبت البحر إلى الأندلس في ذاته. أيمكنك أن تخبرنا عن ظروف بلدك؟ من تركت يحكم العراق مثلا؟

أسرعت بالإجابة:

بالقادر " ــ تركت الخليفة العباسي "أبا العباس أحمد بن المقتدر" المعروف لدينا ولديكم الحقيقي ليس الخليفة بالله"، حاكما على العراق، لكن ما هو خاف عليكم، هو أن الحاكم نفوذه على "فارس" و "الأهواز" و وإنما "بهاء الدولة" البويهي، فهذا الرجل بعد أن بسط بعد أن تزوج الخليفة من ابنته "سكينة" عام "كرمان" استبد بالسلطة دون الخليفة، خاصة بصداق بلغ مائة ألف دينار ٣٨٣.

وقاطعني "الحاج ابراهيم" متبرماً من حديثي، بعد أن بَحَثَ في أوراق أمامه:

ــ اسمع يا سيدي، إننا لسنا في عام ٤٠٠ للهجرة، وإنما في عام ١٤٢٣، ثم التفت إلى معاونيه وخاطبهما آمراً:

ــ أعدا له محضراً بأقواله واتركاه ينام إلى الصباح، لنقدمه إلى النيابة العامة ضمن المهاجرين السريين.

وقال أحد معاونيه ضاحكاً متعجباً:

ــ يقيناً إن الرجل سجين كتاب قرأه عن التاريخ القديم فتوقف دماغه هناك.

وتركت لم يجبه الرئيس، بل غادر المكتب دون أن يفوه بشيء، أما أنا، فقد جمد لساني أمر إرادتي لمشيئة الله، وليقولوا أو يفعلوا بي ما شاءوا.

للاشتغال، أنا العالِم، بعد أن أفردوا لي مقعداً خشبياً وأغلقوا الباب وانسحبوا، عاد فكري بأني سجين زمان يبتعد عن الفقيه، المنطقي، الفيلسوف. يحاول شرطي بسيط إقناعي من منا فاقده، من جُبِلَ على زماني بأكثر من ألف عام! يوهمني بأني فاقد للعقل! ومنطقه؟ الارتياب والتشكك؟ أم مَنْ يحتكم إلى عقله

باختلاف وحسبي أني أوجد في مكان غير مكاني، فعادة ما يُفَسَّرُ اختلاف المكان فهذا والله لن الزمان، إنما أن أكون في زمان جاء بعد زماني بأكثر من ألف عام، هنا في المغرب يستوعبه عقل كائن بشري، لقد حدث التباس ما! بكل تأكيد. لعلهم يتكلمون العربية، يعدون السنوات بطريقة مختلفة عما نعده نحن في العراق؟ لكنهم ويقولون عن أنفسهم إنهم مسلمون، يبسملون ويستغفرون الله.

و "يا إلهي، أكاد أصاب حقيقة بتلف العقل، ماذا لو أحضرت لهم الشيخين "القنطري أحضرت "الدنهاجي" من حاضرة "قصر كتامة" وهي على مسافة يوم واحد لا أكثر، أو ليشهدوا بالحقيقة، لهم الفقيه "أبا عصيد" من "ثغر أصيلا" وهي على مقربة نصف يوم، آدم أن يعيش أكثر من بوجودي في زمانهم ووجودهم في زماني، ثم كيف للمرء من بني كنت مختفياً؟ في أعالي ألف عام؟ وعلى سبيل افتراض أن ما زعموه حقيقة، فأين السماء أم في باطن الأرض؟

رأيي حتى لو هراء، هرطقة، إنني أنا الذي أمتلك الحقيقة وهم الأغبياء، ولن أتنازل عن بكثرة منتحليه، كما أن انضم إليهم السواد الأعظم من الناس. إن الباطل لن يصير حقاً القويم الحقيقة لن تصير باطلا بقلة معتقديها، ذلك هو المنطق.

الجاحظ" في " هكذا عليّ أن أفكر وأن أقاوم، فأنا فيلسوف، عالم منطقي، أنا ناسخ لكتب

شرطي أملس المحيا زماني هذا الحاضر، وليس في الزمان الذي قبله، ولن أعبأ بمنطق كأنه جارية هرب عنها الزمان.

لم أدر المدة التي استغرقها حواري الداخلي، إلى أن فتحوا عَلَيَّ باب الغرفة لأعرف أن الوقت صباح.

(3)

بمتكأ يريح الظهر، اقتادوني، فأدخلوني مكتبا آخر، وأمروني بالجلوس فوق مقعد خشبي الخلفاء لجميع مقاعدهم مُتَّكَآت مريحة وكأنها مقاعد حاشية.

مسمعي تناول شاب طويل القامة، أملس الوجه، شبيه بغلام، أوراقاً وأخذ يتلو على فناولني تصريحاتي بلغة منفرة، خلتها سوطا يجلدني، وطلب مني أن أبصم أو أوقع، القلم لا يجف، مما أكّد قلماً غريباً دون أن يسعفني بِدَوَاة، وحين نبهته أخبرني بأن سمق بصفد حديدي، لم يسبق لعيني أن لي أنني في عالم غريب عني. بعد ذلك غَلُّوا يدي إلى أن أدخلونا هودجاً ضخماً بنوافذ أبصرت مثيلا له، واقتادوني ضمن أسرى آخرين، إلى أن توقف عند مدخل بناء أبيض اللون، زجاجية، فتحرّك بنا وكأنه حصان أرعن، بالعرق، لكنني حين قرأت على مدخله: "المحكمة ظننته أول الأمر سجناً، فنضح جبيني طمأنينة ما، إذ فكرت بأن التعامل مع القضاء أضمن لسلامة الابتدائية"، دبت في قلبي الشرطة أو السجن بدني من مواجهة.

إلى أن أنزلونا مثنى مثنى في حراسة مشددة، وكأننا ثوار أو قطّاع طريق، وساروا بنا تكدّس بها وجدنا أنفسنا ننحدر في سلالم من بضع دركات أفضت بنا إلى غرفة عَطِنة المجهول بشر سيِقوا قبلنا إليها، وسُدَّ علينا الباب لنظل في مواجهة.

بعد زمن قدرته بنصف يوم، جاء دوري، بعد أن كان أحدهم من وقت لآخر ينادي بأسماء بعضنا، خرجت من الغرفة، فصعدت السلالم ذاتها محاطاً بجنديين، سرنا وصعدنا، وسرنا إلى أن وجدت نفسي أومر بولوج مكتب رحب ثري، فولجته، فك أما الرجلان قيدي بعد أن قدما تحية عسكرية صارمة دالة على عظمة صاحب المكتب، بالأمر، مشيراً هو فلم يكترث للتحية ولا رد بأكثر أو أقل منها، بل نظر إليّ أنا المعني ففعلت بمساعدة أحد الجنديين عَلَيَّ أن أجعل يدي خلف ظهري وأن أقف مستقيماً أمامه.

أخذ الرجل يتصفح أوراقاً فوق مكتبه، وبين الحين والآخر، كان يرفع بصره ويتأملني، إلى أن سألني:

ــ من أي بلد أنت؟

ــ من العراق سيدي، أجبته.

حرّك رأسه بطريقة توحي بذهوله، وخاطبني:

ــ تقول في تصريحاتك المدونة في المحضر، إنك قدمت من بغداد عبر المدن التي ذكرتها، وإنَّ اسمك هو "أبو حيان التوحيدي"!

ــ أجل سيدي أطال الله عمرك، أعترف بذلك.

سكت برهة مفكراً، وكمن يحاول اختزال الاستنطاق قال لي:

ــ سأكون مضطراً لأن آمر بإيداعك مستشفى الأمراض العقلية إلى أن تعود إلى الحقيقي، ومقر رشدك، لكن إذا ما عَدَلْتَ طَواعيةً عن ادعاء الحمق، واعترفت باسمك من العقاب إقامتك، ووسيلة دخولك إلى إسبانيا، فسأكون رحيماً بك، وستنجو.

سكت قليلا وأضاف:

ــ أما إذا كانت لك عاهة عقلية، كأن تكون مختلا، فيجب أن تعترف بمرضك؟

ــ وما هو دليلك يا سيدي على أنني لم أعترف بالحقيقة، أو أني مصاب بعاهة عقلية كالجنون؟ لا قدر الله.

قلت في عجلة من أمري، وأضفت:

ــ إني يا سيدي لا أتستر على شيء، لا عن أخبار ولا عن مرض، وقد اعترفت باسمي وكذلك الحقيقي وباسم بلدي الحقيقي، وبالسبل التي سلكتها، إلى أن حللت بالمغرب، بالأندلس.

انتفض صوته واشياً تبرمه من جوابي:

ــ إنك جاوزت المراوغة حدّ اليقين بأنك شخص معتوه، فمن سيصدق أقوالك الخرافية، " تسافر من فاس في قافلة متوجهة إلى "غرناطة"، وتحل "بقصر كتامة" و ثغر أصيلا"، الإدريسية المنقرضة منذ قرون، وتسمع أخباراً من أفواه رجال عايشوا أحد ملوك الدولة ثم تقول بأنك لست مجنوناً؟

أجبته:

ــ إن الجنون أيها الحاكم لا يَقْوَى أحدٌ منّا على إخفائه إن كان مصاباً به، فأي تعبير عادي لاحظت، أو لغوي شائن أو غير منطقي صدر عني؟ وأية حركة، أو تصرف غير لاحظ غيرك،أنه قد طرأ على سلوكي؟

توقفت للحظة أسترجع أنفاسي، ورأيت الذهول مرسوماً على محيا الحاكم، فتابعت

حديثي لمزيد إقناعه، وقلت له:

ــ إنني يا سيدي أتصرف تصرف العقلاء، وإذا كان قد صدر مني سلوك غير سوي، مجنون، فليس معنى ذلك أنني أحمق، فقد يصدر عن العاقل بعض ما لا يصدر إلاّ عن نفسي علما بأن الحمقى يطغى انحرافهم على اعتدالهم، وفي وضعي فإني متسق مع وعقلي، ولم أُخْفِ شيئاً من أخباري ولا من حياتي.

فاجأني مقاطعا:

ــ إذا كانت الحال كما تقول، أي أنك رجل عاقل متسق معتدل، فلماذا تزعم أنك "أبو حيان التوحيدي"؟

ــ إنها الحقيقة، بغض النظر عمّا إن كانت لي أو عليّ، وهل تعرف يا مولاي شخصاً غيري يحمل هذا الاسم؟

لم يقو على طمس ابتسامة ماكرة دالة على استخفافه بمنطقي، وأجاب:

ــ بطبيعة الحال أعرف "أبا حيان التوحيدي"، وليس هناك من المتعلمين المطلعين على يتكرر اسمه، تاريخ الأدب من يجهل أبا حيان التوحيدي المتوفى منذ قرون. أجل، قد حتى أنك تزعم بأن هذا وارد، أما أن تنتسب إلى زمانه وتنتحل اسمه وصفته وحياته، مجنونا! من يقوى على تاريخنا الحالي هو عام ٤٠٠ هجرية، ثم تقول بأنك لست تصديق هذا الهراء؟

أن الشك تمنيت لو تنفتح الأرض من تحتي، فتصهرني بداخلها، لأرتاح مما أنا فيه، ذلك عاد يموج برأسي، ودون إرادتي وجدت أسئلة تنساب على لساني:

ــ سيدي، أنا أجهل صفتك تحديدا، وأعلم أن دوري ينحصر في إمدادك بأجوبة، لكن وضعي الغامض لديك ولدي أيضاً، يحتم عليّ استفسارك لأتعرّف رأسي من قدمي، الحقيقي الذي فوالله ما عدت أفهم أكثر مما أجيب به، فهل تدلني رعاك الله على التاريخ العراق؟ وكيف يمكن نعيشه اليوم، سواء هنا في بلاد المغرب أم ذلك الموجود في بلاد مضى واندثر، والآخر حاضر للمرء في نظرك أن يجمع قيد حياته بين زمانين، أحدهما حال؟ أو ليس هذا هو بؤرة خلافنا؟

حرك الرجل رأسه موافقا، وقال:

ــ طيب، صفتي وكيل الملك، أي أني أمثل النيابة العامة، وأدافع عن الحق العام، فهلا عرفت معنى وكيل الملك؟

ــ معناه في تقديري أن الملك أنابك عنه بمقتضى وكالة ضمنية، وبمعنى آخر فقد تكون

قاضي القضاة!

عاد يقول في نفاذ صبر:

ــ أمازلت تدعي الجهل بالرغم من ثقافتك الواسعة!

هذا ــ أنا لا أدعي شيئا، لكن يستحيل أن أقتنع بأني أُحْسَبُ على ماض يبتعد عن الحاضر بأكثر من ألف عام، وإذا أردتني أن أصدّق، فعليك أيضا أن تصدق.

ــ أصدق ماذا؟

ــ تصدق أقوالي في الأوراق التي بين يديك، فإذا لم تقتنع، فأنا مثلك لا أستوعب هذا الفارق الزمني الذي تُصِرُّ عليه.

هو ــ أنت إذن متشبث بزعمك، طيب، لتعلم أن التاريخ الذي نعيشه اليوم في المغرب أما الدولة التاريخ نفسه الذي يعيشه إخواننا في العراق، فنحن في عام ٢٠٠٣ ميلادية، قيامها عشرة قرون، العباسية التي تزعم انتسابك إليها، فقد اختفت، واندثرت، ومر على أما زلت مصراً على رأيك؟ وحلّت محلها دول أخرى، بخلفاء وسلاطين وحكامٍ آخرين،

ــ مهما يَحْدُثْ فأنا أعترف بالحقيقة، متمنياً لو لم تكن هذه هي الحقيقة، كأن نكون في حلم، أو على الأقل يكون أحدنا في حالة حلم.

زنك امتدت يد وكيل الملك إلى قطعة جماد رمادية اللون، من خشب لامع، أو لربما من وعاء في أو حديد، فلم أقو على تمييز معدنها، لكنها كانت مشدودة بحبل رقيق إلى حقيقياً بداخلها يحاوره لونها، وضعها بين فيه وأذنه، وأخذ يتحدث إليها كما لو أن رجلا. وددت لو قلت له، بأن المجنون الحقيقي هو الذي يحاور جماداً، لكنني اكتفيت بذهولي، ولذت بالصمت.

(4)

معقوف الأنف، بعد زمن قصير، وقع طرق خفيف على الباب، فأطل منه رجل كهل، الشيب، قدرت أنه رمادي الشعر، حليق الوجه إلا من شارب متّسخٍ، غلب عليه بياض وبعينيه تساؤل يخفي في عمري وقامتي ونحافتي، ألقى تحية احترام على وكيل الملك، تضايقه، لكن وكيل الملك طمأنه، مرحبا، قائلا:

ــ إذن، أنت الكاتب محمد شكري، لقد طلبت حضورك قصد استشارتك لا غير، فأنت كاتبنا المعروف، من رموز هذه المدينة، تفضل، استرح.

بعد أن استوى محمد شكري فوق مقعد أسعفه به "محند أشهبار" الكاتب الذي يدوّن

أقوالي، ظل تساؤله بادياً على وجهه، فبادره وكيل الملك بالقول:

ــ إنك من دون شك، تعرف من هو "أبو حيان التوحيدي". ولعلك عارف بأخباره، أو مطلع على بعض كتبه، أليس كذلك؟

أجابه شكري بصوت يفضح ارتباكه:

وكثيرة ــ نعم سيدي، أعرف بعض أسماء كتبه، أما عن شخصه، فأذكر أن أقلاماً كبيرة وقع سالت منوهة بعبقريته وعلمه الغزير، خاصة منذ حوالي عشرين عاماً، حين بالأحرى على الاحتفال من لَدُن كبار المثقفين بذكرى مرور ألف عام على وفاته، أو اختفائه، ذلك أن لا أحد من المؤرخين يعلم تاريخ وفاته.

قبل أن ينهي محمد شكري شهادته، اقتحم المكتب رجل طويل القامة، حسن الطلعة، المفتين الأفذاذ، واثق الْخُطى، فبدا من هيئته، وثقته بنفسه، أنه أحد كبار الحاكمين أو أنا، فقد كنت واقفاً سلفاً. ولم وزاد في تأكيد تخميني وقوف الجميع احتراما لقدومه، إلاّي فوق مقعد بجوار وكيل الملك، وأشار عليهم يعودوا لجلوسهم إلا بعد أن استوى الزائر يد وكيل الملك، ووضعها أمامه فوق المكتب بالجلوس، فتسلم أوراق تصريحاتي من.

قبل أن يطلع عليها، بادره وكيل الملك بالقول، وهو يشير إلى مثقف المدينة:

ونتاج ــ إنه الكاتب المغربي الشهير محمد شكري، فقد دعوته لأستأنس برأيه في حياة عام، أقول الحقيقي، المرحوم "أبي حيان التوحيدي" الحقيقي، المتوفَّى منذ أكثر من ألف التوحيدي"، وبأننا نعيش في عصر الدولة لأن الضنين الماثل أمامنا يزعم أنه "أبو حيان الإسبانية علينا بتهمة الهجرة السرية، وبعد أن اطلعوا العباسية، وقد أحالته السلطات لكم إشكال هذه النازلة الغريبة على تصريحاته، سيتبين.

والآخر، انكب الوكيل العام على تفحص أقوالي المدونة في أوراق أمامه، وبين الحين حين أمر كان يرفع بصره ليتأملني، ثم يعود لمحضر تصريحاتي، واستبشرت خيراً الاستنطاق الشاب "محند أشهبار" بإحضار مقعد لي، وطالبه باستئناف كتابة محضر.

وتدخل وكيل الملك، مخاطبا الكاتب محند أشهبار:

ناولِ السيد الوكيل العام، ماهو مسجل لديك من أقوال المتهم.

أزعجني أن يقول عني إني متهم، لكنني لذت بالصمت.

بعد أن تصفح الوكيل العام ماراج من استنطاق في غيابه، توجه نحوي بالسؤال التالي:

ــ هل أنت مصّر على أقوالك، وعلى أنك "أبو حيان التوحيدي"؟

حركت رأسي بالإيجاب وأضفت:

في ــ إنني يا سيدي أتشبث بكل ما قلتُه، ولعلمك، فإني أجزع من التقوقع والتخاذل لي السيد وكيل الأقوال، سواء أكانت لغيري أمْ لي شخصياً، إنما بالله عليك، كيف ينسب الملك صفة متهم؟ أي ذنب اقترفت؟

ارتسمت على محياه ابتسامة موارية وهو يجيبني:

ــ إنك متهم بالهجرة السرية إلى إسبانيا، وهي ليست جناية حتى تصاب بالفزع إن ما "التوحيدي يشغلنا حقيقة، هو جريمة انتحال الصفة، أي انتحالك لشخصية "أبي حيان".

ثم التفت إلى محمد شكري وطلب منه الحديث.

جال محمد شكري ببصره في وجوه الحاضرين، وكأنه يلتمس سماعه، وقال:

لم أفهم شيئا لحد الآن. ولعلمكم فإني جاهل بأمور القانون، أما إذا كانت رغبة السيد ــ على أتم الاستعداد الوكيل العام أن أزودكم بما أعرفه عن "أبي حيان التوحيدي" فإني.

حرّك الوكيل العام رأسه بالإيجاب، فتحدث شكري:

ــ عرف عن أبي حيان الشجاعة والصراحة والمجاهرة برأيه في الناس، كباراً وصغاراً، دون حرج في نشر مساوئهم ومحاسنهم، اعتقاداً منه بضرورة ذم المسيء ومدح المحسن، وكان أديباً وفيلسوفاً وخطيباً لا يشق له غبار.

ثم وهو يتأملني أكمل حديثه:

ــ لكن هذا الرجل يبدو من لهجته عراقيا، ولغته ممتازة جدا، لكنه، على ما أرى كتباً وأسمع، رجل أحمق، ذلك أن "أبا حيان" تلاشت عظامه منذ ألف عام، وقد ترك القدماء وذخائر كثيرة، أذكر من بينها "المقابسات" و "الإمتاع والمؤانسة" و "أخبار الحكماء".

وطفق يتذكر، لكنني لم أَقْوَ على تحمل كذبه، فتوجهت بكلامي إلى الوكيل العام فاضحاً إياه.

ــ أعترف أنَّ الكتاب الأول والثاني من مخلوقاتي، وإني على استعداد لسرد محتوياتهما. يسبق لي أن ألَّفتُ كتابا أما كتاب "أخبار القدماء وذخائر الحكماء"، فلا علم لي به، ولم يسبق لي أن ألَّفتُ كتابا أما سعيد بهذا العنوان، ولاشك أنه من مختلقات السيد محمد شكري، بل أتذكر أن الشيخ "أبا سعيد بهذا السيرافي" كان يحتفظ بنسخ لبعض كتبي، وناقشنا عناوينها دون أن يخطر ببالنا هذا العنوان.

قاطعني الوكيل العام بإشارة من يده، طالباً من الكاتب "أشهبار" أن يسرع في تدوين أقوالنا، والتفت إلى "شكري" سائلا:

ـــ هل تعرف من هو الشيخ "أبو سعيد السيرافي"؟ أقصد هل هو مذكور في تاريخ الأدب؟

رفع محمد شكري بصره إلى سقف المكتب في حالة تذكر، ثم خفض بصره وأجاب:

ـــ لا ياسيدي، لا أتذكر من يكون هذا الشخص.

تطلع الوكيل العام نحوي وسألني:

ـــ من يكون هذا الشيخ؟

أسرعت أجيب:

النحو عصرنا، شيخي ومعلمي، أخذت عنه ـــ إنه "أبو سعيد السيرافي" مِنْ أشهر علماء النحاة والمتكلمين والكلام وأصنافاً من العلوم والمعارف، كان رحمة الله عليه من كبار بخطه، ناهيك عن تبحره في المعتزلة، فقد شرح كتاب "سيبويه" في ثلاث آلاف ورقة محمد شكري الذي يدعي الحساب والهندسة والمنطق، إني أستغرب كيف أن السيد السيرافي؟ اطِّلاعهُ على كتبي، لا يعرف من يكون المرحوم

قاطعني الوكيل العام قبل أن أتمم جملتي، وسأل محمد شكري:

ـــ هل العلماء الذين تتلمذ عليهم أبو حيان معروفون في كتب الأدب.

ردَّ محمد شكري:

ـــ بكل تأكيد.

فالتفت نحوي وسألني:

ـــ وعَمَّنْ غير "السيرافي" أخذت علمك؟

الكثير من ـــ تعلمت كذلك على يد الشيخ "أبي سليمان السجستاني" المنطقي، كما أخذت والذي لم أتخلّ ،"المعارف على يد القاضي الشيخ "أبي حامد أحمد بن بشر المروروذي أتخل عن الاستشهاد عن السير في موكب جنازته بحي الأعظمية في بغداد، مثلما لم عنه رحمه الله، أنه كان ضد بمأثوراته وأقواله في كتابي "البصائر والذخائر"، أستحضر ذلك، السلف الصالح الذي كان يخاطب الألقاب الكبيرة والتفخيم في الخطاب، مستنده في رسول الله بـــ "يارسول الله ويا محمد".

الضبط كان الوكيل العام، مثل جميع الحاضرين، يتابع حديثي باهتمام بالغ، ويحث كاتب الأسماء حتى لا الشاب محند أشهبار على تدوين كل التفاصيل، بل كان يسعفه في كتابة يقع في خطأ.

واستمر حديثي عمن أخذت عنهم علومي.

ظل الوكيل العام صامتاً إلى أن تأكد من توقفي عن حديثي، فخاطبني:

ــ إنك أيها السيد ظاهرة غريبة، وقضيتك من المعضلات الفريدة المعروضة على الغموض، القضاء، وبمساعدتك لنا، قد نصل بإذن الله وعونه إلى استجلاء مكمن هذا البعيد وحاضرك وإلى فك هذا اللغز المحير، وقد نعثر على الحلقة الضالة بين ماضيك أبو حيان التوحيدي" " الحالي هذا، إني أرغب في تصديقك، لكن حتى لو ثبت لدينا أنك تصل إلى الأندلس في عام ذاته! فكيف تفسر لنا قفزك على ألف عام، إذ لا يعقل أن عام ١٤٢٣. فأين ذهبت الألف ٤٠٠، وبعد يومين أو ثلاثة أيام يلقى عليك القبض في عام ونيف، أليس هذا محيراً؟!

التفت إلى محمد شكري وسأله:

ــ هل يمكن لي اقتناء بعض مؤلفات "أبي حيان" بالابتياع أو الاستعارة؟

أجابه شكري:

وعنه ــ إنني يا سيدي الوكيل العام، أحتفظ في بيتي بكتب قيمة كتبت عن مؤلفاته إليك طرفك، شخصياً، كما أتوفر على بعض كتبه، وبإمكاني أن آتيك بها قبل أن يرتدّ سأستعيرها منه في ولي صديق شاعر، هو أحمد اليدري، يمتلك أيضاً بعض كتبه، قبالة "شركة احتكار التبغ"، وأنا في الحال، فبيتانا لا يبعدان كثيراً عن المحكمة، فهو يقيم تأذن لي بالانصراف لآتيك بها؟ شارع تولستوي بجوار مقهى روكسي، فهل ــ لتتفضل، سنبقى في انتظارك.

غادر محمد شكري المكتب، فظلت نظرات الحاضرين مصوبة نحوي بطريقة فضولية، لأحس وكأنني بينهم إبليس أعيش الدهر الأبدي، مما جعل نفوري منهم يشتد ويتضخم، وأخذت وكأن سحابة قاتمة السواد، لم تكتف بتغليفي فحسب، وإنما اقتحمت دواخلي، تمتصني لأتلاشى وأختفي، مثلما تختفي الأضغاث دون استئذان صاحبها.

هل أنا حلم؟ هل أنا سراب؟ هل أنا وهْم؟

أو وددت لو كنت أحد هذه المخلوقات الاصطلاحية، فأعيش مثلها دون إرادة أو وعي الملك إحساس، لكن مشاعري الإنسانية وإحساسي بوجودي بين الوكيل العام ووكيل الذي ومحند أشهبار كاتب الضبط، والشرطة الموجودة خارج المكتب ومحمد شكري غرناطة، أو ظلت تغيَّب لإحضار ما سماه بمؤلفاتي، و "نهاوند" التي تنتظر قدومي إلى فتنبهني إلى أنني كائن تنتظر عودتي التي لم تتحقق. كل هذه الحقائق كانت تصفعني، بعضهما عن بعض زمان يحسب حقيقي قائم في مكانين، أو بالأحرى في زمانين يفصل

بالقرون.

بغداد، فكرت في كتبي ومؤلفاتي، تلك التي أضرمت فيها النار غير آسف قبل مغادرتي التي تغيّب إنها أيضا حقيقة ثابتة، فأي كتب ينسبها محمد شكري إلى شخصي؟ تلك لإحضارها، هل كتبت بعد رحيلي فنسبت إليَّ زوراً؟

(5)

السوسي"، أشهر في غفلة عن إرادتي، طفا إلى سطح ذاكرتي وجه العرّاف "ابراهيم من استحضاري لكل من فقهاء وعَرَّافِي بلاد سوس. يا إلهي، كيف ظل مختفياً بالرغم يجالس سوى السلطان المغربي التقيت بهم بحاضرة فاس. الآن أتذكر كل شيء، كان لا وكبار شيوخ القبائل لا يستقبلهم إلا المغراوي المعز بن عطية، وحتى الحاشية السلطانية الواقعة من ألفها إلى يائها، وأنا بحضرة وكيل إذا أذن له السلطان بذلك. تحضرني تلك كانت غائبة عني بسبب كراهيتي للسحرة والعرافين، أجل، الملك والوكيل العام، ربما فأعلنت عن رأيي هذا لأصدقائي الفاسيين، وكانوا منقسمين حول كنت أمقت السحرة، السوسي بين مدافعين شاهدين له بالتقوى والكرامات، ونابذين يرمونه بالمروق هذا الفقيه النبي والخروج عن الشريعة، فانضممت أول الأمر إلى الفئة الأخيرة، مستندا إلى قول وهو حديث ،"((ص) "من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد (ص بالشريعة ورغبته النبيلة صحيح رواه البزار. لكني وافقت بعد أن تأكدّ لي تمسك الرجل وكذا تحصيله لإذن خاص من في أن يطلع على علومي في التصوف والمنطق والنحو، عظمة السلطان لمقابلتي.

هكذا وبعد أن سبقه رقاص أخبرني بقدومه في موعد حدده، حضر إلى مقر إقامتي في في فندق ضيوف فاس، مصحوبا بحارسيْن من قوات دار المخزن، لكن الحارسَيْن بقيا انتظاره بالبهو إلى أن عاد إليهما قبيل أذان الفجر.

الليلة أجل، استقبلته في غرفتي وأنا في أقصى ما يكون عليه الحرص واليقظة، كانت وطال سمرنا باردة، فسقيته مما كان متوافراً بغرفتي من عصير القرفة والزنجبيل، بتين وزيتون فاسيين وبلح وتشعّب حديثنا إلى أن رُفعت الكلفةُ بيننا، فكذبنا على معدتيْنا سماعه من فنون النحو والمنطق فكَيكَي، وأنا أُسمعه ما استهواه ورغب في مزيد من بين الكرامات والمعجزة والسحر، والكلام، كما روى لي ما زادني علما بالفوارق تمتاز عن الكرامة بالتحدي، أما السحر فلا يؤتى إلا فالكرامة لا تقع إلا اتفاقاً، والمعجزة

بالشياطين من دجّال فاسق يستعين.

كسحر وشنّف سمعي بخوارق كثيرة متنوعة قام بها لإبطال أنواع متعددة من السحر، جميع تعطيل الزواج، وسحر التفريق بين الزوجين، وسحر الخمول، ونماذج لعلاج المحبة أنواع هذا السحر بآيات قرآنية وأدعية شرعية، وخاض في حديثه عن سحر السحر الحلال للجمع بين الرجل والمرأة المتحابين، كما صارحني بتفوقه وبراعته في البعيد عن الشرك بالله.

القصية وهواجسها راقني أني وجدته متحدثاً بارعاً ملماً بخبايا النفوس والمشاعر النفسية نهاوند"، ولربما لرغبة دفينة " الخفيّة، مما جعلني أضعف فأبوح له بعشقي وتعلقي بـــ رُقْيَةٍ أو كرامة تحفظ العهد والحب بيني وبينها زَلَّ لها لساني، فانزلقت منه أسئلة عن أقابلها بالأندلس، شريطة أن لا يكون لهذه الرُّقْيَةِ أو الكرامة لتظل في انتظاري إلى أن نوعان: نوع بالشرك بالله. فاستبعد انشغاله بما يخالف الشرع، وأكَّد لي أن الرّقى علاقة وأسمعني حديثاً يخالف الشرع، فيدخل في باب الشرك، وآخر جائز لابتعاده عن الشرك، الله عليه وسلم قال: "لا شريفاً صحيحاً رواه مسلم في كتاب السلام، عن رسول الله صلى بأس بالرّقى ما لم تكن شركاً".

!ـــ ولكن الأمر يتعلق أيضاً بالمدة التي ستبقاها في الأندلس؟

سألني، وبعد أن فكّر قليلا، أضاف:

عَزَّ وجَلَّ، ـــ سأعمل حِسَابَ ذلك، سأنجز لك رقية من أهم وأنجع ما ألهمني وحباني به ستحفظ عقلك وبدنك بعد سنوات من الدعوات والخشوع والأرق والإرهاق، وهي رقية ما طوّح بك الزمن بعيداً عن بغداد.

أسرعت أجيبه، كاشفاً له سري:

ـــ لكني لن أبقى بعيداً عن "نهاوند" إلى أن أعود إلى بغداد، إنها في طريقها هي أيضاً إلى غرناطة، وهناك سأقابلها.

عاد يفكر ثم خاطبني:

لأعددت لك في ـــ لو أنك تحتفظ الآن بما كانت تستعمله "نهاوند"، منديل أو خاتم مثلا، تلتقيا الحال رقية مماثلة تحصنها وتحفظ عقلها وبدنها مثلك، إلى أن.

أسرعت أفتح صندوق ثيابي، يفضحني حبوري ودهشتي، وأخذت ألقي بقطع الثياب فوق الأرض قطعة قطعة، إلى أن وقعت عيني ويدي على تكة ثم بخنق، فأشرت بهما إلى العرّاف ابراهيم السوسي دون أن أفوه بأي كلام. فابتسم وقال لي:

ـــ ناولني البخنق.

أخذه مني ومرّ به على أنفه يشم رائحته، ثم أخرج ورقاً صقيلا من قرابه، أخذ يدعك البخنق به، قبل أن يخط رقيته بذات الورق.

عن ما إن مرّت أحداث هذه الواقعة بذهني حتى انتفضت في مقعدي، وكأن يداً خفية مع الساحر الأنظار امتدت إليّ فأمسكت بتلابيبي، وهزّتني هزاً تنبهني إلى ما حدث لي مندهشاً إن كنت بأتمَّي، "ابراهيم السوسي" في فاس، مما جعل الوكيل العام للملك يسألني كنت شواظاً من نار فطمأنته بحركة من رأسي على سلامتي، لكنني في داخلي.

ما كيف احتجبت هذه الواقعة عن ذهني، وفكري كله كان مصوباً إلى ما بداخلي وإلى ماضيَّ تخلل رحلتي!؟ كيف لم تخطر ببالي، مع أنها تكاد تكون الحلقة المفقودة بين وقدراتي وحاضري؟ أنا العالم المنطقي الفيلسوف الصوفي، المسخر لجمع حواسي أستحضر كل من الطبيعية والمكتسبة بحثاً وتدقيقاً عن مصدر همّي وغمّي وكمدي، طنجة" و "ثغر طريف" قابلتهم في "حاضرة فاس" و "قصر كتامة" و "ثغر أصيلا" و "ثغر ابتليت به في تلك الليلة يغيب عن ذهني أبرز وجه وأخطره لرجل ساحر كاهن فقيه، الليلاء، ليكون السبب في تغيير مصيري وقدري؟

أجل كل ما أعانيه لن يكون مرده إلا لتلك الرقية التي أعدّها لي "ابراهيم السوسي"، وأمرني بحفظها بجوار قلبي.

إنه السحر بعينه، السحر الذي جعلني أقفز على ألف عام.

وهي ولعل "نهاوند" بفضل هذا الساحر المغربي، قد قفزت هي الأخرى على الألف عام، كيف سيقتنع دون شك قد استعادتها الحياة مثلي، و لعلها تبحث عني في مكان ما. إنما النوع من السحر؟ الرجال بهذه الواقعة الحقيقية؟ من سيصدقني؟ من يصدق آثار هذا

(6)

يساعده ظل رأسي متصدعاً إلى أن حضر محمد شكري، دخل وبيديه مجموعة كتب، مُشْرَبٍ في حملها رجل قصير القامة، مترهل الجسم، أشقر الشعر أشعثه، ذو وجه بحُمْرَة.

وضعا الكتب فوق مائدة الكاتب محند أشهبار، وقدم شكري إلى الحاكِمِيْنِ مرافقه قائلا: قبل ـــ إنه "الروبيو" صاحب دكان بيع السجائر والصحف المجاور لبيتي، وهو صديقي رد عليها أن أتعلم القراءة والكتابة، فابتسم الجميع محرّكين رؤوسهم بتحية خفيفة،

."الروبيو" بحركة مماثلة دون أن يخفي ارتباكه وغادر المكتب

طلب الوكيل العام من الكاتب محند أشهبار نقل الكتب إلى جواره، وأخذ يقرأ عناوينها بصوت سمعناه جميعاً:

."ــ "البصائر والذخائر"، "الإمتاع والمؤانسة"، "المقابسات"، "الإشارات الإلهية

توقف عن القراءة، وخاطبنا:

ــ إن الاطلاع على مضامين هذه الكتب يتطلب شهوراً.

ولم أطق صبراً، فقاطعت الوكيل العام:

ــ سيدي، إني أرفض أن تنسب هذه الكتب إلى شخصي، ذلك أنني أضرمت النار في ومناقشتها؟ مؤلفاتي جميعها قبل أن أغادر بغداد، ثم ما جدوى الإطلاع على الكتب

انتفض الوكيل العام في مقعده وخاطبني مُرْغياً:

بمضامين ــ أنت لست إذن "أبا حيان التوحيدي" الحقيقي، ولذلك تتنصل وتبرر جهلك علماء ثقات، فكيف تتبرأ مؤلفاته، فلا تَنْسَ أن الكتب المنسوبة إليه وقع تحقيقها من لدن منها وتدعي أنك "أبو حيان التوحيدي"؟

ــ إنني لا أتبرأ، وإنما أحيطك علما بأني جعلتُ جميع مؤلفاتي حطباً للنار دون أن أُبقي على واحد منها!

ــ وماذا كان الداعي لإحراق كتبك وبيدك؟ ما سمعنا عن شخص قام بإحراق مؤلفاته!

ختم هذه الجملة الأخيرة بضحكة جوفاء، فأجبته:

وبذلك فإن ــ نعم يا سيدي، هناك العشرات من العلماء الذين أضرموا النار في كتبهم، لي في إحراقها أسوة بأئمة، اقتديت بهم واهتديت بهديهم.

ــ مَن هم هؤلاء الأئمة والعلماء الذين أحرقوا كتبهم؟

سألني الوكيل العام، وطلب من الكاتب أن يدون جوابي بدقة فأسرعت أجيبه:

الطائي" ــ "أبو سليمان الداراتي"، الذي جمع كتبه في تنور وسجرها بالنار. ومثل "داود في باطن الأرض فلم الذي ألقى كتبه في البحر، و "أبي عمرو بن العلاء" الذي دفن كتبه إنني يا مولاي حين أحرقت .يوجد لها أثر، وشيخي "أبي سعيد السيرافي" سيد العلماء معي على أن الإنسان حين ينحدر كتبي كنت أعاني من حالة نفسية متردية، وقد تتفق آماله، ولا يلبث أن يدرك معنى العبث إلى غروب عمره وتتكشف له تفاهة الدنيا، تتبدد إلى كتبي، كنت أراها تجسيداً معبراً عن بكل حدته وقسوته. هكذا، حين كنت أنظر مجد أدبي، ولذلك لم أر داعيا للتمسك بها أو إخفاقي في الظفر بما كنت آمله من

فيها الحرص عليها، فقمت بإضرام النار.

ــ إذا كانت الحال كما تقول، فمعنى هذا أنك لست مؤلف هذه الكتب التي بين أيدينا؟

وتدخل محمد شكري، مستأذنا في الكلام:

ــ سيدي الوكيل العام، المعروف عن أبي حيان التوحيدي، والذي تؤكده هذه الكتب التي من نسخ ظلت في بين أيدينا نفسها، أنه أضرم النار في جميع مؤلفاته، إلا ما نجا منها كتاباً على ما أتذكر حوزة أصحابه، ولذلك لم يصل إلينا منها إلا حوالي عشرين.

فرد الوكيل العام كمن يخاطب نفسه:

ــ من الحكمة إذن التريث، وعدم مناقشة المتهم في مضامين هذه الكتب إلى أن يتم الاطِّلاع على ما نختاره منها، مع مزيد من البحث.

والتفت نحوي، تعلو وجهه ابتسامة تعبر عن قناعة مؤجلة بشخصي، وقال لي:

ــ هل توافق على ماقاله السيد محمد شكري؟

حركت رأسي بالإيجاب، وقلت:

ــ فعلا، فقد سبق لي أن قمت بنسخ بعض مؤلفاتي، وأهديتها إلى ثلة من شيوخي هذا وأصدقائي ومريديّ، غَيْرَ أن عددها كان لا يزيد عن عشرة كتب، أو لربما ضعف أحتفظ العدد، لا أذكر. أما أكثر المخطوطات والبحوث والدراسات، بل جميع ما كنت به، من كتبي وكتب غيري، فقد أضرمت فيه النار استجلابا لراحة نفسي.

جال الوكيل العام ببصره في وجوه الرجال، يستطلع ذهولهم، وخاطبني:

ــ أما زلت تذكر من أهديتهم كتبك؟

الوحيد الذي ــ واحدا واحدا، وفي مقدمتهم الوزير "أَبُو الفضل بن العميد"، ذلك أنه غريب مؤثر، فاعل عوضني عن تلك الكتب، لكن مقايضته غير المتوقعة كانت من نوع على استعداد لسرد تلك فيما حدث بعدئذ في مسير حياتي كلها. وإذا سمح المقام، فإني الواقعة التي لم أؤرخ لها ولا دونتها في أي كتاب.

ــ تفضل، إننا على استعداد لسماع هذه القصة.

نظرت بدوري إلى وجوه الرجال الصامتة، فرأيت وجه محمد شكري أكثرهم ذهولا وقلقاً، فقد كان ينظر إليّ كالمأخوذ، فبسملت وقلت:

ــ كل شيء ابتدأ في ذلك الصباح البغدادي الرائق، حين نَقَرَ باب منزلي رسول يحمل منه الكتاب، في يده كتاباً من "الوزير أبي الفضل بن العميد"، فتحت له الباب وتسلمت إحدى بناته، فقد كانت فرمقت سيدة تقف خلفه، لم أحفل بوجودها، إذ حسبتها زوجته أو

لكنه قبل أن يهم كسائر النساء تحجب وجهها وجسدها بعباءة وخمار أسودين، بالانصراف، بادرني بقوله:

ــ إن سيدي الوزير، يهديك سيدتي "نهاوند"، وأشار إلى مرافقته.

جارية، لن أزعم أني لم أرتبك، فلم تكن العادة أن يُهدى رجل من عامة الناس امرأة أو إلى الدخول، لكنني أخفيت ارتباكي وتصرفت كما لو أن الأمر عادي، فدعوت المرأة وأوصدت باب داري وودّعت الرجل بعد أن حمَّلته شكري وامتناني إلى سيده الوزير.

فوجدته في داخل الدار، والمرأة تقف بجواري، ألقيت نظرة سريعة على كتاب الوزير، أمهات المؤلفات، لكن يوصيني خيراً بـــ "نهاوند"، ويهديني إياها جزاء ما أمتعته به من لتملأ رأسي بالتساؤل، ذلك أني عبارة "أجمل محظياتي" الواردة في الكتاب استوقفتني، درجة، فهي لا تُشَرَّفُ بهذا اللقب إلا بعد أن أعلم أن المحظية في سلم الحريم، أعلاهُنَّ الجواري، لكنها ستكون لدي امرأة بدون ألقاب! قلت في نفسي يقع تفضيلها على جميع.

والتفت إليها لأستنبط من الخبر حقيقة المعنى. في تلك اللحظة رمقتها وهي تضع بدخولها في خمارها فوق حاشية سجادتي الشيرازية، بعد أن خرجت من عباءتها إعلانا حتى لا أقع على عصمتي ومتاعي، فأصابني الدُّوار من فرط المفاجأة إلى أن تماسكت ناعمة البشرة كمرمر الأرض، ذلك أني وجدتها عفراء، فاتنة الحسن، ممشوقة القَوام، آسر، إنها نموذج جمال فارسي، بيضاء كعاج هندي، وبعينيها الواسعتين كحل طبيعي المحظيات في قصور الخلفاء.

بيدي، يا إلهي، مجرد مؤلفين من بنات أفكاري، وكتاب الحيوان للجاحظ كنت قد نسخته زكريا وبعض كتب أرسطو المترجمة من السريانية إلى العربية على يد صديقي أبي الافتتان والدهشة يحيى بن عدّي النصراني، وها أنا أجازى بامرأة مغلفة بالسحر حدّ.

حسناً فعلت بإهدائي الوزير "أبي الفضل" تلك الكتب، وإلا ما كنت لأقف شاهداً على ما تحدثه المرأة في أحوال الرجل.

توقفت عن الكلام متأملا تلك الأيام، فضحك محمد شكري، وطلب مني أن أستمر في فاستأنفت حديثي، وابتسم الوكيل العام وهو يشير عليَّ بيده أن أواصل سرد قصتي، القول:

سعيدة ــ ظلت "نهاوند" منتصبة بجواري نخلة باسقة، ومن انشراح محياها عرفت أنها وألقيت به فوق بقدرها، أنا أيضا بقيت مأخوذاً، لكنني نزعت عقالي من فوق رأسي، بأصابع يدي، البساط الفارسي نفسه، وصرت دون إرادتي أتلمس شاربيّ وأفتلهما

أليس القدر هو الذي سخّرها والنشوة تشتعل في فؤادي، فكلنا محكوم بإرادة الله ومشيئته، مملوكة لي، وسخّرني مالكاً لها؟ تلك مشيئة الله.

(7)

ــ كم مدة بقيت مع "نهاوند"؟

سألني محمد شكري.

ــ ثلاث سنوات هي كل ما تناسلته أيامي مع "نهاوند"، وقبلها لاشيء يستحق نبش أحواله، تفاصيله. ثلاث سنوات تغير خلالها طبعي وديدني، حتى شيطان ترسّلي انقلبت والجبن، أضحى يكشف لي عن مكمن المكارم والشجاعة بعد أن كان يفضح لي اللؤم يرشدني إلى المحسن لأمدحه عوض أن يدلني على المسيء لأذمه.

عنها، تلكم حقائق مبهرة. فقبل "نهاوند"، كان طبعي أن أتتبع نقائص الناس وأن أحفر مكانة الهجاء في لدرجة أني كنت قد بلغت الذروة في الذَّمِّ والهجاء، حتى زاحم ترسلي رائقة، لتصير معها نفسي شعر "جرير" و "الفرزدق". لكن بمجيء "نهاوند" صارت أيامي على تحويل مصائرنا من تحس بالطلاوة في كل شيء. تلك خاصية العشق، فهو قادر الأرض سوف لن ينعم به في طريق النار إلى طريق النور، فمن لا ينعم بالنور في السماء.

القادمة هكذا صرت أرى الأشياء أنا الكهل النازل من الظهيرة، وهي الحسناء الربيعية من علم ومعرفة، من الضحى، وتمنيت لو تمدني بولد ذكر أصقل عقله بما حباني به الله والده أبي الفضل بن فأسعدَها أن يكون لي معها نسل، لكن مولانا "أبا الفتح وريث وعقابا بي على كتابي "مثالب العميد"، أجهض حلمنا حين استعادها إليه نكاية فيَّ الوزيرين" الذي فضحت فيه والده.

في بعد رحيلها أظلمت الدنيا من حولي، فصرت كمن ضل طريقه، ولم أعد أطيق البقاء أحدد المشرق، أضرمت النار في مؤلفاتي جميعها، وقررت الرحيل بعيدا، دون أن وجهة معينة، إذ ازدحمت في رأسي فارس مع الهند مع السند، وحين حضرتني عن الأندلس، أمسكت بها، وألغيت ما عداها، وأخفيت قراري عن جميع بني البشر، إلا وصيفتها نهاوند، التي حين علمت بعزمي على الهجرة إلى الأندلس، سرّبت لي مع كان مفعولا خبراً، مفاده أنها ستظل في انتظاري إلى أن أعود ويقضي الله أمراً.

مُفَادُهُ أنها أفلحت في يوم آخر، ومع الوصيفة ذاتها، أبلغتني أجمل خبر تلقيته في حياتي،

وسترافقهن ضمن قافلة تتأهب للسفر في الانضمام إلى حريم أحد التجار من معارفها، إلى غرناطة، طالبة أن أظل كاتماً سر سفري.

كتاباً موجزاً، من فرط سعادتي لم أنم تلك الليلة، لكن قبل أن تغادرني الوصيفة، حمّلتها ولا إلى متلقيه، قلت فيه مبهما لمن قد يصادفه سواها، من غير أن أشير فيه إلى مرسله، العريف بالمدينة المقصودة، إلى بالحرف الواحد: "كل صباح يوم جمعة، عند مدخل جنة أن يقضي الله أمراً كان مفعولا".

كنت على يقين كامل، من أنها بفطنتها وذكائها ستعرف أن موعد لقائنا سيكون في صباح يوم جمعة عند مدخل حدائق جنة العريف في غرناطة، ففي هذا الوقت، ينشغل النسوة في هذا الناس بالاغتسال وارتداء الحلل النظيفة، استعداداً لصلاة الجمعة، كما أن على جنة العريف إلى أن الوقت يتبادلن الزيارة مما يتيح لنا التردد كل صباح يوم جمعة نلتقي.

ــ جميل، رائع.

صاح محمد شكري وأضاف:

كيف تم لقاؤكما في غرناطة؟

المُنَقّب" الساحلية، " ــ لم نتقابل، إذ رأيت الدرب دوني، فقد ألقي القبض عليّ في مدينة قبلي، ولربما هي الآن تتردد كل قبل أن أبلغ غرناطة، ولعل "نهاوند" قد وصلت إليها صباح على حدائق جنة العريف منتظرة قدومي.

ــ تقول إنها تتردد الآن على جنة العريف. أتعلم أن الآن هذه قد مرّ عليها عشرة قرون؟

علق شكري وسألني، لكنني لم أجبه، فعاد يسألني من جديد:

ــ أكتبت شيئاً عن سنواتك الثلاث مع "نهاوند"؟

ذلك أن ــ سبق وأن قلت بأنني لم أدون شيئا عنها، إنني فوق مرتبة الكتابة عن النساء، الحديث عنها في الشعر وحده في اعتقادي، دون الترسل، ما يُنظم عن المرأة، لكن هيبتهم المجالس الرجالية الخاصة، لا يضر بمقام الفقهاء، أو ينال من.

ــ وهل نظمت فيها شعرا؟

سأل محمد شكري في عجلة من أمره.

صمت الجميع وكأنهم تضامنوا مع سؤاله، فاعتدلت في مقعدي، ورفعت رأسي إلى المكتب، باحثاً عن مقاطع تناسب المقام، وأنشدتهم مما أحفظه عن أحد شعراء سقف

قصر كتامة:

آهٍ مما أضرَّ بي من غرامي
واشتياقي ولوعتي وغليلي
سادتي هل إلى الوصالِ سبيلٌ
إنّني لم أجدْ له من سبيلِ
فارحموا مَنْ شكا لغير رحيمٍ
كم له في ذوي الهوى من قتيلِ
ناله عِزُّكُم وذَلَّ لديكم
فاعجبوا منه للعزيز الذليلِ
وبشوقي بعثتُ قلبي رسولا
فارفقوا لا يُحلُّ قتل الرسولِ

حرك الوكيل العام رأسه مبتسماً، وخاطبني:

ــ لنَعُدْ إلى الموضوع، أين اختفت الألف عام وأنت مازلت هو أنت؟

حثتني أكثر ــ أعترف يا سيدي بأنني محاصر بهذه الواقعة التي تكاد تتلف عقلي، والتي الأمّارة بالسوء، "ومن من مرة على الانتحار، ولولا إيماني بالله ما كنت لأتقي شر نفسي يحتسب"، صدق الله العظيم يَتَّقِ الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا.

تلك وضعت رأسي بين راحتي يدي، وطفقت أفكر باحثاً عن الحلقة المفقودة في حياتي، أومن بالسحر التي كان للعرّاف "ابراهيم السوسي" يَدٌ فيها دون شك، لكنني شخصياً لا.

لكن الوكيل العام مزق حبل تفكيري حين عاد لسؤاله:

ــ أين تظنّها اختفت الألف عام؟ ماذا حدث لك في إسبانيا؟ أتتذكر واقعة معينة لها صلة بهذا الموضوع؟

ــ نعم أتذكر.

قلت، وخفضت رأسي مفكراً، متذكراً تفاصيل ما حدث في العدوة الأندلسية، فأسرع الوكيل العام يحثُّني بأسلوب لبق على الحديث:

الساحل ــ تكلم، اسْرُدْ كل ما تتذكره من أيامك في اسبانيا، منذ أن ركبت البحر من ما تجود به المغربي إلى أن ألقي عليك القبض هناك، فلنا متسع من الوقت لسماع كل ذاكرتك، تفضل، توكل على الله.

غادرت ــ حين وَطِئَتْ أقدامنا أرض الأندلس في بلدة "طريف"، وكنت ضمن القافلة التي

ودليلا لنا إلى غاية بلدة فاساً، استأجرنا ثلاثة فرسان بخيولهم وأسلحتهم، ليكونوا حراساً أيام، وبها قد نستعين بدليل آخر يرافقنا إلى "المُنَقَّب"، التي قيل لنا إنها تبعد مسافة ستة مسافة يوم واحد "غرناطة" التي لا تبعد بسوى.

لمكاره أو كان الصباح بارداً، فسارت قافلتنا في حفظ الله ورعايته، دون أن نتعرض الصاعدة مخاطر، إلا ما كان من وعورة بعض الطرق والممرات والمسالك الجبلية النازلة المشرفة على البحر أحيانا، والقاصية عنه أحياناً أخرى.

المشاهد مررنا بقرى ومداشر ووديان وأنهار، تثير الإعجاب والدهشة، لدرجة أن بعض أيقظت بفؤادي مشاعر كانت آسنة، حتى أنني نظمت عنها شعراً.

الأندلسية فرادة نعم، أقرّ بجمال منتزهات فاس وعجائب ساحل بحر الظلمات، لكنَّ لهذه كان البحر الرابض وطعما آخر، مذاق شراب ساحر يسكر بمجرد وقوع البصر عليه، والطبيعة إجلالا، حتى دوماً بين تلك الجبال والهضاب والسفوح، يزيد الأنفس تجليا سماوي نزلت لتخفف عنا المطر المتساقط فوق رؤوسنا، بدت لنا زخّاته دموع فرح محن الطريق ونوائبه.

إلاَّ في ربما اندثرت اليوم تلك المدن والمداشر والوديان والأنهار، أو هي قد لا توجد طرية، إذ لم يمر على بطون الكتب، لكنها بالنسبة لزماني الخاص بي مازالت لدي طلية رحلتي هذه سوى بضعة أيام، يالفظاعة القدر!

سكت عن الكلام بعد أن انتبهت إلى أنني خضت في حديث قد لا يروق الوكيل العام، وقبل أن أبادره بتقديم عذري، قاطعني مبتسما.

تفاصيل ــ أرجو أن تستمر في حديثك بالكيفية التي تريحك، إننا جميعا نستمتع بجميع العقول، استمر لا رحلتك، إنك أيها الشيخ متحدث باهر ماهر، تعرف كيف تستحوذ على تتوقف؟

شكرته وأضفت:

والإرهاق، وجدنا استقبلتنا مدينة "المُنَقَّب" بمساءٍ شاتٍ، عاصفٍ بالرياح والزوابع والتعب كل الكائنات من دور وبحر الظلام قد سبقنا، ناشراً رداءَهُ الأسود عليها، فحجب عنّا سَوَاقٍ جارية بسيول المياه وهضاب، حتى الأرض من تحت حوافر دوابنا تحوّلت إلى أوتاد خيامنا فوق ذلك الزمهرير المتدفق المنسابة من أعالي الجبال، فاستحال علينا دق واحد منا البقاء فوق ظهر دابته، والماء فوق رأسه المصم للآذان، مثلما استحال على كل مِفرٍّ مُتدفق وتحت أقدام مركوبه مِكرٍّ.

عَدَّ بعضنا هذا الاستقبال نذير شؤم، لكنني شخصياً كنت قد اعتدت أن لا أتوجس شراً إلاَّ من بني آدم، وليس من غضب الطبيعة.

صغيرة ظللنا وقتاً من الزمن نتحسر على حالنا كالأيتام، إلى أن اهتدينا إلى مغارات وبغالنا وحميرنا تحت تزدان بها الجبال، أرشدنا إليها حراسنا الفرسان، فقيّدنا خيولنا للقطع بسيف أو خنجر، وابل مطرٍ عاصف في ظلام سميك، كأنه شيء مادي قابل عن حراسة الدواب لدرجة أن كلابنا خشيته، فلحقت بنا إلى المغارات متخلية.

مفاصلي كنت آخر من اهتدى إلى مغارة نائية منعزلة، دخلتها والبرد موشك على تجميد يرتديه إلا أكابر القوم وقبض أنفاسي، فاستبدلت بثيابي المكسوة بالماء قفطاناً فاسيا لا هذا، لكنني قلت في نفسي، إن عند استقبال ضيوفهم، وليس أثناء نومهم، كنت أعرف للضرورة أحكاماً.

وفوقها وفاتني أن أقول، إنني قبل أن أرتدي القفطان الفاسي، كنت قد لبست تكة عراقية البرد، فنهضت غلالة عراقية أيضاً، وبالرغم من ذلك ظلت أوصالي تصطكُّ من هجمة صوفيّاً بقب كبير غطّيتُ به وأضفت فوق القفطان، بَقيراً وشملة عراقيين ثم جلباباً فاسياً فاكتنفني دفء معقول، لعله كان السبب رأسي بعد أن دثرته بكوفية وطرحة عراقيتين، خنجري بجانبي حتى داهمني سبات في أني ما إن توسدت سرج حصاني ووضعت مجهولة على مفرق رأسي، فأوقفت تشغيله في عميق، وكأنه حسام مهنّد أَهْوَتْ به يد الحال.

حسبت وحين استعادتني الحياة، وجدت الظلام ما زال مخيماً على المغارة، ففزعت، إذ كاملاً دون نفسي قد صحوت قبل طلوع النهار، مستبعداً أن أكون قد نمت ليلتي ويوماً نائية فلِمَ لا يكون أن يتولى رفاقي إيقاظي. لكن الشك لعب برأسي، فمادامت المغارة مرافقيَّ قد ضلوا الطريق إليها فتركوني نائماً.

طواف قمت أبحث عن المنفذ الذي تسللت منه، فزكمت أنفي رائحة رطوبة عطنة. وبعد أو يتيح لي وتطواف، تأكد لي أن المغارة مغلقة، ولاشيء بها يسرب الضوء أو الهواء، ضوضاء الخروج منها، ذُعرت، فأمسكت بخنجري، وطفقت أقرع به الجدار وأحدث لنجدتي وصراخاً عسى أن يُقَيِّض الله لي انتباه أحد مرافقيَّ، فيسرع.

قرعت وقرعت وقرعت، وصرخت وصرخت وصرخت، فما انتبه أحد إلى قرعي أو صراخي، فاستبدلت بخنجري سرج حصاني، نزعت عنه الركاب وصرت أقرع به سمع وذا الجدار، محدثا دوياً يخترق سمع الأصم، كنت لا أتوقف إلا بعد أن يكل ذا الجدار

بأن ذلك مَتْنِي، فأعيد مواصلة الدق والقرع والصراخ، وأعيد وأعيد، إلى أن صار يقيني قلبي الذي الجحر المسكون بالظلام، سيكون الشاهد الوحيد على نهاية حياتي، وأن الغناء، سيتوقف بعد تتسارع دقاته، مثلما تتسارع دقات الطبل إعلانا لخاتمة وصلة لحظات لتختتم وصلة وجودي.

إنَّ عِلمَنا لو أحاط بموتنا متى سيكون، لكان ذلك مفسدة لنا، ومحنة شديدة علينا، " فالجهل بالشيء راحة، والعلم بالشيء تعب".

سبق أن قلت هذا متفلسفا متخيلا، وها أنذا أعيشه حقيقة وواقعاً، ألمس بجميع حواسي مفسدتي ومحنتي ونهاية حياتي.

أفكار مثل هذه وحدها، كانت تطرق رأسي، فشعرت بالوهن، ولم تعد قدماي تتحملان سقطت ثقل جسدي، ولا عادت يدي تقوى على الإمساك بالركاب لقرع الجدار، وبعد أن الخارج، على الأرض مستسلماً لقدري ناطقاً بشهادتي، دوّى في أذني صدى لطرق من الحد عليه في فأرخيت سمعي لأتبين الأمر بإحساس من يستمع إلى منطوق حكم بإقامة جناية كبرى بالإعدام أو البراءة.

تأكد لي الطرق من الخارج بوضوح لا لبس فيه، فأحسست بعينيَّ تغرورقان بالدمع إعلانا عن ولادتي من جديد،. أنا إذن رجل حي يرزق، هناك سعي حثيث في الخارج لإنقاذي، كنت أعرف أن شهامة رفاقي المغاربة لن تجعلهم يتخلون عني في مغارة خَلْعَ مهجورة، ويحلو لهم سفرهم إلى غرناطة. ما كانت شيم مريدي سُنَّةِ مالكٍ أصحابهم، وقد عاشرتُهم وخبرتُهم زمنا تضيع أيامه في العد.

قدمي، لم أدر كيف غشيتني عافيتي، واشتدّ بأسي، لأجد نفسي وقد انتصبت واقفاً على من قوة فتناولت ركاب سرجي وسط ظلام القبو، وصرت أقرع الجدار بكل ما أُوتِيتُ مستعادة خارقة، وأصرخ بذات القوة نفسها:

!!ــ أنا "أبو حيان التوحيدي"، أغيثوني، أغيثوني

الهجيرة ازداد هدير المعاول المنبعث من الخارج حقيقة قائمة كاسمي وصراخي، كشمس الحياة وبغداد وفاس، وبقدر ما كانت دقات الحفر تقترب، كنت أقترب من.

المغارة، ذلك لم أدر إن كان الجدار قد تحطم، أم إن أولئك الرجال انبعثوا معي بداخل أصواتاً ترطن بكلام غريب أن نوراً كلمح البرق كان قد أعمى عيني فلم أتبيّن منهم إلا بي وتقتادني في مجاهل لم أتبيّنها، لم تسمعه أذني من قبل، بعد ذلك شعرت بِأَيْدٍ تمسك بمكتبكم هذا إلى أن استعدت بصري بداخل مكتب شبيه.

أسئلتهم تتقاذف من بعد أن سقوني ماءً ولبناً، وألقموني رغيفاً حدَّ الارتواء والشبع، بدأت الطريق الذي سلكته إلى حولي، مرّة عن كيفية وجودي بذلك المكان، ومرّة أخرى عن يتحدث بعربية ما، هو الذي الأندلس، ومرّة عن أسماء وأوصاف رفاقي، كان أحدهم كلمة واحدة من كل ما أخبرتهم به، تولى وساطة الترجمة، فشرح لي أَنَّهم لم يصدقوا ضخماً كان مقاماً بمكان وجود المغارة منذ ولا هو نفسه صدّق ذلك، وذكر لي أَنَّ بناء المختصين في علم الآثار الإسلامي، وأنه يستحيل على سنين بعيدة، لا يضبطها سوى تلك المغارة والبقاء بها حياً، فعدّني الجميع مجنونا وقال أي كان من بني آدم ولوج مجرد شبح أحدهم عني أنّي.

(8)

بعرّاف مقتدر يدعى ذلك ما حدث بالأندلس، لكن قبل ذلك وأنا في فاس، كنت قد التقيت أو لنقل حرزاً كما تسمونه في "إبراهيم السوسي"، فأعدّ لي رقية، كما نسميها في العراق، بعيدا عن بغداد، فهل لهذا السحر علاقة المغرب، وأخبرني بأنها ستحفظ بدني مادمت السنين؟ هل أفلح ذلك الساحر إلى هذه الدرجة؟ لعله كان ببقائي على قيد الحياة كل هذه نائماً بتلك المغارة مدة عشرة قرون، هذا ما أرتاب فيه، غير أنّ ما السبب في بقائي نفسي، هو أنني أبو حيان التوحيدي، وأعرف خلاني ومعارفي وتاريخ وآداب أعرفه عن وفلسفة المسلمين قديمها وحديثها إلى زماني الذي عشته، والمتوقف في عام ٤٠٠ عبده تولاه هجرية. أما ما جاء بعده فهو لدي في عداد الغيب. "إن الله إذا أراد نجاة بلطف من عنده". صدق الله العظيم.

"ظلت عيونهم جاحظة مشرئبّة نحوي في خشوع وذهول، لكن الشاب "محند أشهبار عرفت أنها الكاتب، وفي غفلة مني ارتمى عليَّ يعانقني، فترك بخدّي شيئاً لزجاً ساخناً، دموعه، وأن ما فعله جاء تعبيراً عن تصديقه لروايتي.

أجل، صدّق أصغر الرجال أنّني أبو حيان التوحيدي القادم من دهور ولت وانقضت، وإلا ما كان ليبلل خدّي بما فاضت به عيناه دون إرادته.

أراحني ما فعله الشاب، خفف عن كاهلي بعض ثقل همومي، دلني على أن منطق الرجال لم يطرأ عليه سوى تغيير طفيف، وأن الأحاسيس ما زالت توازي الأدلة ووعي دليله العقليه، فمن يستعص عليه الاحتكام إلى البرهان العقلي يسخرْ أحاسيسه لتكون. كي واكتنفني شعور قوي بأن دورهم آت لاريب فيه، وأن الأمر يحتاج إلى بعض الوقت

هذا الواقع، تلين مداركهم، فما دام الطرق مشتداً، فإن عقولهم لن تنفك تنفتح ليتقبلوا تصديقه، فأنا واقعي هذا الأسطوري المحير، وهو واقع والله يستعصى هضمه ويصعب إليهم من حقبة زمنية أعرفها نفسي أكاد لا أتقبله، بالرغم من أني صاحب الشأن، القادم البائدة التي أنا وحدي الأقدر على ويجهلونها، الشاهد الأوحد عليها، على أيامي تلك الحاضرة التي لا أعرف منها سوى هذه الوجوه الآدمية الإحاطة بها، وأيامي هذه القليلة المحيطة بشخصي.

ظل ذهني منشغلا في حواره الباطني إلى أن نطق الوكيل العام للملك، يخاطبني:

حيان ــ إنني يا سيدي أود لو أصدق كل كلمة تصدر عنك، فإذا كنت أنت حقا الشيخ "أبا أن أتحدث التوحيدي" كما يدلني قلبي، فسأكون من الشاكرين له عز وجل، إذ قيض لي ومكانتك إلى شخصية فريدة قادمة من زمن بعيد، شخصية في علو قدرك وعلمك الرفيعة في التاريخ العربي الإسلامي.

توقف يفكر وقد غشيت محياه سحابة حزن، وبصوت أجش خاطبني وكيل الملك:

ــ إنني أحس بقشعريرة تسري في بدني، ذلك أني من فرط الذهول أكاد لا أصدق ما القادم من بطن "أسمع وأشاهد، يا إلهي، كيف أتولى استنطاق العالم "أبي حيان التوحيدي وكأنه مجرم آثم؟ إنني التاريخ، وآمره أن يقف دون حركة، ويجعل يديه مغلولة خلفه أعتذر يا سيدي، ألتمس منك المغفرة!

وتدخل الوكيل العام:

ــ والله ما عدت أقوى على الاستيعاب، وأظن أني في حاجة إلى بعض الوقت.

توقف قليلا وكأنه شارد الذهن، ثم أضاف:

تجبرني ــ بالنظر إلى مهمتي الجسيمة رئيساً للسلطة على هذا الإقليم، فإن مسؤوليتي لها مثيل في على التدقيق والتمحيص، خاصة وأنا أمام واقعة غريبة وفريدة، لم يسبق تاريخ القضاء.

وأدار وجهه نحو وكيل الملك يخصه بخطابه:

هذا المحضر يجب أن يحفظ وبطريقة قانونية، والتعليل المناسب هو التقادم.

والتفت نحوي مبتسماً:

تاريخ قديم ــ إنها إجراءات عادية لقبر الملف، ذلك أن هجرتك إلى إسبانيا قد تمت في يطبق بأثر رجعي، بعيد، والقانون لا يسري إلا على الجرائم المرتكبة في ظله، أي لا نبعث رسولا وهي قاعدة مستمدة من القرآن الكريم: "وما كنا معذبين حتى".

ما إن توقف الوكيل العام حتى صرخ محمد شكري:

ـــ هنيئا سيدي أبا حيان.

فتبعه هتاف بالترحيب.

لكنني بالرغم من صواب القرار، والفرح الذي عم فطفا على وجوه الحاضرين، ظل نحو ذهني منشغلا بقضيتي الأساسية، تلك التي طغت على كل ما عداها، فبعد انحداري لم ألفه ولم خريف عمري، أجد نفسي أبدأ المسير لأتعلم كيف أواجه عالما جديداً غريباً مستمدة من الإسلام، بدت لي يألفني، فحتى قوانينه التي يتحجج الوكيل العام بقوله إنها كان المسلم في بلاد الإسلام يُعَاقَبُ صادمة، إذ كيف بالله يعاقبون على الهجرة، متى علانية؟. ألم يهاجر الرسول سرّاً من مكة إلى على الهجرة سواء أكانت سرية أم كتابه إلى الهجرة في أكثر من آية؟ "ومن يهاجر في سبيل الله المدينة؟ ألم يَدْعُ الله في مُرَاغماً كثيراً وسعة". "ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يجد في الأرض يدركه الموت فقد وقع أجرُه على الله، وكان الله غفوراً رحيماً".

أمر يستعصى على الفهم، ما علمت بوجود دين أو مذهب يقيم الحد على المهاجر شأن بني السرّي، ما أعلمه يقينا هو أن الله سبحانه وتعالى في قضية الهجرة، رفع من والأنصار الذين اتبعوه آدم وسوّاه برسوله حين قال: "لقد تاب الله على النبي والمهاجرين من القابع الذي لا يهاجر، فنيته في ساعة العسرة". إن للمهاجر في الإسلام مرتبة أعلى والعيش أو الفرار من الضيم والذل. فهل في لا تتعدى طلب العلم أو البحث عن القوت رسوله هذا ما يخالف كتاب الله وسنة.

على كان الوكيل العام يملي على الكاتب محند أشهبار تعليل نجاتي من قسوة العقاب الموضوع، جريمة هجرتي السرية البشعة في نظرهم. وفكرت في أن أناقش الرجل في وهو رئيس وأن أعلن له بأن قوانينهم تخالف الشرع، لكنني خفت أن تغضبه أفكاري صدره تجاه محكومه السلطة، فينقلب لينه إلى ما لا تحمد عقباه. فالحاكم عادة ما يضيق لو أهانه، تلكم طبائع إن عارضه، مثلما يتسع صدره أمام من هو أعلى سلطة منه حتى المغاربة، فقد عرفتها نابعة من الإسلام، الحكام لو يعلمون! ثم إني أجهل قوانين هؤلاء عام، وجائز أن تكون قد انقلبت إلى غير منبع الإسلام لكن ذلك مرَّ عليه أكثر من ألف بيزنطية أو مجوسية، أو قد يكون مذهب المدعو حاميم ومذهب مالك، كأن تكون ظهر في غمارة قد انتشر، فساد ربوع المغرب، إذ لا يعقل أن المتنبي، البربري الذي بلد يظله الإسلام، إلى جريمة يقام عليها الحد تتحوّل الهجرة في.

كانت هذه الخواطر تموج مسرعة في ذهني، فسكتُّ عن الكلام وأنا أحدج الحيرة المرسومة على وجوههم جميعا تتضاعف، لكن خواطر أخرى مضادة اقتحمتني لتثنيني من عمّا اعتبرته حدّة في لهجتي، إذ فكرت في أني ما دمت سأصدق القول في موقفي أن أغير الهجرة، وهو موقف عقلاني سليم، يساير الشرع، فليفعلوا بي ما شاءوا، دون من منطقي وصراحتي، حتى لو كان لهم منطق مخالف، فالصدق يحمل في كنهه أبوحيان " براهينه، ويكشف عن قوة صاحبه فيمنحه التقدير والاحترام والنفوذ، فأنا التوحيدي" المجبول على قول الحق.

وقبل أن أتحدث إليهم بالصراحة التي اعتزمتها، قاطعني الوكيل العام في أدب جم:

عزيزاً ــ سيدي أباحيان المحترم، لتعدّ نفسك من هذه اللحظة، ضيفاً مكرّماً مشرّفاً المدينة التي شرّفتها وغاليا، ستنتقل الآن إلى الإقامة في أفخم فندق في المدينة، هذه جديد، وهي المدينة نفسها التي بقدومك قبل أن تغادرها إلى الأندلس، وعدت لتشرفها من الله في الربع الإسباني كله غادرها وليُّها طارق بن زياد، لينشر كتاب.

وتدخل السيد محمد شكري مخاطبا الوكيل العام للملك:

ــ سيدي، إذا سمحتم، فإنني أدعو الشيخ أبا حيان للإقامة في شقتي، إلا إذا كان لكم رأيٌ مخالفٌ!

أجابه الوكيل العام:

ــ إن الشيخ أبا حيان سيحل ضيفاً على وزارة العدل، وليس على الخواص، فالرجل في حاجة إلى راحة كاملة.

وتدخل وكيل الملك مخاطباً رئيسه الوكيل العام:

ــ هل تأذن لي يا سيدي أن أحجز له جناحاً في فندق "المنزه"؟

المحيط ــ لا أبداً، أنا أفكر في إقامة "السراب" فهو فندق آمن، ثم هو مطل على سيكون في منآى الأطلسي، بحر الظلمات كما سماه أبو حيان واستهوته مروجه، فهناك تفرد له عن كل مضايقة، يجب أن يخصص له أجمل جناح مشرف على البحر، وأن وزير العدل حراسة خاصة، إنني سأصحبه بنفسي إلى الفندق، بعد أن أتصل بالسيد لأطلعه على هذا الحدث السعيد.

صمت قليلا وأضاف:

القضاة أو هذا، وأن لا يتسرب إلى علم ــ آمركم جميعاً بأن يدفن هذا السرّ في مكتبنا بشخصه من المحامين أو غيرهم، فالشيخ أبو حيان يجب أن يستريح، وكل ما يتعلق

الوحيد عنه إلى طلبات وغيرها يجب أن أعلم به حفظاً لسلامته وراحته، فأنا المسؤول حدّ هذه الساعة!

وتدخل محمد شكري موجها كلامه إلى الوكيل العام:

ــ رأيك يا سيدي عين الصواب، وحبذا لو أذنت لي أن أبسط لك بعض ما تناقلته الأخبار عن حياة أبي حيان.

حرك الوكيل العام رأسه موافقاً، دون أن يقوى على إخفاء امتعاض لاح على محياه، فأضاف شكري:

القلائل الذين ــ أبو حيان، لا يحب الأضواء ولا تستهويه حياة البذخ، وهو من الأدباء فعلت في مؤلفاتي "الخبز كتبوا التاريخ الباطني المسكوت عنه في بغداد، تماماً مثلما لحياة المهمشين والمنبوذين الحافي" و "السوق الداخلي" و "وجوه"، حيث أرّخت ومثلما كتب مؤلفا كاملا ذم فيه صديقيه والحشاشين من ساكنة طنجة وتطوان والعرائش، عباد، انتقاماً منهما ورداً على إساءتهما له، عرَّضت الوزيرين ابن العميد والصاحب بن محمود درويش رداَ على إساءته إليَّ، بل أيضا ألَّفتُ كتاباً مستقلا أنا كذلك بالشاعر للهجوم على الكاتب الأمريكي بول بولز، الذي أقام طويلا في طنجة، فضحت خصصته نواياه الاستعمارية السيئة، إذ كان يحب المغرب دون المغاربة فيه.

منبوذاً من قِبَلِ هكذا كانت حياة أبي حيان، شبيهة بحياتي، فكلانا لم يتزوج وكلانا عاش المسحوقين والمهمشين أقربائه وبني قومه، كما نشترك في خصوصية حمل هموم الأدبية جاء من لدن الآخر الغرب والتعبير عنها، كما نلتقي في كون الاعتراف بقيمتنا الأجنبي، وليس من لدن بني قومنا.

وقاطعه الوكيل العام:

ــ إلى أين تريد الوصول بالضبط؟

ــ أرغب في مجالسته بحكم ما نشترك فيه معاً.

حلَّ ــ أيها السيد محمد شكري، شتان بين ما تفكر فيه وما هو واقع الحال. إن الشيخ العربي في ضيفاً على ساكنة الأرض قاطبة، جاءنا معطراً بعبق التاريخ الإسلامي هذه المسافة الزمنية طراوته التي كان عليها منذ عشرة قرون، إن انبعاثه حياً بيننا بعد وفلسفته، فتلك أشياء ثانوية تأتي الطويلة، لظاهرة فريدة محيرة للألباب، أما علمه وفكره على لسانه مباشرة، وليس على لسانك أنت في مقام آخر، وقد نطلع عليها في كتبه أو.

قبل أن ينتهي الوكيل العام من حديثه، استسمحته في الرد على محمد شكري وقلت

أخاطبهم جميعاً:

غير ــ لم يسبق لي البتة أن سجّلت التاريخ الجواني المسكوت عنه في بغداد، ولا في من بغداد، ولا عاشرت المنبوذين والمهمشين، أو عبّرت عن همومهم في أي مؤلف أمام السيد مولفاتي، ويكفي على سبيل المثال العودة إلى كتابي "المقابسات" الموجود الوكيل العام.

وأشرت بيدي إلى الكتاب وأنا أقول:

الخاصة لأطلع ــ إن لم يكن قد طَالَهُ التزوير، ففي هذا المؤلف مثلا، قمت ببسط آرائي بغداد، وهي قضايا تتعلق الناس على القضايا الفكرية التي تستغرق اهتمام المثقفين في والدينية، وتبرز صورة من التعاون بالمسائل والأبحاث الفلسفية والمنطقية والاجتماعية مسلمين ونصارى ويهوداً وملاحدة ومجوساً، بين مثقفين منتمين إلى ملل دينية مختلفة، في جو من التسامح والود، أشرت إلى آرائهم يتحاورون ويتقابسون العلم والمعرفة وهم جميعاً شخصيات سامقة، فلاسفة ومناطقة، دون وعقائدهم دون أن أهمل أسماءهم، منبوذٌ أو مهمشٌ واحدٌ أن يوجد من بينهم جميعا.

وأنا أتحدث، رمقت وكيل الملك يمسك بكتاب "المقابسات" ويتصفحه، وكأنه يريد التأكد مما قلته، فاسترسلت في حديثي:

فقد ــ أما عن صديقَيَّ الوزيرين ابن العميد والصاحب بن عباد رحمة الله عليهما، وهذا أشرقت الشمس وغابت، وأشرقت وغابت مدة خمسين عاماً على هجومي عليهما، صفائها معناه أني كنت في طور الشباب الأرعن، لكن أيامنا ما انفكت أن عادت إلى كما كنا، خمسة الأول، بعد تلك الخصومة التي استغرقتنا عامين لا أكثر، فعدنا لنصير والخوارزمي وبديع الزمان أصدقاء كأصابع اليد الواحدة، أنا وابن العميد وابن عباد قصر ابن عباد، اجتمعنا لدى ابن الهمذاني، تجدد صفاؤنا، فأصبحنا إذا لم نجتمع في العميد في قصره بحي الكرخ على دجلة.

بعد أن أنهيت كلامي، وقف وكيل الملك وخطا نحوي، فصافحني وهو يكرر اعتذاره لي، بادلته التحية، ودعوته إلى الجلوس في مكانه.

في هذه اللحظة، انتصب الوكيل العام واقفاً وقال لنا:

ــ أيها السادة، أشكركم جميعاً، وأعلن عن إنهاء الجلسة.

فأسرع السيد محمد شكري يقول لي:

ــ سيدي أبا حيان، إني أتوق إلى مجالستك، فهل تأذن بزيارتي لك في فندقك؟

ـــ ليس اليوم، وليكن بعد أن أنال قسطا من الراحة.

غادرت المحكمة في موكب الوكيل العام، وأنا أحس صداعاً في رأسي وتصدُّعاً في فكرت مفاصلي، فكرت في أني لو أملأ رئتي بهواء نقي فقد أستعيد بعض عافيتي، كما التفكير في في حاجتي الماسة إلى العزلة، إلى أن أخلو إلى نفسي علَّني أقوى على أكثر من عشرة قرون، مصيبتي هذه الجديدة، فلم يعد لديَّ شكٌّ في أني فعلا قفزت على عشرة قرون قد ولَّتْ! كل من يا له من واقع مرٍّ صادم! فبعد ليلة واحدة أستيقظ لأجد أجعل عقلي يستوعبها؟ كيف لي أن أعزّي قابلتهم يؤكدون هذه الحقيقة! لكن كيف لي أن حقّاً؟ يا إلهي، لا أقوى على التفكير في ذلك، كانت نفسي في وفاة "نهاوند"؟ وهل توفيت كانت إحدى طيات هجرتي بعد أن ضاق بي المشرق بافتقادها، مناي وملاذي الأخير، بقيت على قيد الحياة. ترى ماذا كان مصيرها من بعدي؟ هل استعادها ولعلني من أجلها العميد؟ هل منعوها من السفر إلى غرناطة؟ أم ترى سافرت فظلت تنتظرني ورثة ابن جمعة في حدائق جنة العريف؟ من أين لي أن أعلم بوقائع مرت عليها قرون! كل يوم عظام الوزير متلاشية في التراب، وورثته كذلك. وخلاني في بغداد وفاس، ورفاقي إن يدلني في رحلة الأندلس، كلهم اليوم يرقدون عظاماً نخرة بعد أن طواهم الرّدى! من وعلى بيتي في على ما حل بهم قيد حياتهم، وعلى بغداد العباسية، والأندلس الأموية، الضفة الأخرى بحي الكرخ، الرُّصافة على دجلة، وبيت الوزير أبي الفتح بن العميد في الوزيرين، كل شيء صار طعاماً وحفلات اللهو والسمر، والمحاورات الفكرية في بيت إلاّيَ، أنا الأوحد الأبقى من كل بشر تلك لديدان القبور، بعد أن مضى بهم ركب الأيام، نار، وهم آدميون من تراب، ليتني قضيت في ذلك الحقبة الزمنية، كأنني إبليس من هؤلاء القادمين من المستقبل، أو بالأحرى، الذين عدت الزمن البائد، دون أن أتعرف يجمعني بهم غير الشكل البشري والشبه الآدمي، هل أنا قادر إليهم من الماضي، ماذا في عمري على أن أتجانس معهم، وأنصهر في عاداتهم وحضارتهم؟ بعد هذا الانحدار أضحوكة بينهم، دمية ناطقة تَسْتَدر الشفقة وتثير الذهول، إن الإنسان لا يستحيل! سأكون يستطيب العيش إلا في زمانه وثقافته ومحيطه.

تذكرت كيف كنت أدعو الناس في مجالسي إلى طرح وساوس الماضي، ومخاوف أقوى المستقبل، وعيش الحاضر فحسب، جلبا لاعتدال النفس. أنا القائل بهذا، لكن، هل أم هذا اليوم على عيش الحاضر فحسب؟ وأي حاضر، أهذا الذي ابتليت به في طنجة حاضر، لا يجب البغدادي المعشش في ذاكرتي بأناسه وأماكنه وروائحه؟ فكلاهما لدي

تركت أحدهما في العراق منذ أن يكون إلاّ حاضراً راهناً، وإن كان مُجزّأً إلى زمانين، قرون، أنا أعيش إذن الماضي عشرة قرون، ولحقت بثانيهما في المغرب بعد عشرة أسميه بالحاضر، وأن أعيشه بتوافق والمستقبل في زمن يطلق عليه الحاضر، وعليّ أن إلا إذا أوتي صاحبه نور العقل وقبس النفس، بين الظاهر والباطن، لكن التوافق لا يكتمل النفس أمام ما أنا عليه من حيرة وقلق وتمزق داخلي فكيف لي بجلب نور العقل وقبس حضوري؟ وغيابي حتى وأنا في

جميعاً، يا إلهي، عليَّ أن أعلن عجزي عن استيعاب حضارتهم، أن أجهر به أمامهم القائل بهذا في فالتظاهر بالعجز في موضعه، كالاستطالة بالقدرة في موضعها، أنا المغربي، إنما حاضري البغدادي، وأؤكده بعد عشرة قرون في حاضري هذا الطنجي كحالي اليوم في طنجة، ليس ترفاً فكريّاً، كحالي في بغداد، بل كواقع حسي ملموس، أنا عاجز، عاجز عن اتساقي فشتان ما بين الكلام عن قبض الجمر وقبضه حقيقة، إذن الشبح مني إلى بني الإنسان، وتجانسي معهم، وكذلك مع نفسي، أحس بأني أقرب إلى يقولون عن انبعاثي إنَّه خبر سعيد، إنه ليتهم يدركون هذا، من أين لهم أن يدركوه، وهم ضيف حلَّ على ساكنة الأرض قاطبة.

انتشلني الوكيل العام وأنا غارق في بحر همّي، وقال لي:

عمره ــ سيدي الشيخ أبا حيان، إن هذه العربة التي نركبها تسمى "سيارة" وهي اختراع حوالى مائتي عام، تجري بسرعة تفوق ركض الحصان عشرات أضعاف المرات، أسبوع فمسافة الطريق التي يسيرها الإنسان على ظهر الدابة أو مشيا على قدميه مدة كامل، تجتازها السيارة في ساعات، أقصد في أقل من يوم واحد.

سكت قليلا وسألني:

ــ كيف كنتم تقيسون الوقت في العراق؟ هل تقيسونه بالساعة؟

أجبته:

ــ إن قياس الوقت على الأرض اختراع عراقي منذ العصر البابلي. وحضرتني سورة يونس في القرآن الكريم فرفعت صوتي مرتّلاً:

السنين ــ "هو الذي جعل الشمس ضياءً، والقمر نوراً، وقدره منازل، لتعلموا عدد في اختلاف الليل والحساب، ما خلق الله ذلك إلا بالحق، يفصل الآيات لقوم يعلمون، إن يتقون" صدق الله العظيم والنهار، وما خلق الله في السموات والأرض، لآيات لقوم.

ــ آسف سيدي، نسيت أني أتحدث إلى فقيه عالم.

ـــ أستغفر الله.

أجبته.

لم أحسست بإنهاك غشيني وأنا أعتمر مقعدي في الجانب الخلفي من السيارة، ولذلك المرتفعة في السماء، أحفل بما كان يشير إليه الوكيل العام من معالم المدينة، أو أبنيتها بالدوار، لذا ظل بصري فالتفاتي إلى ما يوجد عن يميني أو عن يساري، يصيبني أخبرتهما بحالتي هذه، أوقف الوكيل منخفضا، أو مصوبا إلى الطريق أمامي، لكنني حين وكأنها استجابت لإرادته الخفية، ودعاني إلى العام السيارة في لمح البصر، فرستْ وكيل الملك إلى الخلف، فعادت العربة تسير بنا في طريق بجانبه، بينما انتقل الجلوس شبيه بنهر آسن، وعلى جانبيه تدفقت أشجار قصيرة، واستقامت ملتو مرصوص ناعم، ما فتئت أن فسحت المجال لعشب بري أخضر غطى أديم الأرض أخرى فارعة الطول، أزرق شاسع امتد على اليمين، فنبهني وكيل الملك إلى أن أنعم النظر على اليسار، وبحر المتساقط على صفحة مياه البحر، ترسله الشمس المحتضرة، قبل تلاشيها بين في الشعاع السماء والبحر أفق.

وقال لي:

ـــ إنه المحيط الأطلسي، بحر الظلمات كما كان يسمى قديماً.

فسألته عما يوجد خلف هذا البحر، إن كانت له نهاية، فأسرع الوكيل العام يجيبني:

ـــ توجد قارة تسمى أمريكا، وقد اكتشفت منذ حوالَى خمسة قرون، أي في تاريخ مغادرة العرب للأندلس، بعد أن سقطت في يد النصارى.

تلقفت هذا الخبر وكأنه حجرٌ ألقي به فوق رأسي، وقاطعته دون أن أدعه يسترسل في مرده.

ـــ تقول سقطت في يد النصارى! ألم تعد الأندلس عربية مسلمة؟

أجابني بمنتهى السكينة، وكأنه يخبرني بشروق الشمس أو مَغيبها، دون أن يدري أنه أوقد ناراً في رأسي وصدري:

ـــ الأندلس ضاعت، تساقطت إمارة بعد إمارة، كان آخرها غرناطة.

ـــ يا إلهي، أكاد أجن، لا أستوعب هذا الخبر، الأندلس تعود إلى العجم؟!

فتدخل وكيل الملك:

ـــ إن الخبر ليس جديدا، فقد راحت الأندلس منذ خمسة قرون، ورحلت بعد سقوطها يوم مسلمة أجيال وأجيال، فمن ليس له اهتمامٌ بالتاريخ، لايعلم أن الأندلس كانت ذات

عربية، فلماذا ياسيدي هذا الحزن؟

ــ إنكما لا تدركان وقع هذا الخبر الصاعق على نفسي، فقد كان يقيني أن بلاد الإسلام تتسع وإذا بها تتكمش.

سرحت مفكرا ثم أضفتُ:

فمنذ ــ إن حكايتي مع الأندلس تعود إلى خمسين عاماً، إذا استثنينا العشرة قرون، ربه أطلعني صديقي الوزير الصاحب بن عباد على كتاب "العقد الفريد" لابن عبد آخر صار الأندلسي، وأنا لا يغمض لي جفن توقاً لملاقاة أهل الأندلس، وعاماً بعد أذكر أن صديقي اهتمامي يزداد بأخبار وأشعار وموشحات وفقه وعلم أهل هذا البلد، حضوري: "هذه الصاحب بن عباد حين اطلع على كتاب "العقد الفريد" قال عنه في أخبار بلاد الأندلس، بضاعتنا ردت إلينا"، فقد كان يظن أن الكتاب يشتمل على شيء من المحبة المتبادلة بين أصحاب فإذا به يستغرق أخبار بلاد المشرق، وهذا دليل يؤكد نكتب إعجاباً بكم وبأخباركم، الأرومة العربية الواحدة من المشرق إلى المغرب، أجمل أرض عربية إسلامية، فأنا أحتاج وتكتبون إعجاباً بنا وبأخبارنا، لكن أن تضيع الوقت كثير لاستيعاب هذا الواقع!

وتذكرت العراق، فأسرعت بسؤال عنه:

ــ ويحكما، ألا أخبرتماني بما حلّ بالعراق؟ ألا يزال خلافة إسلامية، أم إن العجم انقضوا عليه هو الآخر، فمسِّح أو مجِّس؟

أجابني الوكيل العام:

ــ اطمئن يا سيدي، العراق مازال أرضاً عربية إسلامية، من أغنى بلاد المعمور، لو أحسن حكامه تدبير خيراته.

فقدانها ــ الحمد لله، الحمد لله، لكن هذه الأندلس العروس الضائعة، سيصيبني خبر الشتات والاستبداد بالخبل، تبّاً لنزوات الحكام، والله ما ضاع هذا الفردوس إلا بسبب! ظهري بغداد عليَّ أن أقرأ عن سقوطها، وعن كل ما استجدَّ ببلاد العرب، منذ أن أوليتُ قيد الحياة، في عام ٤٠٠ هجرية إلى اليوم، عساني بذلك أحقق البقاء عاقلا على ورأسي من قدمي، وعساني أعثر لنفسي على بعض السلوى، أتعرّف فوقي من أسفلي، أعد أتبين شيئا فإني من فرط الضباب المحيط بعقلي وبصري، بماضي وحاضري، لم.

فالتفت الوكيل العام نحوي، وبنظرة قاتمة قال يواسيني:

ــ بالله عليك يا سيدي، إذا كنت لا تقوى على تقبل واقعك هذا وأنت المنطقي الفيلسوف

المؤمن بالله، فمن يا ترى يتقبله؟

ماؤها عالياً توقفت بنا السيارة في ميدان فسيح منير تتوسطه بِرْكَةٌ بنافورة يتصاعد السيارة، بأننا في مدخل مرتعشا مثيراً للدهشة، فأخبرني وكيل الملك، ونحن نترجل من نصيحة الوكيل العام، فقلت فندق السراب، لكنني كنت أستجمع أفكاري لأرد على أخاطبه قبل أن نهم بالدخول إلى الفندق:

ــ أشكرك على نصيحتك بأن أتقبل أمر واقعي، إنني فعلا أسعى في تحقيق ذلك، لكن النفس، فعل القبول أو الرفض، إذا كان مصدره العقل، فإن هناك فعلا آخر يصدر عن الخليفة الأموي ولا يتحكم فيه العقل، ولعل أبسط ما يمكن أن أمثل به، هو ما عبّر عنه الشام قائلا عبد الرحمان الداخل، حاكم قرطبة، حين بعث إلى أخته في:

أيها الراكبُ المُيَمِّمُ أرضي
اِقْرَ من بعضِيَ السلامَ لِبَعْضي
إن جِسْمي، كما تراه، بأرضٍ
وفؤادي ومالِكِيهِ بأرضِ
قدَّرَ البَيْنُ بَيْنَنا، فافْتَرقْنا
وطوَى البَيْنُ عن جُفُونِيَ غَمْضِي
قد قضى الدَّهْرُ بالفِراقِ عَلَيْنا
فَعَسى باجتماعنا، سوف يَقْضي

داء الاغتراب والنوى، إذا كان هذا العظيم الشجاع، الجامع بين السيف والقلم، يشكو من عنه الزمان والمكان فما عسى أن يفعله فقير مثلي، فقد الأحبة والخلان، هرب.

(9)

مقتبل عمره، قصير القامة، ظلا ينظران إليَّ دون أن يفوها بكلام، فتقدم نحونا رجل في امتزجت باحترام وتقدير لنا، فقال له أنيق الملبس، سَمْح الوجه، تغمر محياه بشاشة الوكيل العام عني:

ــ إنه الشيخ "أبو حيان التوحيدي".

سألني إن صافحنا واحداً واحداً، فذهب يقيني إلى أنه لا يعرف شيئا عني، خاصة بعد أن كنت أحمل حقائب أو متاعاً، فأشار إليه الوكيل العام وهو يقول لي:

."ــ إنه السيد عبد السلام، صاحب "السراب

فعرفت أن مالك الفندق، خرج لاستقبالنا، بناء على موعد سابق مع الوكيل العام، إذ بادره بالقول وهو يدعونا لنتقدمه:

ــ أعددت لضيفكم الشيخ، أجمل جناح مطل على البحر، قصي عن الضوضاء، وبإذن الله، سوف يكون مبتهجاً بإقامته.

التحق بنا رجل يحمل في يده مفاتيح، لم يبادره أحد منا بتحية، ولا بادرنا هو بها، ففهمت أنه أحد الخدم في فندق السراب.

وفكرت في أن ازدراء الأسياد للفئة الدنيا لم يطرأ عليه تغيير منذ عشرة قرون.

كأنه سرنا يتعقب خطانا الرجل المُزْدَرَى ملفوفا في صدرية بيضاء، وسراويل سوداء، بِرْكَةٌ شاسعة قط فارسي مطيع وأمين، فمررنا بحديقة حفَّت بها دور بيضاء، وتوسطتها المنحدر عن يميني، يتلألأ بها ماء شديد الزرقة، فكان على بصري أن يتوقف صوب الموج، صخبه الرتيب لينعم في زبد أبيض يفصل سواد البحر عن رمل الشاطئ، إنه والفطريات، إنها رائحة شاطئ وصل إلى أذني، مثلما امتلأت خياشيمي برائحة الطحالب المرحوم "أبي عصيد"، البحر ثغر أصيلا نفسه، حين سرت على يابسته رفقة صديقي نباتاته العطرة وحده ظل كالأبد، مستريحاً بصخب موجه، وروائح.

ونيف، أدرت ليتني كنت أفهم لغة البحر لأسأله عما حل بالدنيا خلال هذه القرون العشرة تقارب ثمانية قرون، في رأسي حسابا عن المدة التي بقيها العرب في الأندلس، فوجدتها هذا التحول، فبعد أن إنها ليست بالوقت الهين، فضحكت من نفسي ساخراً منها على أصبحت أعده بالقرون، لكن كنت أعد الوقت بالساعات أو الأيام أو حتى بالشهور، الإبحار في الكآبة، وراقني الفندق إصغائي لهدير البحر بلسعات برده، أوقف نفسي عن حكاية ضياع الأندلس، ظلت مطرقة تدق الذي تمطى فوق ربوة ساجدة للبحر، لكن رأسي.

لمس أدخلنا صاحب الفندق إلى سكن يسع قوما من الناس، توقد أضواؤه وتطفأ بمجرد يوم، سأكون أزرارها، لم يكن ليخطر بخلدي جماله ولا رونقه، ولا فكرت في أني ذات إلا، لكن، حين من ساكنيه، فقد حسبته هدفا لزيارة جاءت من قبل الفرجة عليه ليس مباغتة لم أقو على أبلغني الوكيل العام أنه مخصص لإقامتي بمفردي، أصابتني دهشة إخفائها.

صار يدلني على محتوياته، هذه قاعة جلوس تفضي إلى شرفة استراحة مطلة على

عن البحر، وهذه غرفة نوم بنوافذ مشرعة على البحر، وتلك غرفة أخرى لا تقل رونقا مثيرة أختها، وهذا حمّام به قبر مرمري في بياض لبن المعز، وبجانبه مِيضأَةٌ يتحول وفق للاستغراب، وتلك معدات للحلاقة وقصِّ الشعر ومَشْطِهِ، وصنابير ماء أنفجر من الضحك إرادتك من بارد إلى دافئ إلى ساخن. فقاطعت شروحاته وأنا أكاد:

ــ يلزمني تلقي دروسٍ لأعرف الاغتسال في هذا الحمام الخيالي.

أن ارتفعت أصوات الجميع بعَدْوى ضحكي، فتذكرت بأن صدري لم يعرف انشراحاً منذ بي استيقظت من سباتي في مغارة مدينة المنقب بالأندلس، قلت لهم والضحك يستبد:

نفسي ــ لأفترض أنني تمكنت من غسل بدني في هذا التَّابوت الأبيض، فبماذا أدثر رائحتها وأستر عورتي وأنا لا أملك سوى ما أرتديه من أسمال رثة، تعاف الأنوف.

فعمت قهقهاتنا من جديد أرجاء الحمام.

قال لي الوكيل العام وهو يجفف ما بعينيه من دمع ابتهاجه، ونحن نغادر الحمام:

ــ بعد لحظات ياسيدي، سيلحق بنا أحدهم يحمل لك ألبسة لتنتقي ما يروق لك منها.

قلت له وأنا أوزّع نظري بين شخوصهم:

ــ أسيكون لي مثل ما ترتدونه؟ شريطة أن يكون لباساً سائداً بين عامة الرجال؟

ــ طبعاً طبعاً، إنه لباس عام، يرتديه الرجال في كل بقاع الأرض، بما فيها العراق.

يتزين لم أقو على حبس ضحكي، وأنا أخال نفسي ملفوفاً في هذا اللباس الشبيه بما كان والوزراء، ما إن أخبرتهم به الغلمان والجواري في حفلات اللهو والغناء بقصور الخلفاء بما خلته عن نفسي، حتى دوت الصالة بالقهقهات.

لم أتوقف عن الضحك، وأنا أشير بيدي إلى قطعة ثوب متدلية من عنق السيد عبد كان لها السلام، صاحب الفندق، وشبَّهتها بحبل المشنقة، وأنا أسأل عن لزومها، وإن الحرارة دورٌ في درء السحر أو الوقاية من عين الحسود أو من البرد أو.

فأجابني الوكيل العام:

ــ لم أكن أظنك يا سيدي الفقيه العالم على هذا القدر من المرح والدعابة.

فقلت أرد عليه:

ــ أشكرك، وأخبرك بأنني بعد معاشرتي لخلان فاس، ولأصدقاء قصر كتامة ولأصحاب لله ثغر أصيلة، أصبح يقيني أن المغاربة من أظرف المسلمين وأخفهم روحاً، لكن، المتدلية من دَرْكَ، لم تجبني، ما الغاية من حبال المشنقة هذه؟ وأشرت إلى الأثواب أعناقهم.

فأجاب ضاحكاً:

ـــ إنها للزينة لا غير، وتسمى "ربطات العنق".

سكت قليلا وأضاف:

ـــ وهي ابتكار أوروبي.

فأسعفه وكيل الملك شارحاً:

ـــ حضارة أوربا هي السائدة في هذا القرن، فكراً ولباساً و غيرهما، والأندلس امتداد للقارة الأوربية، صانعة هذه الحضارة.

عن كاد تذكيري بالأندلس، هذه الهاربة من بين أصابع اليد العربية يصعقني، فيدرأ رباط " نفسي مرحها، لكنني استبعدتها عن ذهني وحصرت تفكيري في غرابة ابتكار العنق"، فسألت الرجال مازحاً:

ـــ لعله ابتكار نسائي، أوحى به الحبل الذي تقاد به الدواب، أو تلجم به. إنما أود لو أعرف إن كانت المرأة تتزين به هي الأخرى.

فضحكوا وأجمعوا على النفي.

وأضفت:

ـــ هذه قرينة على أن "ربطة العنق" من ابتداع المرأة، وذلك لتحكم به قبضتها على عنق الرجل متى شابهما نزاع.

عَمَّ الضحك من جديد، فاستأنفت بسط تداعياتي بذات السخرية المغلفة بالجد تمليها ـــ إن المبتكر مثلُ الفيلسوف، تفكيره في الأصل مجرد رجع أو استجابة لحاجة الرجل ابتكرت له هذه الضرورة المادية أو النفسية، أو هما معاً، والمرأة حتى تُذِلَّ في سرها فلغايات أخرى، الربطة القريبة من شكل الأفعى، لزينة عنقه ظاهريا، أما أضعفها تشبيهه بالحيوان.

ظل جو المرح هو السائد إلى أن دخل رجل محمّل بعدد من الألبسة والأحذية، في قياسات مختلفة، حتى يتسنى لي اختيار مقاسات تناسبني.

(10)

النافذة، أزحت بعد أن استعادتني الحياة، وصحوت من نومي، هرولت مسرعاً إلى ذاته الذي كنت قد ستارتها وأشرعت بابها، فاستقبلني شاطئ فسيح بهيج، هو الشاطئ سمرنا، فعرَّجت على تنسّمت رائحته بالأمس، وتذكرت الألبسة التي كانت موضوع

وجوارب وغيرها، الصالة لأجدها في مكانها، أقمصة وبذل وأحذية وربطات عنق وكأني أتعلم لغة جديدة، فضحكت من نفسي على الأسماء الغريبة التي كان عليَّ حفظها لامعاً، ووقفت أمام المرآة الكبيرة، ارتديت سراويل وقميصا أبيضَ ثم انتعلت حذاءً أسودَ

ذقني قد زادت عن المعتاد، ماذا لو قمت أتفرج على نفسي، لاحظت أن كثافة شعر اللحية من جذورها؟ فكرت مليا، فنزعت القميص بِقَصٍّ شيء من هذا الشعر؟ أو اقتلعت

وتوجهت إلى الحمام، أخذت المقص وشذبت اللحية عن بدني بعد أن فتحت أزراره الوكيل العام وجميع مرافقيه، بل كل من قابلتهم في طنجة، وهذبتها، ثم تذكرت كيف أن أملسيه، فلماذا أستثنى منهم؟ أغاية الدين أن يحتفظ الرجل بلحيته؟ كانوا حليقي الوجه

نفسي، وأنا أبلل لحيتي وأدعكها بالصابون متّبعاً إرشاد وكيل الملك، حين تساءلت في وبعد أن دلني على كيفية الحلاقة، لكنني أبقيت على شاربي مؤجلا إحفاءه إلى يوم آخر، فكدت أقع أرضا عدت لارتداء القميص، وقفت أمام المرآة الكبيرة الرابضة في الصالة،

صفات الوقار من شدة الضحك على نفسي، فقد جرّدتْ حافة الموسى محياي من كل قسمات وجهي، فقد بدا لي والورع، بقيت زمناً أمام المرآة أنعم النظر وأعيده مدققاً في

بمخلوقات القرن الحادي كأنه وجه شخص آخر قريب من وجوه المغاربة وشبيه أبدو كهلا عوض الشيخ الذي والعشرين الميلادي، لقد أعجبت بنفسي حقاًّ، سرني أن كنته.

إن القسمات الحقيقية لوجه المرء، لا تتبيّن إلا بعد أن يزيل لحيته.

تذكرت الوزير الصاحب بن عباد، قبل أن تسوء علاقتنا، أي قبل أن أكتب مؤلّف مثالب الوزيرين"، الذي خصصته لذمه هو والوزير ابن العميد، فقد كنت في ذلك"

رد المساء، في ضيافته بقصره الفاخر، رفقة الصديق "بديع الزمان الهمذاني" حين الآسن، فيما لا بروحه الماكرة على دعوتي إلى الابتكار والتجديد للخروج عن المألوف يخالف الشرع، وقال لي:

ــ لِمَ لا تُحْفِي لحيتك ابتكاراً، مادام الفعل لا يخالف الشرع؟

فعلّق "بديع الزمان الهمذاني" تزلّفاً للوزير:

ــ إن اللحية سنّها أشرف المخلوقين محمد رسول الله (ص)، وإزالتها معصية لا تُغتفر، إلا بالتَّوبة والعدول عنها.

فأسرعت بالرّد:

ــ إن الرسول قد سنّها من باب الإجازة عرفاً مشتركاً بين الأقوام، من مسلمين

ونصارى ويهود ومجوس، وإن إحفاءها ليس ابتكاراً ولا بدعة، ولا تدخل في باب تجاوزاً أن المعاصي، صغيرها أو كبيرها، والدليل هو أنه لم يأت فيها وعيد، وإذا سلمنا فإن الصغائر إزالة اللحية من المعاصي فستكون من الصغائر، وعلى رأي المعتزلة، بتجنب المعاصي تغفر بتجنب الكبائر، أي أن المعاصي الصغيرة، يستحق غفرانها الكبيرة.

كنت أعلم أن الوزير الصاحب بن عباد شغوف بأراء المعتزلة، وهو في سرّه على رباب"، " مذهبهم، لكن ما إن أكملت قولي حتى استوى في مقعده، ونادى على الجارية امرأة كاملة، وهي من أجمل جواريه، لا يحضرها سوى في المجالس الخاصة الضيقة، ناصعة البياض، سلّمها أسيلة، ظريفة الأنف، ضيقة الفم واسعة العينين، كحيلة الشعر، قدح نبيذه، وأشار عليها أن تملأه، وخاطبنا:

الصغائر إذا لستما مختلفين في الرأي، لكنكما لم تكملا شرحه، فكما قال أبو حيان. إن ناقص، ذلك أنه إذا اقترفت من مجتنبي الكبائر، كانت مغفورة، وهو قول حق، لكنه فإن معصيته تصير من اجتمعت الصغيرة والصغيرة من ذات الشخص المجتنب للكبائر، على انفراد، ثم آخر وآخر، الكبائر، كالرجل الذي يسرق درهماً على انفراد، ودرهما يؤخذ بالذنب، إذا تاب عنه وعاد إليه فإن فعله يكون من الكبائر، ومن ثَمَّ فإن الشخص.

السراب"، فكرت دارت هذه الحادثة في ذهني وأنا أقف أمام المرآة في إقامتي بـــ "فندق التي كانت محور النقاش مع في المعاصي الصغيرة التي أرتكبُها تباعاً، فقد أزلتُ لحيتي وأنا اليوم في طنجة أعتزمُ قَصَّ الوزير الصاحب والهمذاني، منذ أكثر من عشرة قرون، ثانية، ثم إني أتعمد أن أظل عاري الرأس، شعر رأسي تمثلا بالمغاربة، وهي معصية ثالثة، ويعلم الله ما قد أرتكب من الصغائر، لكنها من أية عمامة أو عقال، وهي معصية فقد أصبتُ وأخطأ المعتزلة، رحم الله الصاحب بن عباد أبدا لن تصير من الكبائر، بغداد، من سبق ومن لحق بهم، وأخص منهم جاريتي العزيزة والهمذاني وجميع خلان كانت برفقتي في عزلتي المغربية هذه، لتدفئ وحدتي، وتسهم برأيها "نهاوند"، فيا ليتها الحليق إلا من شارب يغلب عليه بياض الشيب في وجهي.

لاشك أنها استحضرت أوقاتنا البهيجة وهي تترحَّمُ على روحي، واهمة أنني صرت في عداد الأموات.

الحقيقة أنَّها لم تكن واهمة، فقد كنت فعلا ميتاً، من يختفي كل هذا الدهر، لا يمكن أن يكون إلا ميتا.

الأبدي، لكن الموتى تفارق أرواحهم هياكلها، تغادر إلى الخلود الدائم المتصل الأزلي في الذي لا أول له ولا آخر، أما روحي، فهي دون شك بقيت مثلما بقي جسدي بقيت تضاعيف العاجلة، دون أن يطرأ عليهما أي تغيير، فكل ما حدث لي، هو أنني اطلعت على ما طيلة عشرة قرون مختفيا محتجباً عن العالمين العاجل والدائم، وليتني كان يحدث فيهما أو في أحدهما، لكن لا هذه ولا تلك.

مجلسه إن من طبيعة الإنسان جنوحه إلى أن يعلم ما يحدث في غيابه، ولو بعد قيامه من على هذه ولا على وهو على قيد الحياة، أحرى لو يعلم ما سيؤول إليه بعد وفاته، لكن لا ماضي البعيد الحزين تلك، فلم يتسن لي أن أطلع على سوى ما يموج في ذهني، على إليه حنين الإبل في نجد المليء بالضيق والحاجة، وبالكرب والشدة، لكن مع ذلك أحن.

(11)

أسمر البشرة سمعت نقراً على الباب، أسرعت لفتحه، فوجدت رجلا في مقتبل عمره، عنق غامقة اللون، داكنها، ترتسم على محياه بشاشة محببة، تتدلَّى على صدره ربطة بأدب جم وانحناءة من رأسه شبيهة بإحدى ربطات عنقي التي لم أتزّين بها بعد، حياني وأخبرني:

الفندق مع ــ إن السيد الوكيل العام يقرئكم السلام، ويخبركم بأنه يوجد في استراحة الصباح السيد وزير العدل وآخرين، وسوف يزورونكم بعد أن تنتهوا من فطور.

يسموه، قلت لعله تحقيق جديد مع قاضي القضاة، أو وزير العدل، كما يحلو للمغاربة أن العربية بطريقة في نفسي، وفكرت في هؤلاء المغاربة الذين أصبحوا ينتهكون اللغة يكون رد سيبويه أو فجة، إذ يخاطبون شخصاً مفرداً بصيغة الجمع، تصورتُ ما قد تحريف وهما على قيد الحياة السيرافي، لو كانا قد علما ما سيصيب اللغة العربية من.

بانشغالات تداركت سهوي عن الرجل الواقف أمامي، ودعوته إلى الدخول، لكنه اعتذر يبلغ السيد الوكيل له، شارحاً أنه مستخدم في "فندق السراب"، شكرته وطلبت منه أن العام، أني في انتظاره متى شاء، وأوصدت باب الإقامة.

وقاضي بعد لحظات، عاد النقر على الباب، فهرولت مسرعاً لاستقبال الوكيل العام مأكولات، القضاة، لكنني حين فتحت الباب فوجئت برجل يجر مائدة مزدانة بأصناف لضيوفي تكفي نفرا من الناس، دعوته إلى الدخول وأنا أسأله إن كانت مخصصة ألقيت نظرة. القادمين، فضحك وأكَّد لي أنها لي بمفردي، ولأتناول منها ما طاب لي

واللبن والبيض، سريعة على المائدة، فلم أميّز من محتوياتها سوى الرغيف والماء إليها، وأخذ يدلني فسألت الرجل قبل أن ينصرف عن باقي الأصناف، وأنا أشير مستغربا جهلي لها:

ــ هذا شاي أخضر، وهذه قهوة، وهذا عصير برتقال، وهذا جبن، ثم رفع بصره نحوي وخاطبني:

ــ إذا احتجتم إلى شيء آخر فنادوني، اسمي محمد العربي.

وأجبته:

ــ أنادي من النافذة؟

ضحك في ذهول، وأشار إلى قطعة جماد فوق المائدة بجانب المرآة:

ــ اطلبوني بواسطة التلفون، على الرقم تسعة.

شكرته وانسحب.

ألقيت جلست، وسحبت المائدة المتحركة نحوي، فشربت كل السوائل باردها وساخنها، ثم الأقداح في أحشائي بالرغيف والجبن والبيض، إلى أن أتيت على كل شيء، فبقيت الفندق، لكن ما والأطباق فارغة، فكرت إن كان يصح لي غسلها أو ترك أمرها لصاحب فَلِمَ لا أتولى تنظيفها، وهو دامت الإقامة تتوافر على ماء متصل لا ينقطع إلا بإرادتي، ما حدث.

أجزم بأن الطارق، بُعَيْدَ لحظات، عاد النقر على الباب للمرة الثالثة، هرولت لفتحه، وأنا رحبت بالرجال الأربعة، .هذه المرة، لن يكون إلا الوكيل العام، وفعلا أصاب جزمي فوق أرائك مريحة، دون أن وصافحتهم واحدا واحدا، ودعوتهم إلى الدخول، تناثروا يتوقف لساني عن الترحيب بهم.

بادر الوكيل العام قاضي القضاة بالقول:

إلا بصعوبة، ــ والله يا معالي الوزير، لم أتعرّف شيخنا أَبَا حيان، حين فتح لنا الباب، فبعد أن أزال لحيته انتقص عمره عشرين عاماً إن لم أقل ثلاثين!

الوزير شكرته في حياء، وأنا أخزن في ذاكرتي كلمة معالي الوزير، مقرراً أن أخاطب والألفاظ، أنا أيضا بهذا الاسم، وذلك حتى أضيّق من هوة اختلافنا حول المفاهيم محاوري، فاختلاف معاني الألفاظ أمر يضيق له صدري ويربكني أكثر مما يربك المغاربة فعزمت على أن أجعل حواسي متيقظة لالتقاط ما استجد في اللغة لدى.

الوجه، كان معالي الوزير قد اتخذ مكانه قبالتي وجها لوجه، رجل أبيض البشرة ممتلئ

ارتدى بشوش خجول، أملس المحيا إلا من شارب كث غلب عليه بياض الشيب، وقد شبيهين ربطة عنق غامقة مخططة بالبياض، وراقني أن يكون هو ومرافقوه الأربعة وأحذية، دون بمستخدمي "فندق السراب"، يرتدون جميعاً بدلا وأقمصة، وربطات عنق وماس، أو غير ذلك، أن يتميز الوزير عنهم بعمامة من حرير أو خنجر من فضة وذهب على الأقل، قد انتفت ففكرت في أن الفوارق بين الفئات الاجتماعية، ولو ظاهرياً وتلاشت.

بين استمر الوزير في أحاديث عابرة لبقة، حول الطقس وموقع مدينة طنجة الجغرافي بحرين، خلته يتربص للزج بي في امتحان يكشف له حقيقتي، لكنه ظل بريئا من يمدني بمؤلفات تخميناتي، بل عبّر لي عن سروره الأبلغ بلقائي والتحدث إليَّ، ووعد أن العشرة قرون تطلعني على ما طرأ من تحولات في التاريخ والعلم والفكر، خلال إذ قال لي الأخيرة، ثم تدارك وكأن الغيب كشف له ما كان يموج في خاطري: والتاريخ، لسد ــ إن الكتب قد ترهقك، لذا أقترح أن أبعث لك بشخصية سامقة في الفكر العلوم والفكر، لكن الفجوة التي تفصلك عن الحاضر، هناك بكل تأكيد مستجدات في مستهلكون ومجترّون لعلم وفكر بالنسبة لنا نحن العرب عموماً، ستكتشف بنفسك أننا غيرنا أكثر مما نحن منتجون له.

وسألته:

ــ من تعني بغير العرب؟

ــ أقصد الغرب المسيحي، فمنذ النهضة التي عرفها قبل خمسة قرون ونحن ظاهرة الأدباء، لأبحاثه واكتشافاته، ويكفي إخبارك بأنك أنت شخصيا أديب الفلاسفة، وفيلسوف وإلى مؤلفاتك من لدن العالم المنطقي النحوي "أبو حيان التوحيدي"، قد وقع التنبيه إليك، سبقوا إلى اكتشاف قيمتك، الغرب قبل العرب، وممن أتذكر من المستشرقين الذين ليكشف لنا الشيء الكثير عنك، المستشرق "لويس ماسينيون"، الذي بحث في سيرتك إلى مؤلفاتك، والمستشرق "آدم ميتز" والمستشرق "مارجليوت" الذي كان أول من انتبه الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري"، فأفاض " الذي ألف كتابا علميا دقيقاً في العلمية في الإشادة بقيمتك.

وعدت إلى استفساره:

ــ من هم الذين سميتهم بالمستشرقين؟

العلم، ــ الاستشراق علم قائم بذاته، كعلم المنطق والفلسفة وغيرهما، وأصحاب هذا

مستقلة عن تراثهم، غربيون مسيحيون، تعلموا لغتنا، فبحثوا في تراثنا القديم، كظاهرة فترجموه واعتمدوا بعضه مصدرا لبناء فكرهم وحضارتهم.

مستحسنا لم أخف إعجابي بهذا الوزير الشاب، ذي الثقافة الواسعة، فصارحته بذلك، مبادرته بإسعافي بشخص يطلعني على ما استجد في غيابي، فقال:

أستحضر منه ــ أود إخبارك بأنني استمتعت حقاً بكتابك "الإمتاع والمؤانسة"، ومازلت رسخ في ذهني بعض النوادر والفكاهات، كما قرأت بعض الدراسات عن مؤلفاتك، ومما فهل حقاً تجمع بينهما؟ أنك تجمع بين متناقضين هما، فلسفة التشاؤم، وفلسفة الفكاهة، المتناقضين؟ كيف يمكن في نظرك للشخص أن يجمع بين هذين

أجبته بصدق وحماس:

من لدن ــ إنني مندهش يا معالي الوزير، ذلك أن الاستفسارات نفسها التي وجهت إليَّ لم أكن أتوقع أو الأصدقاء في بغداد، أجدها توجه إليَّ من جديد بعد عشرة قرون. إنني القرون، هذه حقيقة أندهش يخطر بذهني، أن مؤلفاتي ستحظى بالقبول، وتصمد كل هذه أضرمت النار في كتبي لعدم جدواها، لها اليوم، ويكفي حجة على ما أقول، أنني كنت قد من موقع فكري أو أدبي، فقد عشت حياتي وذلك لكوني لم أظفر منها بما كنت أنشده مقابل دراهم كانت تسد رمقي بمشقة كلها أعمل وراقاً وناسخاً لكتب غيري.

ظلت عيون الحاضرين جاحظة مشرئبة تتأملني، فأضفت قائلا:

جمعي بين ــ أليس ما أعلنه مفارقة مدهشة؟ ما علينا، ولأعُدْ إلى سؤالك، إن ما قيل عن وهناك في مؤلفاتي، كان فلسفة التشاؤم وفلسفة الفكاهة لا أنفيه، فالتشاؤم المنثور هنا أن أتخذه مذهبا على مجرد صدى لتجاربي وخبراتي، لوّنته بمزاجي الخاص، دون المخلوقات، وأن انجذابه نحو غرار فلاسفة التشاؤم، ولا أحد يجهل أن الإنسان أشقى والترويح عن نفسه، فكلنا نجمع بين الفكاهة، حاجة طبيعية للتنفيس عن شقائه، تجمع بين الليل والنهار والحرّ والبرد، لكنني لم المتناقضات، لأننا جزء من الطبيعة التي الجد بالهزل، والهزل بالجد، في ذات العمل الواحد، كما فعل يسبق لي أبداً أن مزجت رجعت إلى مؤلفاتي كـــ "الهوامل والشوامل" مثلا، أو "الإشارات الإلهية" الحاجظ، وإذا الصداقة والصديق" فستجدها عاكسة لتمزقات داخلية عشتها، أو لإحساس بالغربة" أو الإمتاع " والحَيْرة، أو خيبة أملي في الناس،. أما إذا عدت إلى مؤلفات لي أخرى، كـــ الناس، وضرورة تذوق والمؤانسة" أو "النوادر"، فستجدني أؤكد بها قيمة الفكاهة في حياة الإنساني الطبيعي النفس للفرح والهزل وحتى المجون، وذلك درءاً للشقاء.

يريد تقبيله، ما إن أنهيت كلامي حتى انتصب الوزير واقفاً وانحنى عليَّ ممسكاً برأسي، عاد إلى مقعده وخاطبني فحاولت أن أثنيه وأنا أستغفر الله، إنما بدون جدوى، إلى أن:

عمق ــ أصارحك أيها العالم الجليل، بأن تقبيلي لرأسك ليس احتفاء بمجيئك إلينا من ولربما الوحيد من التاريخ، بقدر ما هو تقديرٌ لقيمتك الفكرية النادرة، فأنت من القلائل، الأدب والسموق في الفلسفة المفكرين المسلمين العرب، الذين يجمعون بين السموق في وهو أقل ما قيل، إنك "فيلسوف والمنطق والنحو والفقه والحساب، حتى لقد قيل عنك، الكبيرة الأدباء وأديب الفلاسفة"، وغيرها من الأوصاف.

وكانت المفاجأة حين سألته:

ــ إلى متى يا معالي الوزير، سأظل سجين هذه الإقامة الجميلة، كطائر في قفص من ذهب؟

إلى لم يقو الوزير على إخفاء ما غشى محياه من حيرة وارتباك، فصوَّبَ نظرة حادة ينقذه من مرافقيه، كأنه يشهدهم على انكشاف سرّ ما، أو يستنجد بهم ليسعفوه برأي مبهمة أوعزت لي ورطة وقع فيها، لكن ضيوفه كانوا أكثر حيرة منه، إذ تبادلوا نظرات حين أجابني بصدق بأن في صدورهم أمراً يخفونه عني، لكن الوزير بدَّدَ مخاوفي الرجال:

ببالي أن ــ إنني أيها الضيف العزيز الغالي لم أتوقع منك هذا السؤال، ذلك أنه لم يخطر سراً إذا ما أخبرتك يكون لك إحساس بالمضايقة إلى درجة الظن بأنك سجين، ولا أخفيك دراية بقصتك هذه المحيرة، وأنا بأن لا أحد من رجال الدولة سواي يعلم بوجودك، أو له عليها، ظللت وقتاً من الزمن بين المصدق شخصياً، حين أطلعني السيد الوكيل العام وغير المصدق.

لِنَقُلْ على بالله عليك، رجل ينبعث حياً بعد أكثر من ألف عام انقضت على وفاته، أو سباته أو غيابه، فمن ذا الذي يقوى على تصديق مثل هذا الخبر؟

العام، هكذا في أقصى حالات الحيرة والذهول بقيت على اتصال تلفوني مع السيد الوكيل نفسي بصوت ولزمتني الحالة نفسها وأنا في منزلي، إلى درجة صرت معها أفكر مع بالجنون، لكنها مرتفع، وكأنني ممسوس، مما جعل زوجي تصاب بالفزع، وتتهمني الليلة ذاتها، أي ليلة أعذرتني بعد أن أطلعتها على واقعتك هذه المربكة للعقل، وفي منزلي لمزيد من البحث أمس، رجوت ثلاثة من مساعدي في الوزارة أن يحضروا إلى العام ورئيس مديرية الشؤون والتقصي، وهؤلاء السادة هم: المفتش العام والكاتب

أسرعنا بالقدوم للتعرف إليك، هذا كل الجنائية، الحاضرون معنا الآن، وفي أول الصباح ما في الأمر.

وتدخل المفتش العام:

ــ سيدي أبا حيان، إن إقامتك التي تراها سجنا، هي من أرقى فنادق طنجة.

وقبل أن يضيف شيئا، قاطعه الكاتب العام للوزارة:

ــ لعل الشيخ أبا حيان يعني بالسجن، حالته النفسية كالعزلة أو الاغتراب، وليس المكان.

فابتسمت للرجل كناية عن موافقتي، وأنا أستمع إلى الوزير الذي شرع في حديثه وهو يبتسم في وجهي:

لأول مرة، ــ لم يعد لي أدنى شك في أنك "أبو حيان التوحيدي"، الحقيقي، ولذلك فإنني الواقعة سأطلع السيد الوزير الأول بصفته رئيس الحكومة المغربية، على هذه.

واتسعت ابتسامته إلى أن قاربت الضحك حين أضاف:

وقد ــ إني أعلم مسبقاً بأن السيد الوزير الأول لن يقتنع إلا بصعوبة لخبرك هذا، أيضا تغيبت يشبهني بالهدهد، حين زف نبأ ملكة سبأ إلى سليمان حجة على تغيبه، فأنا وهمي عن المجلس الحكومي المنعقد في هذه اللحظة في الرباط، تحججت بمرض وسأحظى حقاً افتعلته حتى أزورك، وأتعرفك، وأتزود بمعلومات عنك ومنك شخصياً، بشرف كبير، وأنا أقدم للحكومة تقريراً عن هذا الحدث الجميل.

وتدخل رئيس مديرية الشؤون الجنائية موجها كلامه إلى الوزير:

الأمن ــ إن الشرطة القضائية يا معالي الوزير، وبدون شك، قد أبرقت إلى مديرية الشيخ التوحيدي الوطني في الرباط، بهذا الحدث، ذلك أنها أول من تولى التحقيق مع.

وتدخل الوكيل العام للملك موضحاً:

أين لهم ــ إني أعرف بالمستوى الثقافي لرجال الشرطة القضائية في هذا الإقليم، فمن ملخص ما كتبوه أن يعلموا أنه سبحانه وتعالى، يحيي العظام وهي رميم. ذلك أنهم في يزعم أنه من مواليد "في محضر تحقيقهم، أن شخصا مجنونا يدعى "أبا حيان التوحيدي حالة تلبس، بجنحة الهجرة القرن الرابع الهجري في بغداد، وقد ألقي عليه القبض في السرية، إنهم يجهلون اسم "أبي حيان التوحيدي".

وقاطعه الوزير:

نفسه، فقد ــ إني أتفق معك، فلا علم لمدير الأمن بهذا الخبر، كما لا علم للوزير الأول أبي حيان " أجريت اتصالا بهما هذا الصباح، مما يؤكد عدم انتباه الشرطة لـــ

التوحيدي"، وبذلك سيكون للقضاء شرف وميزة السبق إلى التعرف إليه.

والتفت نحوي مضيفا:

قد ــ إن انبعاثك يا سيدي أهم حدث في هذا العصر، فإذا كان علماء ومثقفو العالم ترى سيكون سوّدوا آلاف الصفحات البيضاء، احتفاء بالذكرى الألفية لوفاتك، فكيف يا الأكبر، ويا والدي الروحي ابتهاجهم وحفاوتهم بانبعاثك حياً ــ إنني يا سيدي، ويا شقيقي الصادقة، إذا ما سئلت يوما عما المتمنى ــ ولتسمح لي أن أخاطبك بهذه المشاعر جلوسي إلى "أبي حيان التوحيدي :استفدته في وزارة العدل، فسيكون جوابي".

لدي ذكرني هذا الظرف بأصدقاء فاس وقصر كتامة، فقد كان وداعي لهم مؤثراً، ترك المحبة إلى كل انطباعاً محموداً لن تمحوه السنون. إنه حال المغاربة قاطبة، فهم يزجون عبد الرحمن الأموي وافد مشرقي، وكأنهم ورثوا ذاك الحنين الفياض، الذي حمله معه التاريخ، فإنني لا أزال إلى غرناطة، وقصتي معهم إن كانت جذورها تنسحب إلى جوف أتظلل بأغصانها، في فندق السراب بمدينة طنجة.

وتدخل الكاتب العام للوزارة مخاطبا الوزير:

ــ في وسعنا يا معالي الوزير أن نرتب لشيخنا أبي حيان زيارات لبعض مناطق المغرب، حتى لا يحس السأم ببقائه في طنجة:

ونظر نحوي يستطلع رأيي، فأجبته:

ــ رغبتي أن أزور بغداد.

من جديد، نزل الخبر عليهم كسيف قاطع، فأضفت أعلل رغبتي:

ــ إنني عراقي مولدا ونشأة وعيشا، وحنيني إلى بلدي لا يضاهيه حنين، فمن حقي أن أزوره، إلا إذا كان هناك اعتراض!

رد الوزير:

ــ أبدا أبدا، لا اعتراض لأحد على رغباتك، فمن حقك زيارة العراق، وغير العراق، مدمِّرة إنما بعد انتهاء الحرب، فلعلك على علم بأن العراق يتعرض لحرب!

أسرعت بسؤاله وقد أفزعني الخبر:

ــ حرب في العراق؟ مع من نتحارب؟

أجاب الوزير موضحاً:

ــ قُلت إن العراق يتعرض لحرب، ولم أقل يتحارب، ذلك أن دولا غربية بزعامة أمريكا، طمعاً في ثروة النفط، افتعلت خرقه للشرعية الدولية، فشنَّت حرباً عليه لتستأثر

بهذ الزيت.

انتفض عقلي لغموض وهول ما سمعت، فقلت مستفسراً:

ثم إن ــ لم أفهم مدلول عبارة الشرعية الدولية، ولا كلمة النفط، فماذا تعني بهما؟ اتخذه العراق أكبر خلافة إسلامية عربية، وهو محاط بجيران مسلمين، فأي موقف الجيران؟

أجابني الوزير بهدوء، وكأنه غير معني بما يحدث:

هذا ــ ما عاد العراق كعهدك به، خلافة إسلامية لا تغرب عنها الشمس، إنه في عصرنا بينها شأن مجرد قطر صغير، محاط بأقطار متناثرة هنا وهناك، في نزاع دائم فيما أطفال الحيّ.

صمت قليلا وأضاف بالهدوء نفسه:

فالبلاد ــ الموضوع معقد جدا. إنه شبيه بما حدث بين إمارات الأندلس قبل ضياعها ضد بلد عربي العربية اليوم، أمست كنظيرتها الأندلس، تحتمي بالأجنبي، أو تؤازره التي تدمره اليوم، آخر. والعراق نفسه في عصرنا هذا الذي نعيشه، وبدعم من أمريكا بمن يطلعك على كل خاض حرباً شعواء مع جارته إيران. سأبعث إليك كما وعدتك، إلى العراق محفوف مستجد يغيب عنك، وما يهمنا في هذه الساعة، هو أن السفر بمخاطر حقيقية.

توقف الوزير عن حديثه، دون أن يوقف نظرات صوّبها نحوي، كأنه يقيس بها درجات مبدياً قناعتي، وبالرغم مما كان يعتمل في داخلي من قلق وحيرة، فقد حركت رأسي قناعة ملتبسة، مما جعله يبتسم ويضيف:

ــ مادام غيابك عن العراق قد استغرق عشرة قرون وثلاثة وعشرين عاماً، فلا بأس إن زاد بضعة أشهر أخرى، إلى أن يهدأ الوضع.

خيمت فترة صمت قصيرة، فتداعى إلى ذهني محمد شكري، وتذكرت طريقته المسلية على فيما يبسطه من أفكار بصوت حاد مرتفع، دون أن أنسى أنه كان المطلع الوحيد لي في بعض مؤلفاتي، العارف بأني كنت قد أضرمت النار فيها، ولن أجد غيره مؤنسا بمقدوره دعوته هذه العزلة المضطربة. قلت هذا في نفسي، وسألت الوكيل العام إن كان لزيارتي، بعد أن يرحل معالي الوزير.

لكن ما إن سمع الوزير اسم شكري حتى انفجرت حنجرته بسؤال باغت به الوكيل العام:

ــ من أين هذه العلاقة بين الشيخ أبي حيان ومحمد شكري؟

أجاب الوكيل العام في شبه ارتباك:

التحقيق ــ لا تجمعهما يا سيدي أية علاقة، كل ما حدث أن السيد وكيل الملك، وأثناء كتب الشيخ التمهيدي مع الشيخ أبي حيان، استقدم محمد شكري ليستأنس برأيه في.

ــ من أين لشكري أن يمتلك رأيا في مؤلفات الشيخ أبي حيان حتى يُبديه؟

تساءل والغضب يتسلق وجهه، لكن لا أحد تجرأ على إجابته، فأضاف برنة تقل حدة عن سابقتها:

ــ التحقيق يكون سرياً، سترى كيف سينتشر هذا الخبر غدا صباحاً في أكثر من صحيفة.

فقال له الوكيل العام:

سبق يا سيدي أن أصدرت أمري إلى الحاضرين أثناء التحقيق، بكتمان سر هذه القضية.

(12)

المطلة على البحر، حلّ المساء، وأنا وحيد في إقامتي، فافترشت وسادة في الشرفة الدنيا، اكتسحني يقين وصرت أرقب الشمس قبل مغيبها، وأستحضر في الآن ذاته هموم ما كانت تجمعهما، جازم بأن وزير العدل يضمر عداء لمحمد شكري، لعل صداقة إجراء التحقيق معي، وينعته فانقلبت إلى عداوة، وإلا ما كان ليحتج على حضوره أثناء بوصف يحط من شأنه.

متوازنة، إذ جعلني هذا أفكر في الصداقة بين العالم والحاكم، تلك التي يستحيل أن تكون العالم الحق، يدين التزلف من شيم السلطان، الترحيب بالتزلف والاستلذاذ بالإذلال، بينما ويرفض الإذلال.

تذكرت ما حدث لي مع الوزيرين أبي الفضل بن العميد والصاحب بن عباد، فقد كنت كان على كمن يلقم حجراً كلما استمعت إلى آرائهما، عكس الفقيه "ابن مسكويه"، الذي رفاقه، مسلوبها خلافي، كبير النفس مع العامة، صغيرها أمام الحاكم، قوي الكبرياء مع رياء مثل ما فعل هذا أمام الوزراء، ما أبصرت عيناي عالماً سخّر عواطفه وأحاسيسه والإعجاب المنقطع النظير لأبي الرجل، فقد أوصله تزلفه حدّ إبداء المحبة الصادقة، تجارب الأمم" و "تهذيب الأخلاق" من أجل " الفضل بن العميد، لدرجة أنه خصّ كتابيه العميد وفترة حكمه، دون أن يرى في ذلك أية نقيصة، إشاعة السمعة الرائعة عن ابن كل ذلك ليصبح معلماً لولده أبي الفتح، وليظفر بعدها بوظيفة وكأنه منزه عن الأخطاء،

مكتبة بغداد، ولينزل إلى الدرك الأسفل من الإهانة، ليصير نديمه قيّم ومؤتمن على سهراته وملذاته ببلاطه وجليسه في.

أخرى مع يا له من رجل وضيع النَّفْسِ، جرفته تلك الحياة السرابية، ليرتبط بعلاقة ليتسلق نخلة أخرى الوزير المهلبي، الذي تسلقه كما يتسلق سارق التمور نخلة، فجاوزه برعاية منه جعلته أعلى وأنضج، هي عضد الدولة، أكبر أمير بويهي، إلى أن حظي القصر الذي كان يتصدر قاعة الجلوس في قصر البركة، لا أدري كيف صار ذلك شك قد صهرته في متمطياً فوق دجلة، إن لم يكن قد جرفه النهر، فإن الأرض دون باطنها، مثلما غيّبت ابن مسكويه.

أفز بسكينتي أما أنا، فلم أطق إذلال الوزيرين، عافتهما نفسي لتكبّرهما ولتعجرفهما، ولم المنتصر، وهما الخاسران، وتوافقي النفسي، إلا بعد أن تعاليت على مقامهما لأصير أنا قلمي كان أبتر من سلطانهما وما كتابي "مثالب الوزيرين" إلا حجة قاطعة على أن.

ضحكت وأنا أتذكر ما قلته لمسكويه حين أطلعني على ما دونه عن ابن العميد:

ــ لكنك يا مسكويه، لم تشر ولو بطريقة مواربة إلى عشق ابن العميد للغلمان.

فانتزع أوراقه من يدي، وقد اعتلى وجهه غضب شديد ولاذ بالفرار.

أتكون علاقة محمد شكري بوزير العدل المغربي، شبيهة بعلاقتي بالوزيرين العراقيين؟

عدت لأرقب الشمس، كان قرصها قد بدأ يغوص في البحر. فاصطبغ الأفق باحمرار واقعاً شاحب، مع زرقة أرجوانية داكنة، أضفى عليه خرير ارتطام الموج على اليابسة بعيدا عن سحرياً، صبغ نفسي بمشاعر أججت حنيني إلى بغداد ونهاوند، وإلى وجودي زماني ومكاني.

نصير، فكرتُ في الأجيال التي ركبت هذا البحر، أجيال طارق بن زياد، وموسى بن ركبته في والشعراء والقراصنة والمغامرين واللصوص، وفكرت أيضا في نفسي حين رفاق القافلة في العلم ذلك الزمان البائد. أجل، كنت في كامل انشراحي وتألقي، أُفَقِّهُ الأربعة، أوخامسهم، دون أن يغيب عن والحديث، وأؤم بهم الصلاة، وكأني أحد الأئمة ذاكرتي رجوعي المأساوي إلى مدينة طنجة.

تماهي هربت من نفسي إلى تأمل انكسار الأمواج على الشاطئ، بعد أن تأكد لي انفصال أقتنص واحدة وذاتي. بدت لي كل الأمواج متشابهة، لكنني، بين الفينة والأخرى، كنت التفكير في ذاتي، تكون غريبة عن أخواتها، فأمثل بها نفسي، هكذا قسراً عدت إلى اثنان، وبانفصالي عنها وحاولت من جديد أن أفصلها عني، أقنعت نفسي بأني وذاتي

يأسها.فعجزت مرة أخرى أستطيع أن أجد حلاً لعجزها، وأن أنسف بعض ضروب.
وبينما أنا كذلك، إذ بجرس التلفون يقطع حبل تأملي، فعدت مهرولاً إلى الصالة، رفعت قطعة الجماد إلى أذني، فوصلني صوت حاد النبرات:
ــ أُنْعِمت مساءً سيدي أبا حيان. أنا محمد شكري في بهو الفندق، أتأذن لي بزيارتك في غرفتك، أم أنتظرك في مكاني؟
ــ تعال إلى إقامتي.
أجبته:
ملتهمتين ما إن فتحت له الباب ليبدو أمامي بشعر رأسه الأشعث، حتى جَحِظت عيناه شخصي، فأدركت أن مظهري أذهله، دعوته إلى الدخول وأنا أقول له:
ــ لاتشرحنّ لي ما طرأ على شكلي، فأنا أيضاً ذهلت أمام المرآة، وأنا أشاهد نفسي بلباسكم هذا.
لغز أشرت عليه بالجلوس، لكنه ظل واقفاً مأخوذاً، كأنه يحاول تفسير حلم مبهم، أو أن يغادره. محير، وأعدت الإشارة بيدي إلى المقعد الذي كان يعتمره وزير العدل قبل كتفه، وظل فاستوى فوقه، ووضع بجانبه حقيبة جلدية صغيرة كانت تتدلى من فوق يحدق في وجهي. ودون أن أكبح ضحكة صدرت عني، سألته:
ــ أتراني أختلف عن بني البشر؟
وهو حي ــ أبداً أبداً والله، بل أراك شديد الشبه بشاعر عربي أعرفه، اسمه أدونيس، محتالا، يرزق، دعني أشرح لك، عندما رأيتك بالأمس في مكتب وكيل الملك، حسبتك الإنسان القديم عن أو مجنونا، كنت أكثر من استبعد حقيقتك استناداً إلى نظرية اختلاف النظرية مستحوذة المعاصر. وحتى بعد أن اتضح أمرك، وتأكدت حقيقتك، ظلت هذه وأنا أراك الآن، انتهى على فكري، شاغلة ذهني، بين الرافض لها والقابل بها، لكنني البشري لم يطرأ عليه تغيير منذ وجود يقيني إلى خرافية تلك النظرية، وإلى أن الجنس سيدنا آدم وزوجه حواء على سطح الأرض.
عدت إلى الضحك وقاطعته:
ــ أأنت على يقين أن آدم تزوج من حواء؟
أربكه سؤالي لوهلة، فضحك وأجاب:
ــ إن المسكين لم يكن له من اختيار، فقد كانت الأنثى الوحيدة في الدنيا، وكان عليه أن يقبل بها رغم أنفه.

ـــ هي أيضاً كان عليها أن تقبل به رغم أنفها، فقد كان الرجل الوحيد في الدنيا.
ـــ لا شك أن الله أبدعها على أحسن تقويم وبذلك عُمِّرت الأرض بهذه الألوان البشرية.
عدت لمقاطعته:

ـــ أمن الضروري أن لا ينصبّ حديثي معكم معشر المغاربة، إلا عن الخوارق أو الساعة؟ كأن النظريات؟ أما كان أجدى أن نترك لسجيتنا حديثها فيما يريحها من أمور أو أي شيء آخر يبقينا تدلني على واقعكم المعيش، أو علاقة أولي الأمر منكم بالرعية، فوق الأرض ويقصينا عن ما تتناقله بطون الكتب؟

ضحك محمد شكري ودسّ يده في جيب سترته، فأخرج علبة صغيرة من الورق المقوى في حجم كفّ اليد وقال لي:

ـــ إنها علبة دخان تحوي عشرين لفافة، أستهلك منها علبتين في اليوم، وثمة من يكتفي أن أفتى بواحدة، أو بأقل من واحدة في اليوم. ولعلمك، فهي ليست محرمة، فقد سبق فانتشر تدخين بعض المتزمتين بمكروهيتها، لكنْ سرعان ما أبطل الواقع هذه الفتوى، فالسجائر انتشار النار في الهشيم. مما جعل أحد الشعراء يقول:

قَالُوا تَعَاطِي الدُّخَانِ قُبْحٌ
فَقُلْتُ لاَمَابِهِ قَبَاحَهْ
يُصَيِّرُ الْمَرْءَ فِي نَشَاطٍ
وَفِيهِ عَوْنٌ عَلَى الفَصَاحَهْ
وَلَمْ يَرِدْ بِالْحَرَامِ نَصٌّ
وَالأَصْلُ فِي شَأْنِهِ الْإِبَاحَهْ

بها بنفسه، تناول من علبته لُفافة ألصقها بفيه، وأوقد في عقبها ناراً، وصار يمتص ما ويستخرج من فتحتي منخاره وفمه دخانا ينشره في الفضاء، وقال لي:

ـــ إن ما أقوم به يسمى في قاموسنا المتداول بالتدخين، وأنا أدمنه منذ أن كنت في سيتقد العاشرة من عمري، إنه يساعد مزاجي على الروقان والخصوبة، سترى كيف تقبل تدخين ذهني، وتغمرني حالة إشراق تسعفني بفتوى أو مشروع يبعد عنا السأم، هل لفافة من باب التجريب؟

ـــ لم لا، مادام الأمر كما تقول، فلأجرب.

وضعت لفافة في فمي، فأوقدها لي بعود ثقاب، وطلب مني أن أدعها تتسرب إلى واقفا داخلي، فامتثلت لأمره، وإذا بسعال مفاجئ يبطش بي حد الاختناق، فانتصبت

أستوي فوق وهرولت إلى الحمام، غَسَلت وجهي وحلقي، ثم عدت إلى الصالة، وقبل أن مقعدي، بادرته قائلا:

أنت في ــ بعد هذه التجربة المريرة أعلن لك، بأني والتدخين شيئان متضادان، لتنعم به أو بطش سعال حفظ الله ورعايته، أما أنا فإشراقاتي الذهنية لا تحتاج إلى غثيان.

لم يكف عن ضحكه، كأن ما ألمّ بي يدعو إلى الانشراح والقهقهة، فعلق مزهواً بعد أن أخذ نفسا من سيجارته:

فمذاقه مرّ ــ التجربة الأولى عادة ما تكون مُنفِّرة، كحال تناول النبيذ لأول مرة، في أفواهنا إلى مذاق كالعلقم، لكن النشوة التي يحدثها تشفع في إعادة تناوله، ليتحوّل العسل.

قاطعته:

ــ لست على مذهب أصحاب القياس، ولا من المتحججين بالضارة النافعة.

ــ لكم دينكم ولي دين.

أكدت لي جملته هذه طبعه الحاد، وأضاف:

ــ أتعاقر الخمر يا أبا حيان؟

لدواعي لم أجبه، وتعمدت، وأنا أنظر إليه، إطالة صمتي، عله يقدم شرحاً أو مبرراً وكأنه فقيه سؤاله، أو يعتذر من الأساس، لكن بعد أن ظل هو الآخر محدّقاً في وجهي ضيافتي، فأجبته يحث تلميذاً على جواب، أَشْفَقْتُ عليه من غروره، وهو في:

ــ ليس مع العامة، ولا مع الدهماء.

انفرجت أسارير محياه، وخاض في الحديث:

ــ كنت ستخيِّب ظني وتصدِمني إن كنت أجبت بالنفي، ذلك أنه ليس من طباع المشتغلين بالفلسفة والفكر الإحجامُ عن معاقرة المدام، ولو من باب التجريب. أما انحداري في اقتصارك على الخاصة دون العامة، فهذا ما اهتديت إليه أنا أيضا بعد ثم ارتقت إلى الخاصة، الشيخوخة، فقد كانت بدايتي مع المهمشين، ثم ارتقت إلى العامة، بالقرف فخاصة الخاصة، بعد أن صارت مجالس العامة تصيبني.

قاطعته:

ــ تزعم أن التدخين يمنحك صفاء الذهن، ويلهمك إشراقا يبعدك عن الضجر والسأم.

ترى بماذا ألهمك وأنت مشرف على تدخين ثلاث سجاير؟

ــ لا تتعجل الأمر يا سيدي، فقد كنت بصدد إخبارك بأنني أعددت في ذهني خطة

محكمة للتسلل من فندق السراب هذا.

ــ وإلى أين إن شاء الله؟

ــ إلى قلب مدينة طنجة، ألم تسألني أن أدلّك على واقعنا المعيش؟

ــ بلى، سألتك!

ــ إذن علينا أن نغادر الفندق دون أن ينتبه أحد من المسؤولين أوالخدم. وفي المدينة ستقف بنفسك على واقعنا.

ــ افرض أنهم انتبهوا، فهل يعترضون سبيلنا؟

بوجودي ــ بكل تأكيد، فرجال الشرطة السريون، يطوقون مدخل الفندق، وهم على علم أي حتى زيارتي معك، فقد تلقّوْا إذنا خاصا من الوكيل العام للملك يسمح لي بزيارتك، لك كانت متوقفة على إذن الوكيل العام.

ما العمل إذن؟ سألته فأجابني:

الرئيس، كما ــ ألم أقل لك إنني أعددت خطة محكمة، اسمع، أنا سأغادر الفندق من بابه الشاطئ، أو عبر النافذة لو كنت قد ودعتك، وأنت ستتسلل من جهة النافذة المطلة على وتسير بمحاذاته إلى أن تجتاز منزلاً ذاتها. ستنزل دركات السلم المفضية إلى الشاطئ، فتعرج يساراً مولياً ظهرك للبحر. بعد بضع صيفياً مضاءً يملكه أحد الأمراء العرب، صحبة سائق سيارة خطوات ستجدني في الطريق العمومي.

تناول حقيبته، وعلقها بكتفه، وقال لي:

ــ أتمنى أن لا تفشل خطتُنا، لا تنس أن تحمل معك مفتاح الإقامة.

خطا إلى الخارج، ثم التفت نحوي وأضاف:

حاول أن ترتدي سترة فوق قميصك، فقد تكون الليلة باردة.

(13)

مصحوباً بنسائم عشب البحر، كانت الليلة فعلا باردة، سرت فوق رمال الشاطئ المبتلّة، فانتبهت إلى أنني مغلّف بأحاسيس وضوء القمر، وصخب الأمواج، والتوحُّد، والظنون، والحزن، أو من الفرح والكآبة. لقد سبق أن مضادة، متناقضة، لعلها مزيج من السعادة استطعت أن أستحضر مكانها وزمانها، فقد كنت في اعترتني أحاسيس شبيهة بهذه، بل ذلكم هو المكان، وكنت فتى يافعاً، ذلكم هو الزمان، ليس في مدينة المحمّرة الفارسية، فما أيسر تذكر الأحاسيس حين تعاودنا هذا أية غرابة،.

من خيل لي أن ريحاً عاصفة تدوي بداخل رأسي، وتغسل ذاكرتي، فتزيح ما تراكم بها البعيدة، تلك طبقات النسيان، وتفتّقت بصيرتي، لتفرد لي مشاهد لوقائع عينية من حياتي التي كانت في طي العدم، كما لو أني كنت أعمى، فصرت بصيراً.

وانزلق اسمها من لساني، فتوقفت وسط الشاطئ وخاطبت نفسي، ماذا؟ قلت شهربان؟ لفظت اسمها؟ لم أصدق، كيف لي أن أصدق وأنا منذ عشرات السنين، وقبل عشرة إلى قرون، أحفر عن اسمها في ذاكرتي، إلى أن تملكني اليأس وصار يقيني بأنه امّحى المنسية الأبد، وفجأة يطفو على سطح ذاكرتي، لتتقشّع معه كل تفاصيل أيامي.

ازددت وثوقاً من حالتي الخارقة، وفي لمح البصر مرّ سجل حياتي في ذهني. أرسلني أجل كنت في ضيافة الحاج عبد الحسين التوحيدي، أعز أقرباء والدي، كان قد وحده تولّى إليه لأتعلم الفارسية والسيسانية، رجل على قدر من التقوى والعصامية، والحساب، أستطيع أن تدريس ولديه قواعد العربية والفارسية والسيسانية، وعلوم الدين الجهوري وهو يتلو القرآن، أتنسم رائحة طيبه المعلوم من عمامته السوداء، أما صوته أذني، وكأني لم أغادر بعد مدينة أو يؤم بنا الصلوات، فإني أكاد أسمعه الآن يرن في المحمّرة.

يتولى كنت وولديه نتناوب على جلب الماء من العين الرابضة عند سفح الجبل، كان متطوعاً، ليس إيثاراً أحدنا كلّ صباح هذه المشقة، لكنني أعفيتهما منها، وتحمّلتها وحيداً أو كرماً مني، وإنما لغاية في نفس يعقوب.

بما كنت أستيقظ مع نسمات الفجر الأولى، فأستر جسدي ببقيري الصوفي، وألف رأسي الماشية يشبه العمامة، وأسرع لأسابق الريح نحو العين، قبل أن تنقع ماءها حوافز والدواب.

في هناك، كنت أنتظر مجيء شهربان، فتلوح رفقة صبيات كما يلوح القمر مكللا بنجوم وجودي، ليلة ظلماء، فأقترب منها ثم أبتعد ثم أقترب، محاولا أن ألفت نظرها إلى انفراد؟ لكنني وتكرر إقبالي وإدباري، فتجرأت وقلت في نفسي، ماذا لو تقابلنا على وأدعك ما تلمسه حققت حلمي في خيالي، فلا رقيب على خيالي، أفتح أزرار قميصها الحسين لأداء الصلوات، أصابع يدي وراحتها، وحين أصطف مع رفيقيَّ وراء عمي عبد وأعود لأحلام يقظتي أدعو الله أن يغفر لي ما تقدم من ذنوبي وما تأخر.

الجبل، وتحقق ذلك الحلم البعيد المنال، ليس في خيالي، وإنما على أرض العين في سفح زكية، وكأن بين شجيرات الصفصاف والصنوبر والعرعار، ونباتات برية ذات روائح

كل شيْء أُعد عنوة ليتم مشهداً كنا بطليه.

ما أروع أن تتحول أمانيك إلى معيش حقيقي، إن ذلك شبيه بالشيء النادر الحدوث، لكنه تحقق لدي مع شهربان.

وابتسمتْ لي، في ذلك الفجر العذري، وجدتها وحيدة تملأ جرتها، وحين تقابلتْ نظراتنا، لها، لكنها كانت ارتبكتُ وانتفض قلبي، وبكلمات مني، مرتعشة مضطربة، لا معنى عرفتُ أنها هامت بي، بليغة في إثبات هيامي بها، وبكلمات منها مرتعشة مضطربة، تكون فارسية من المحمّرة ومثلما سرّها أن أكون عربيا وافدا من بغداد، سرني أن.

نخفي عند سفح الجبل، صرنا نلتقي كل فجر، نخفي ما نحمله من أواني السقي، مثلما اسمها شهربان، قامتينا بين الأشجار والنباتات البرية الباسقة، لم أكن أعرف بعد أن فاحم، تدلّت إلى لكنني عرفت، بل ونزعت عن رأسها بخنقها لتتكشف لي خصلات شعر أمامها وجها لوجه، أن خلتها ستصل إلى الأرض، وفتحت أزرار القميص وأنا أنتصب مطوقاً برعشة محمومة.

في تلك اللحظة بالذات، قُدر لي أن أكتشف عذاب متعة تحقيق الحلم.

الوقت توقفت في الشاطئ، وفكرت في شكري الذي ينتظر التحاقي به، لكنني فكرت في أيكون طيفها ذاته في شهربان، وفي الهوة التي تفصلني عنها، وفي حالتي الخارقة هذه، يحوم الآن حولي، فيسعف ذاكرتي باستحضار ما غاب عني.

كنت عدت إلى تلك الأيام في المحمّرة، استحضرت ذلك الطقس الخريفي البارد، حين وأصدح بالغناء، أنسل من بين الأصدقاء، فأتدحرج نحو الشاطئ، أسير فوق رمله المبتلّ عزّة، وأبكي، وأبكي، أو بترنيمات لأبيات من شعر أبي ربيعة أو جميل بثينة أو كثير أعيش العشق الحقيقي، دون أن مستعجلا رحيل الليل لقدوم الفجر، لأقابل شهربان، كنت من فقدان شهربان أعرفه، ولعل مصدر بكائي كان عشقي، أو شدة خوفي.

زمان وها أنا ذا أعاود السير ليلا، على رمل شاطئ مبتل، عارف بأحوال العشق، في ومكان غير زمانه ومكانه، كأني الأزل ينتقل من عصر إلى عصر.

(14)

إلى أن لاحت أوليت ظهري البحر، فظل المنزل الأميري عن يساري، سرت بجواره الخلفي، ثم عاد وجلس سيارة واقفة في الطريق، ترجل منها محمد شكري وفتح لي بابها ضخم جموح، تُرسل عيناه شرارة إلى جوار السائق، فانطلقت بنا السيارة وكأنها حيوان

ضوء يحيل الظلام نهاراً.

مزدانة أراد أن يقول شيئا، فأسكته ليتركني في سرحاني، لكن ما إن ولجنا أبنية منشغلا بليلة بالألوان، حتى صار يدلني على معالم لم أُعرها اهتماما، فقد كان ذهني حداً فاصلا بين كانت أطول ليالي عمري، تلك التي تأخر فجرها عشرة قرون، لتكون عصرين.

هل استغرقت تلك الليلة حقّاً عشرة قرون؟

عليَّ أن أصدق قبل أن أطلب من الآخرين تصديقي!

ما إن توقفت السيارة، حتى قفز محمد شكري خارجها، وفتح لي الباب، وخاطبني:

ــ مرحبا بك صديقي أبا حيان في قلب مدينة طنجة، الشارع يسمى "موسى بن نصير" والمطعم الذي سندخله يسمى "الريتز".

عاد إلى صاحب السيارة، سمعته يشكره، ثم رجع حيث أقف، ودعاني لولوج المطعم وهو يقول لي:

بعد أن اتخذت هذا المطعم مقراً لي، جعلت منه ملتقى للمثقفين من معارفي وأصدقائي، أتقبل أن تكون أحدهم؟

حركت رأسي موافقاً ضاحكا، فتقدمني ينزل دركتين لنصير وسط المطعم، انحنيت فالتمس برأسي مثله محييا ثلاثة أشخاص ملأوا إحدى الموائد. وقف أحدهم وصافحنا، شكري منه بأدب جم، أن ينتظر إلى أن يفرغ من أمر له معي، وصار يدلني:

ــ الذي نراه في الزاوية حان صغير، والقنينات المرصوصة فوق الرف أنبذة مغربية.

لم أتمالك دهشتي، فسألته:

ــ خمور تعرض في مطعم علانية؟

ــ ماذا يدهشك في هذا؟ جل البلاد الإسلامية تُسوِّق الخمور جهرا، أما كان في العراق خمور وحانات؟

العدوية ــ بلى، هناك حانات من زمن جلجامش، ومنها حانة بغدادية كانت تديرها رابعة إلى حانات قبل أن تتصوف، أذكر أن أبا نواس كان يؤمها، كما كان يسافر من بغداد بطرق سرية، ويقام خارج مدينة الحيرة، أما الخمور فلا تعرض في الأسواق، بل تباع وبطانته الحدّ على بائعها ومقتنيها، باستثناء حاشية الخليفة.

ــ أنت تتحدث عن العراق قبل عشرة قرون. الأمر يختلف اليوم، دعنا من هذا الآن، وتعال أطلعك على الصور التي تزدان بها جدران المطعم.

يكاد تابعت الفرجة على صور تجمعه بأدباء وشعراء وسياسيين. صور عجيبة حقيقية، أصحابها ينطقون، توقف عند صورة لرجل دمث الملامح، وقال لي عنه:

قليلة. ــ إنه الشاعر عبد الوهاب البياتي من العراق، قضى نحبه في دمشق منذ سنوات ثلاثين عاماً. انتقل لقد ظلَّ صوته رعداً مدوياً، وكان نسرا جريحاً، أعرفه عن كثب منذ بعدها إلى صورة أخرى، وقال لي عن صاحبها:

فراره ــ مناضل معارض عنيد، ابن مدينة طنجة، حكم عليه بالإعدام، لكن رفاقه دبروا تثير الإعجاب إلى خارج المغرب، وبعد عقد ونصف، عاد ليصبح وزيراً أوّلَ، حكايته الراهنة والدهشة، وقد تفيد في فهم أوضاع السياسة العربية الإسلامية.

لم أتمالك نفسي وأنا أنعم في صورة هذا المناضل المغربي، فقلت:

ــ إنه يشبه بالتمام صديقي أبي زكرياء يحيى بن عدي النصراني البغدادي.

أشار إلى مائدة تحف بها أربعة مقاعد منزوية في ركن عند مدخل المطعم، وأخبرني:

إنها مائدتي الموقوفة عليَّ، لا يجلس بها أحد سواي.

قرون أسايره وأستمع إليه، لكنني كنت منشغلا في الوقت ذاته بحال العراق، بعد عشرة جملته القصيرة من رحيلي عنه. فقد قال لي، إن الأمر يختلف اليوم، دون أن يدري أن أجوبتها غامضة، رغم ما قد هذه دوَّختني، وفجَّرتْ في دواخلي بركاناً من أسئلة ستظل أقف عليه من كل مستجد في العراق.

ما كدنا نجلس حول مائدته المفضلة، حتى وقف علينا رجل في مقتبل عمره، خمري فوق بسمة اللون، طويل كنخلة لم تثمر بعد، شاربه قصير داكن السواد، محفُوفٌ بعنايةٍ لا تفارقه:

فهو يعرف ــ إنه عبد الحفيظ، النادل القيّم على جميع الزبناء، لكنني أنا مستثنى منهم، معدتي، ولعلمك، عني كل شيء، نبيذي المفضل، وعاداتي، وأصدقائي، حتى ما تشتهيه فإن معدتي تشبه معدة عصفور، فهي تفضل الشراب على الأكل.

يضحك ويتحدث، ويطلب من عبد الحفيظ أن يأتينا بما لديه، ويسألني في حضوره:

ــ أتجرب نبيذاً مفضلا لدي؟ ودونما اكتراث أجبته.

ــ أريد ماء.

ــ صديقي يرغب في أن يفتتح الجلسة بالماء، اسقه ماء، ذاك شأنه!

قال للنادل قبل أن ينصرف، ورحّب بالرجل الذي سبق أن صافحنا، وأشار إلى شخصي قائلا:

ـــ هذا أبو علي، صديق من العراق.

ثم انحنى عليَّ، وهمس لي:

ـــ حتى لا ينكشف اسمك، ثم إن الشاعر البياتي الذي شاهدنا صورته، كان يفضل أن نلقبه بأبي علي، أليس اسماً عراقيا؟

حركتُ رأسي بالإيجاب، فعاد إلى رفع صوته معرفاً صديقه الشاب:

ـــ إنه عبد القادر، كاتب مغربي متميز، ولعله درس الفلسفة بكلية الآداب، إن لم تخني ذاكرتي!

ـــ ليت لي مثل ذاكرتك.

علّق عبد القادر، فضحك شكري وقال لي:

ـــ الرجل صادق فيما يقول، ذلك أني أمتلك ذاكرتين، إحداهما ذاكرة الأمي والأخرى ذاكرة المتعلم، وقد لازمتني ذاكرة الأمي إلى أن بلغت سن العشرين، ففي هذا العمر الأمي تسعفني في حفظ بدأت أتعلم القراءة والكتابة. أما قبل ذلك، فقد كانت ذاكرة جاهلا، بل كنت أكثر إطلاعا ولباقة الأسماء والأرقام والحكايات، لكنني وأنا أمي لم أكن أُناوِلُها لمن يقرأ لي مقالات منها، في حين من متعلمي هذا الزمن، كنت أقتني مجلات يقرأون شيئا أن هناك متعلمين جاهلين، لا.

ضحكنا جميعا.

غاب أحضر النادل قنينة شراب مع أقداح زجاجية مكتنزة، وقنينة ماء خاصة بي، ثم لِرَدِّ جوع فترة زمنية قصيرة، عاد بعدها يحمل صحونا صغيرة بمأكولات قليلة، لا تكفي رجل واحد، زيتون وباذنجان وفجل، وردّاً على ذهولي عقب شكري:

ـــ لاتحسبَنَّ هذا أكلا، إنه مجرد مزّة معتادة لفتح الشهية لا غير.

ناحيتي، حين صبَّ عبد القادر كأس نبيذه، أسرعت أنا فملأت قدحي بالماء وقرّبته ببعض وكأني بفعلي هذا أعلن رفض شرب الخمر، فابتسم الرجل وألقى في جوفه يهاجم الشيب كل شرابه. في تلك الهنيهة دخل المطعم شاب مربوع القد، أميل للبدانة، لم واحدا واحدا، فدعاه شكري رأسه بعد، وقد طفح محياه بطيبة لا تخطئها العين، صافحنا مرحبا، وقال عنه:

ـــ هذا رجل حلو المعشر، طموح، بدأ حياته مدرساً صغيراً إلى أن أصبح أستاذاً للآداب العربية، اسمه عبد اللطيف.

وأشار إلي، وهو يقول لضيفه الجديد:

ـــ أبو علي، أديب وفيلسوف من العراق.

صبَّ كأساً لضيفه وخاطبني:

ـــ تأكد يا أبا علي من أنه لا وجود لأحد من العامة في جلستنا هذه.

سكت قليلا، ثم وكأنه لم يُطق صبراً عاد يستفسرني:

ـــ إلى متى ستظل تشرب الماء؟

ـــ إلى أن يشاء الله، بعد ذلك سأتدبر أمري.

أجبته:

اسم مرَّ زمن شرد فيه ذهني عما كان يروج بينهم من أحاديث، إلى أن استرقت أذني الحديث عن أبي حيان التوحيدي، فتساءلت في حالة استنفار، ظناً مني أنهم بصدد واقعتي:

ـــ بالله عليكم، عمَّ تتحدثون؟

أسرع شكري يجيبني:

بول " عن مرارة الاغتراب، وقد استشهد عبد القادر بثلاثة فلاسفة هم "كيركيجور" و الاغتراب تيليش" و "أبو حيان التوحيدي"، صنفهم فلاسفة حاولوا التخلُّص من مأزق النفسي، عن طريق الإيمان بالله.

وأضاف عبد اللطيف:

ـــ جعلوا الإيمان ملجأ ومنقذاً من الاغتراب.

صمتوا في انتظار وجهة نظري، فقلت لعبد اللطيف:

قد تصدق نظريتك عن الفيلسوفين الأجنبيين، فأنا جاهل بهما، لكن بالنسبة لأبي حيان، فبودي لو أعرف مصدر استنتاجك هذا.

رد عبد اللطيف:

ستجد "الأمر في بساطة شرب كأس ماء، فبتقليبك لصفحات كتاب "الإشارات الإلهيّة ناشدا التعلق التوحيدي ينادي ربه ويناجيه بنبرة صادرة عن قلب خاشع ذليل، متضرعاً، واغترابه بحبل الإيمان، وذلك دون شك، محاولة منه للفرار من يأسه.

فتدخل عبد القادر.

الصمود، ـــ إن ألبير كامي سمّى أمثال هؤلاء بـــ "الفلاسفة المنتحرين"، لأنهم رفضوا الطبيعة، شأنهم في هربوا من مواجهة مصيرهم بالعقل والمنطق، واستسلموا لما وراء ذلك شأن من يتشبث بالسراب اتقاءً الغرق.

لكن ما حركت رأسي موافقاً، مع أني لم أتفق في داخلي مع استنتاجهم السطحي الساذج، بأني أدهشني هو اهتمامهم بشخصي، إذ لم يخطر ببالي ولربما ببال من عاصرني، قرون سأظل حاضراً في المشهد الفكري العربي الإسلامي طيلة هذه القرون، عشرة أني مرت والناس ينبشون في أفكاري وشخصي، دون أن يأخذ موتي سوى جسدي، مع كتبي، إذ لم أكن أنشد المجد كما فعل المتنبي والمعري، لدرجة أني أضرمت النار في هكذا تعمّدت كان يقيني أني جئت إلى هذه الدنيا في صمت، وسأرحل عنها في صمت، تمرّدت على صخب العيش في الظل، دون أن أسعى إلى سلطان أو مجد، أيكون لأني عدت إلى الدنيا، لكنني إلى الدهماء وعلى الأصوات النشاز؟ سأتعرَّفُ الحقيقة مادمتُ قد الأولى تلك، لم أكن أعير ذاتي أي حد هذه الساعة ما أعلمه يقينا هو أنني في حياتي هذه الذات التي لم تر إلا العثرات بعد اهتمام، ففي إحراقي لكتبي كنت أحرق ذاتي، والقناعة بالوحدة العثرات، وإلاّ الاستئناس بالوحشة.

(15)

انتشلني شكري من ذهولي الداخلي صارخاً:

ـــ أنت غائب عنّا يا أبا علي، لا تشاركنا الشراب ولا الكلام، ولا حتى الاستماع.

ـــ معذرة، فقد كنت شارداً في هموم الدنيا، إنما صدقوني بأني أريد أن أستفيد. فعمَّ تتحدثون؟

أجاب عبد اللطيف:

ـــ مازلنا نَنْبُش حياة أبي حيان الذي قهر اغترابه بلجوئه إلى مرساة الإيمان، محاولا التصالح مع ذاته. فما قولك وأنت من بلد أبي حيان؟

دققت النظر في وجوههم جميعاً، وأنا أعتزم دحض ما أجمعوا عليه، فقلت لهم:

غريبا عن ـــ لم يلجأ أبو حيّان إلى الإيمان لقهر اغترابه ومصالحة ذاته، فهو لم يكن وانتهى مسلما مؤمنا. ذاته حتى يصالحها، بل كان متوحداً معها، فقد نشأ مسلما مؤمنا، نقيضه، كحال الملاحدة حين إن اللجوء إلى الشيء لا يكون إلا من خارجه أو من بالله، وأبو حيان لم يكن ملحداً، فإذا كان قد يهربون من القلق إلى الثبات، أي إلى الإيمان تقدم به العمر وخبر الحياة، إلى إيمان أقوى، وهو ما انتقل من إيمان ضعيف، بعد أن مؤلفاته "الإشارات الإلهية"، فإن ذلك ليس هروبا ولا لجوءاً ولا أفصح عنه في آخر كُمْ أو جديداً للإيمان، فأحرى أن يكون انتحاراً، كما زعم فيلسوفكم النصراني كَمْ اكتشافا

كِمْ كَمْ، لا أذكر اسمه، ولعله مات منتحراً.

فأسرع عبد القادر يقول:

ــ ألبير كامي، لا تقل لنا يا أبا علي إنك لا تعرفه، فهو كما تقول، قد مات منتحراً يقيناً.

فتدخل شكري وسألني:

وما قولك في اغتراب أبي حيان؟

إيمانه الشديد ــ الرجل في مسير حياته كلها لازمه إحساسه الشديد بالغربة، مثلما لازمه كان مسلما قويا متمكنا من كل بالله، ولا تنافر بينهما، ذلك أنه لم يكن مسلما عادياً، بل الاكتفاء بالحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن " علوم عصره، لدرجة أنه ألف كتاباً أسماه المجالس العلمية بين مؤيد ورافض ومتردد، وذهب في الحج الشرعي"، فأحدث بلبلة في فوق فرائض السنة، وهي أفكار جريئة لا يستطيع تناولها إلا قوله إلى أن أعمال القلوب ببراهينه وحججه، أما ظاهرة اغترابه، فلا يمكن فصلها عن عصره، مسلم عالم، قوي اتسم به عصره؟ أتعلمون بما

صمت الجميع منتظراً ما قد أضيفه، فتابعت حديثي:

والإهمال ــ في عصر التوحيدي، عانى أهل الفكر والعلم من الإحساس الشديد بالعجز التوحيدي عن الاغتراب، والفاقة، تولى جلهم أعمالا وضيعة لسد رمقهم، فجاء ما كتبه القمّة ثقافياً والهاوية صدى يمثل روح ذلك العصر، وبإيجاز كان عصر التوحيدي سياسياً.

وفيلسوفاً، في الحقيقة، كان بودي أن أعرف موقفكم من آراء أبي حيان مفكراً وأديباً وليس مغترباً فحسب، وكأن الرجل ما عرف في حياته سوى الغربة.

حرك عبد اللطيف رأسه بين الموافق والمتردد، فأشرت له بيدي أن يقول ما لديه، فقال لافتة ــ لاشك أن رجحان صفة الفيلسوف كانت غالبة عليه، وهي التي أبرزت بطريقة بالاغتراب، بل هي ظاهرة الاغتراب لديه، ذلك أن الفلسفة في جوهرها، ترتبط أساساً إلا إذا وقع التطرق إلى نتاجه. ومن ثمة، فإن أي حديث عن فكر أبي حيان، لا يتسق كتاباته، ولعله لهذا السبب كان يكثر من اغترابه الوجودي الفلسفي الذي تثوي خلفه كل الفلاسفة الكبار، فالإبداع الفلسفي هو نتاج موقف العزلة والوحدة، شأنه شأن غيره من الفيلسوف والواقع عزلة، نتاج مسافة بين.

لم أطق صبراً، فقاطعته مضطراً:

الفيلسوف ــ يا سيدي عبد اللطيف، ما كانت الفلسفة نتاج عزلة، ولا نتاج مسافة بين

في برجه العاجي، والواقع، وكأنك تريد أن تقول إنَّ الفيلسوف هو ذلك الرجل القابع يتأمل الحياة من بعيد.

بل كانت عزلة لِنَبْقَ عند أبي حيان، فهذا الفيلسوف الأديب، لم تكن عزلته مادية واقعية، داخله، يعبّر عن تجاربه نفسية سامية داخل دائرة الواقع، أي أنه كان يتأمل الواقع من بعبارة أدق، كان يمارس التفلسف الحية، وعن أحواله النفسية كما هي في صيرورتها، بوصفه تجربة معيشة.

حيان لا اسمحو لي، لا أريد أن أطيل عليكم، لكن، ألا ترون معي أن ما وصلنا عن أبي تعرفون أحداً ترجم يتعدى بعض مؤلفاته؟ إنني أتساءل، وأسألكم في الوقت ذاته، إن كنتم له أو أدمج حياته في كتاب أو رواية، أريد أن أعرف منكم؟

ردّ عبد اللطيف:

فقيه ــ حديثك أستاذي أبا علي مقنع جدّاً، فقد جعلتنا نحس بأننا تلاميذ في حضرة فإن جميع ما متمكن، وكما في علمك، فإن الكتابة عنه جاءت بعد أن تلاشت آثاره، لذلك فلا أحد أكد يقيناً قيل عن حياته متضارب، يقوم على الاستنتاج والترجيح والتخمين، أم جار عليه حب امرأة، حياته البيولوجية، كأن يكون من أصل عربي أو فارسي، تزوج يؤكد أنه لم يكن يطمح في بقاء فكره الزواج، إنه نفسه أهمل الحديث عن ذاته، مما آخر على إحساسه بلا جدوى الطموح أعماله بعد مماته. وما إحراق كتبه إلا تأكيد.

فتدخل عبد القادر مضيفاً:

ــ إن الإحساس بالإحباط يقتل الطموح فِعْلاً، وقد عرف عن أبي حيان، أنه عاش حياة الإحباط واليأس والاغتراب.

ــ حافظ، حافظ، قنينة أخرى مع كأس ويسكي مضاعف.

قال شكري، والتفت نحوي:

عصير ــ بالله عليك، يا أبا علي، شاركنا يا أخي كأس شراب، إنه لديكم في العراق من أكرر عليك التمر، ولدينا هنا من عصير الكرم، وشتان بين مذاق التمر ومذاق العنب، من العامة للمرة الضائعة في العدّ، أننا في جلسة خاصة لا يشاركنا فيها أحد.

ــ صمت قليلا وأضاف:

ــ من تقاليدنا في المغرب، أن لا يَرُدَّ الضيف هدية مضيفه.

لم أعرف كيف باغتني الضحك، ولا كيف حرَّكت رأسي رافضاً.

فوضع الكأس أمامه، وقال بخيبة فضحتها حنجرته:

ـــ ما شئتَ لا ما شاءَ شكري.

ظل شكري في ذروة حبوره، إذ أخذ يضرب بشدة على ظهر عبد القادر، مفجراً فرحاً جرعة صبيانياً، إلى أن منعه الرجل من مواصلة ضربه، فتناول كأس مدامه، ورشفه في طويلة، ثم أعاد قدحه إلى مائدته وخاطب صديقيه:

أستسمح أبا علي إن أنا أفشيت سرّاً خطيراً مدهشاً.

فضح أفزعني قوله، هذا رجل أحمق، بعد أن لعبت تعاويذ الكؤوس برأسه، سيقدم على سرِّي لأصير من جديد موضوع تساؤلات، أنا في غنى عنها، قلت في نفسي.

لكنه أشار بيده يطمئنني، وقال:

حياته، ـــ هناك مخطوط أثري فريد، عبارة عن سيرة ذاتية كتبها أبو حيان التوحيدي قيد علي، فإذا عثر عليه مؤخراً في بغداد، وقد شاءت الظروف أن يطلع عليه صديقنا أبو الشاكرين رأى أننا أهل لسماع شذرات من هذا المخطوط، فسنكون له من.

ملأ ثلاثة أقداح لصديقيه ولنفسه، وصمت ينتظر ردي.

أثارت عيونُهم جميعاً أسئلة خفية ظلت معلقة تستطلع حقيقة الخبر من كذبه.

لم أعرف بماذا ابتليت، فالرجل بطريقة مواربة يريدني أن أتحدث عن نفسي، وكأني أبو علي يتحدث عن أبي حيان.

ياله من مأزق، إنَّ حياتي تخصني وحدي، ولا معنى لأنشر تفاصيلها على آذان أناس لا تربطني بهم سوى صلة مجلس شراب عابر.

لكن شكري، وكأنه اكتشف ما يموج بداخل رأسي، قال:

إنها من الشأن ـــ حياة أبي حيّان، ليست ملكاً عينياً موقوفاً عليه، أو على ذويه أو بلده، العام المشاع بين الناس، تراث إنساني مشترك بين جميع الأمم.

كلام جديد، لكنه حق ومنطقي، رفعتُ كأس الماء وألقيتُ به في حلقي، وقلت لهم:

ـــ لا وجود لمخطوط أثري عن سيرة أبي حيان، لكنني أعلم عنه أشياء قد لا تعرفونها أنتم.

(16)

واقفاً على رجليه، مرحباً توقفت عن إتمام حديثي، بعد أن فاجأني محمد شكري بانتصابه يشير تارة إلى مقعدين فارغين، بامرأتين وقفتا على رؤوسنا، وهو في حالة ارتباك، لتشاركانا المائدة، وفي الآن ذاته كان يسرد ويطلبُ منّا تارة أخرى أن نفسح المجال لهما

اسمَ الآخر، دون أن يذكر وجه قرابته بالمرأتين أسماء الجميع ليتعرف كل منا.
ودون لعلهما زوجاه أو شقيقتاه! قلت في نفسي، وأنا أتحسر لمعرفة نوع هذه العلاقة، لفافتيهما بعود إرادتي، انتفضت في مقعدي من هول ما شاهدت، فبعد أن أوقد لهما رجلان لا يختلفان عن ثقاب، صب لهما كأسي نبيذ، فتناولتاه، وتجرعتاه، وكأنهما أثاره هذا المشهد الرجال في شيء، لكن الأغرب من ذلك، أن لا أحد غيري.
صوفيا، إنهما جاريتان، قلت عنهما في داخلي، لكن شكري أبلغ السيدة السمراء، وتدعى بأنني أديب وفيلسوف من العراق، وقال لي عنها بالمقابل:
ــ إن السيدة صوفيا روائية باللغة الفرنسية.
حركت رأسي مبتسماً، لكنني في الحقيقة لم أفهم شيئا، إذ لم أقو على مزج امرأة تعاقر الخمر جهرا، براوية للأحاديث الشريفة!
الذي قلب وبعد برهة زمنية اهتديت إلى التسليم بالأمر الواقع متعللا بالفارق الزمني أن أرى الشمس تسطع العالم رأساً على عَقب، فبعد هذه المسافة الزمنية، لم يعد غريبا من مغيبها، وتغرب من حيث مشرقها.
المخلوقين جلست صامتا مسكونا بهواجس ظلت تُناوشني، فارتأيت أن أسلي نفسي بهذين الداكنة السمرة المسماة اللذين اقتحما مجلسنا في بطن الليل، استرقت النظر إلى المرأة مظهراً أيضاً، فقد قصّت شعرها صوفيا، إنها لا تتشبه بالرجال سلوكاً فحسب، بل عنادها لم تختلف عن الرجال، فقد العاري، وتزيّنت بقميص وسراويل ضيقة، حتى في إلا أنها تمادت في غيها دون أن تعبأ أمرها شكري أن لا تخلط أحاديثها بالفرنسية، نحو "ماريا"، فراقتني أنوثتها، إذ كشفت بأمره، ثم بطرف جفن استرقت نظرات أخرى اعتلتهما تنورة قصيرة زاهية بلونها السماوي، بشرتها عن ساقين ناعمتين بيضاوين، أرسلته وراء ظهرها، لو لم أكن متعلقا "بنهاوند" لتمنيتها زوجا بيضاء وشعرها فاحم، سحر خاص بعينيها العسليتين، جعلني أتحاشى إطالة النظر إليها، فإلى تلك ثانية لي، اللحظة لم أكن أعلم بعد درجة قرابتها من شكري.
كل شيء كان يطوقني بالدهشة والغرابة وبأسئلة كثيرة طرقت رأسي، فشغلتني دون أن أجد سانحة لأستفسر عنها.
تتناقله نفسي كنت أبدو وكأني أستمع إلى أحاديثهم، لكنني في الحقيقة كنت أستمع إلى ما مجلس واحد معنا، من هواجس، تلك الهواجس المرتبطة بحضور المرأتين الغريبتين في بيننا وبينهما إلا ما تميزتا به فقد كانتا تتحدثان وتعاقران الشراب كالرجال تماما، لا فرق

من نعومة البشرة.

صارت الجلسة تمنحني نشوة تذكي أحلام يقظتي الموغلة في أعماق التاريخ.

وخطر لي أن أشاركهم الحديث، فتوجهت بسؤالي إلى صوفيا:

ــ سيدتي، عمن من الفقهاء تروين الأحاديث؟

حملقتْ في وجهي مستغربة، وكأني فهت بكلام غامض، فأسرعت أعيد سؤالي بصيغة رأسها مغايرة، وأنا إخال لهجتي قد عاقتها عن فهمي، والتبس الأمر عليَّ حين حركت توجهت إلى يمينا وشمالا، وأشرعت عينيها تأكيدا لعدم فهمها، لكنني لم أتخاذل، بل شكري، أستفسره بصريح العبارة:

ــ ألم تقل عن السيدة صوفيا إنها راوية، أم تُراني خانتني أذناي؟

تأملني برهة، ثم أجابني مبتسماً، وكأنه تدارك الموقف:

ــ كنت أعني روائية لا راوية، و "روائي" كلمة حديثة يقصد بها من يقوم بكتابة نصوص حكائية من نسج الخيال.

ثم فجأة، افتعل نوبة من الضحك، وخاطب مرافقيه:

بأسلوبه ــ مزاح أبي علي لا يفهمه إلا خاصة الخاصة من الأدباء العراقيين، فقد أراد روائية، لكنني الماكر إصلاح خطأ وقعت فيه، إذ قلت عن صوفيا راوية عوض أن أقول علي؟ نجحت في الرد عليه بأسلوبه الماكر ذاته، أليس كذلك يا أبا

حركت رأسي موافقاً وأنا أحس بهم يتنفسون الصعداء، وأكثرهم صوفيا التي سايرتهم في فهم ما لم تفهمه.

أكذوبته لولا نباهة شكري وشطارته لافتضح أمري، قلت في نفسي، وقد تأكد لديَّ أن أحاديث عابرة البيضاء قد انطلت عليهم جميعهم، ففكرت في أن لا أشاركهم بسوى بسؤالها الذي فاجأتني احتراساً من وقوعي في حُفَرٍ جديدة، لكن السيدة صوفيا أربكتني به:

ــ كم لغة تتحدث يا مسيو علي؟

فأسرع شكري يشرح لي:

ــ إن كلمة مسيو فرنسية، وتعني السيد.

إلى أحكمت تسجيل الكلمة الجديدة في ذاكرتي، وأدرت سؤالها في رأسي، وأنا أنظر أجبتها شكري، عله يسعفني بجواب يقيني زلة لسان جديدة. وبعد أن طال صمته:

مُلِمٌّ ببعض ــ إضافة إلى لغتي العربية، أتحدث الفارسية والسيسانية والكرديّة. كما أنّني

لغة تتحدثين؟ أسرار اللغة البيزنطية والمسمارية والبابلية، وأنت سيدتي، كم
فتدخل شكري يجيبني:
ــ اللغة الفرنسية هي ورقة توتها الوحيدة، فهي غير متمكنة من صياغة جملة عربية
واحدة بطريقة سليمة.
خلت أن كلام شكري سيغضبها، لو لم تضحك وتقول:
ــ تلك حقيقة، وأنا سعيدة بها.
شكري، ليستأثر أما عبد اللطيف وعبد القادر، فكلما هَمَّ أحدُهما بفتح فيه، إلا وأسكته من موضوع إلى وحده بالحديث، ومثلما تنتقل جرادة من مكان إلى آخر، ظل ينتقل آخر، معلنا غبطته بكلِّ فكرة تصدر عنه، وسألني:
ــ أتعرف معنى لاسم صوفيا؟
فعلا لم أعثر على تفسير له، فقلت:
ــ لعله اسم مصدره الصوفية!
ضحك وهو يمسّد شعر المرأة، وكأنه سيمتدحها، وقال:
ــ اسم هجين، تنكر لأصله العربي "صفية" ليتشبه باسم لاتيني مسيحي، مثله مثل اسم
ماريا، الذي هو "مريم" في أصله العربي.

(17)

رفع شكري قدحه وأمر الجميع بالصمت، وخاطبني:
ــ سوف تصادف نماذج كثيرة من أمثال صوفيا وماريا، رجال ونساء يشتركون في
كونهم ضحايا، وإذا عرف السبب بطل العجب!
ــ لم أفهم!
قلت له، فابتسم وتجرأ على تناول سيجارة من صندوق "صوفيا" المختلف عن صندوقه، وقال لي:
ــ المغرب، هذا البلد الأمين، ظل نصف قرن رازحاً تحت جميع أنواع الاحتلال
إلى أن الفرنسي، لكنه لم يذعن، فثقافته، بالمفهوم الشامل، بقيت متراصة ومستنفرة، أُعْطِيَ اسْتِقْلاَلَه، وهنا بدأ العجب!.
وقاطعه عبد اللطيف:
ــ لم أكن أعلم أنك محلل سياسي، إن كلمة "أُعْطِيَهُ"، هي الكلمة الحق.

مخضرم، ــ لست محللا سياسياً. أنا أنقل الواقع، وأعري الضحية والجلاد، فأنا رجل ظل عشت عقديْن ونصفاً في ظل الاحتلال العسكري، وأزيد من أربعة عقود في الاحتلال الثقافي.

وتدخل عبد القادر قائلا:

ــ أشاطرك الرأي، فقد خرج العسكري من الباب، وعادت ثقافته من النافذة، أهذا ما تريد قوله؟ املأ قدحي أيها العبقري!

أبي ــ لا، لن أسقي أحداً قبل أن أنهي حديثي. ولعلمكم، عفواً، ولعلم صديقي وضيفي عمري، إلا علي، أعلن له، بأنني في مسير حياتي الطويلة العريضة، والتي كلما تقدم سياسية حزبية، وبدت لي قصيرة، أعلن عدم انتمائي في السابق والحاضر لأية هيئة وليس النكرات وبأني أمقت الحزبيين، الشيوخ الكبار البهلوانيين، حروف الجر النتيجة، أن صوفيا المجرورات، فهؤلاء اغتصبوا طفولتي وسرقوا كهولتي، لتكون هكذا يبطل العجب أصبحت سعيدة بجهلها تركيب جملة واحدة مفيدة بلغتها الأم.

والآن، سأملأ أقداحكم لنشرب نخب مآسينا، لنشرب على شرف عظمة حروف الجر، تلك التي انتصرت على إصابة المجرور بالكسر.

رفع الجميع كؤوسهم إلى السماء، فتساءلتُ عن السبيل لجعل هذه الجلسة تقصر أو تمضي بسلام، فقد فسدت أو كادت، فبسبب الكؤوس التي لعبت برأس شكري، لم أجد معنى لخطبته، ولا معنى لمجالستي شبانا صغاراً في مقام شراب، ولا معنى لوجود لا حريم غريب مشاع بيننا، ولا معنى لإرغامي على انتحال شخصية أديب عراقي، بل البساط أو معنى لأن أظل كل هذا الوقت معلقاً فوق مقعد، وأنا المعتاد على افتراش حاكم السجاد أو الأرض العارية، لا أن أتسلق الكرسي وكأني في حضرة.

تملكني ضيق مشوب بحزن وأنا أتحسس نفوري ممن يحيطون بي، فكان علي أن أصدقاء فاس، فهم أيضا مغاربة، لكن الحال معهم كان مختلفاً، كان لبعضهم أستحضر مجالس شراب، إنما تلك كانت قليلة ومحاطة بسرية تامة، تتخللها موسيقى مغربية مطرّزاً خالصة، عربية وأمازيغية ويهودية، كانوا يفترشون سجاداً يسمونه زربية، وتتوسط الجلسة .بألوان زاهية، حيث تُفْرَدُ لكل شخص منهم وسادة مطرزة ليتكئ عليها قوارير من قش أو مائدة خشبية ذات أرجل قصيرة يسمونها "طيفوراً"، توضع فوقها غيرهما من أرحقة نباتات مرشات فضية يتطيبون بما بها من رحيق الورد أو الزهر، أو ذات روائح زكية.

واحد يدار لقد عَلِقَ بذاكرتي من أشربتهم "الصَّامت" و "الماحية"، يحتسونهما في قدح "عليهم بالتناوب فردا فردا، ويسمون القدح القشي "غرّافاً.

هذه، يزداد ما ألذ تلك القعدات، وما أدفأها! فمن كثرة انتشائي بها، ونفوري من قعدتنا وبغداد، إلى زمانهم يقيني بانتمائي إلى الماضي، إلى ذلك الجيل من أصدقاء فاس ويحضر هنا، فإني لست وثقافتهم. ولذلك، فلو أني الرجل نفسه الذي حضر هناك والوجدانية في زمن الشخص ذاته الحاضر هنا. أيكون الرجل هو حمولته النفسية واحد؟!

أن لعل مرد اشتداد غربتي إلى أني ابن ذلك الزمان الذي مرت عليه عشرة قرون. فلو إلى نزر الأمر يتعلق بالمكان وحده، لخفت وطأة هذه الغربة، و لتقلّصت حدتها، ولو وإلى خلاني في يُبقي لنفسي بريق أمل، ويشيع فيها حلم عودتي إلى بيتي في الرصافة، بغداد.

لكن، أمام هول ما أنا فيه، فلا أرى لي سوى مخرجين، كلاهما مرّ، تحمّلٍ أو جنونٍ.

وأعادتني السيدة صوفيا إلى صخب الجلسة، بسؤالها الموجه إلينا جميعا:

ــ مارأيكم في تغيير هذا المكان؟

فأسرعت أجيبُها:

ــ أتمنى تغيير الزمان، لا المكان وحده!

ضحكوا جميعهم متوهمين بأني أمزح، لكن محمد شكري فطن إلى قصدي، إذ خاطبني وقد بَدَا عليه وهن الشراب من خلال حنجرته:

ــ الزّمان من أعقد قضايا الإنسان وأخطرها، وقد قام علماء، أكثرهم غربيون، بتسويد الجنون ولا آلاف الصفحات عنه، لكنه ظل لديهم بدون علاج، إشكال محيّر، يُصيب يصاب، يَقهر ولا يُقهر.

وهمست إلى شكري ونحن نتهيأ لمغادرة المطعم:

ــ لن أقوى على الذهاب إلى مكان آخر. أفضل العودة إلى إقامتي.

ــ المكان الآخر نَادٍ ليلي، به موسيقى وغناء وبنات ليل.

ــ لا، لن أقوى.

ــ لك ما أردت.

أيديهم أجابني شكري والتفت إلى مرافقيه يخبرهم برغبتي في العودة إلى فندقي، فمدوا وطبعت على لأودعهم واحدا واحداً، لكن صوفيا لم تكتف بمصافحتي، بل مالت نحوي

الملإ وهما تضحكان، دون وجهي قبلة، ثم تبعتها ماريا وفعلت الشيء نفسه، قبّلتاني أمام فمن كثرة ذهولي أحسست باحتقان الدم أن تثيرا أي تساؤل أو تعليق من رفاقنا، أما أنا، في شراييني.

(18)

البيضاء، ظلت المرأتان في طريقنا إلى إقامة السراب، ونحن نمتطي صهوةَ السيارة لكنه بجوابه المقتضب، وكأنه تشغلان تفكيري، فطلبت من شكري أن يكشف لي سرهما، أجابني بالحرف الواحد يحتج على طلبي، زادني غموضاً على غموض، إذ:

ــ إنهما مجرد صديقتين لا أكثر!

أربكني جوابه حدَّ الفزع، لكنني دون إرادتي، انتزعت منه ضحكاً عالياً، حين تساءلت بصوت مسموع:

ــ تتصادقان والرجال، دون أي اعتبار للشيطان؟

وسألته:

ــ وما الذي يضحك في هذا؟

حاولت أن أرصد ملامحه من خلال ضوء متقطع ترسله أعمدة الإنارة، فاتضح لي أنه يضحك في سره، وخاطبني:

ــ حين أدركك الصباح يا أبا حيان، بعد نومتك الأندلسية في القرن الرابع الهجري، كان لم تقم وزنا لما العالم قد خطا إلى الأمام مسافة عشرة قرون، لكنك على ما يبدو، لم تدرك أن المرأتين هذا السؤال، إنك استغرقته هذه المسافة من تغييرات، وإلا ما كنت لتسألني عن تريد أن يتصرف الناس وفق منطق زمانك، هذا مستحيل!

ــ أنا سألتك عن حكاية المرأتين، وليس عن كيف يجب أن يتصرف الناس.

جعلتني قلت. ولذت بالصمت. بعد فترة زمنية، استعذبت التفكير في حركة السيارة التي الرجل منشغل أحس بما يشبه هدهدة المهد، ولعلني غفوت لحظات قبل أن أنتبه إلى أن محفظته عن صندوق بشيء ما بين يديه، وحين أوقد سيجارته عرفت أنه كان يبحث في بعد سيجارة واحدة سوف سجائره، فتذكرت أن التدخين يساعد مزاجه على الروقان. إنه على سجارته الأولى، انفطرت يبوح لي باسرار المرأتين، وصدق حدسي، فقبل أن يأتي حنجرته تعلن استعداده للبوح:

ــ لا شك أن سلوك صوفيا وماريا أوقعك في حيرة من أمرك؟

ـــ إنه لكذلك.

أسرعت أجيبه برنة من ينشد سماع المزيد.

فزاد:

ـــ لا بأس، ولو أني سأعرض بإيجاز ما قد يتطلب مني ليلة كاملة من الشروح.

كانت أعمدة الإنارة قد اختفت، فبدا إلى جانبي شبحاً، لكنني من خلال هبوط حاد في نبرات حنجرته، أدركت أنه ثَمِلٌ.

تشملك، ـــ إن تصرفات صوفيا وماريا في مطعم ريتز، مرتبطة برياح التغيير التي لم تهدأ واختراعات أكرر للمرة الثانية أن العالم أثناء نومك العميق، شهد حروبا وثورات الأندلس، وأشياء أخرى واكتشافات، كظهور الطائرة والإنارة وموانع الحمل واختفاء وقيم جديدة ومفاهيم جديدة كثيرة ومتنوعة، فكان من الطبيعي أن تولد عادات جديدة ورؤى جديدة.

لم أطق صبراً، وهو يكرر برتوب كلمات بعينها، وكأنه يخاطب أَبْلَهَ أو شخصاً انبعث من العصر الحجري، فقاطعته:

ـــ من يجهل تأثير الزمن في سلوك البشر؟ كل الحضارات منذ سومر وبابل والأندلس مخيلة وغيرها، كانت مصادر لعادات وقيم لم تكن موجودة، أو هي كانت موجودة في لكن سؤالي الإنسان، إلى أن دعت الضرورة إليها، فتعرفناها. كل هذا أعرفه وأحقه، مطعم ريتز، وشاركتانا الضيق اقتصر على حكاية المرأتين اللتين قبّلتاني أمام الملأ في والرجال سواء بسواء، هذا تحديداً مجلس الشراب، وتقول إنهما صديقتان لك، وكأنهما ما سألتك عنه.

ما إن أتممت قولي، حتى توقفت بنا السيارة في وسط الطريق، فخاطبني شكري الشاطئ ـــ إننا بجانب القصر الأميري، على مقربة من فندق السراب، وسأرافقك عبر إلى إقامتك، وإن اقتضى الحال، أتممت ما تبقى من الليل في ضيافتك.

ترجلنا من السيارة، فطلب شكري من السائق أن ينصرف.

كماله، واستقبلتنا رائحة البحر بهواء ينعش العظام، وارتفع في السماء بدر منير في خطواتنا كشف أديم صفحة البحر، ولمعان بياض أمواجه، مثلما كشف ملامحنا وتعثر وسحراً. فوق رمل رحب استدار حولنا، فصرخت بأن البحر أشد مخلوقات الله روعة المنزل الأميري إلى انحرفنا يمينا فامتدت أعمدة الإنارة خطاً واحداً مسرعاً من حدائق محتضرة، فانتشلني شكري من فندق السراب، لكنها بدت أمام شعاع البدر قناديل باهتة

هيامي، وقال لي:

ــ نظريتك القائلة إنَّ الاختراعات تنام في ذهن الإنسان، أعجبتني.

ــ أخبرني أولا بحال المرأتين.

قاطعته في عجلة من أمري، وأمسكت بذراعه أحثه على الابتعاد عن حدائق القصر، والاقتراب من الشاطئ، فضحك وأشعل سيجارة أخرى، وقال لي:

عن السيدتين ــ أجل أجل، أعرف أنك مفتونٌ بالبحر، لِنَدْنُ منه إذن، إنما قبل أن أحدثك مصدرها اقتناعي دعني أصارحك بأن مقدمتي عن التغيير الذي أصاب سلوك البشر كان مخالطتك للنساء، بجهلك للمرأة، وبصفة خاصة نساء هذا العصر، فقد عرف عنك عدم السيدة نهاوند، فإن جل وباستثناء ما سمعته منك في المحكمة عن علاقتك بالجارية ولذلك سقت تلك المقدمة الباحثين في سيرتك أجمعوا على خلو حياتك من المرأة.

قهقهت وهرولت محاولا الابتعاد عن موجة اكتسحت الشاطئ، فغمرتني لأغوص وسط الضحك، بركة ماء بارد بلغ ركبتي، وحين التفتت إليه، وجدته مُقَوَّسَ الظهر من شدة والموجة وقد تراجع إلى الخلف ركضا في رشاقة نورس حقيقي، واستمر في ضحكه تنساب بين قدمي، عائدة إلى البحر بعد أن أنهت مهمتها.

ــ أنت ابن الصحراء، وأنا ابن البحر، وإلا لكنت عرفت أن تنجو من البلل، عليك بانتزاع حذائك وحمله في يدك. فهو حذاء جميل.

قال وهو يقهقه بصوت مرتفع.

أنا أيضا غمرتني نشوة فرح طفولي، فأجبته دون أن أكف عن ضحكي:

الخلافة ــ أفخر بانتمائي إلى الصحراء، مثلما أفخر بأني ابن بغداد، أكبر حاضرة في الفارسية. إلا الإسلامية، لكنني عشت كذلك في مدن ساحلية، في البصرة وفي المحمّرة شواطئكم. أخبرك بهذا لتضيفه أن أمواج شواطئنا أكثر رقة ونعومة وانسياباً من أمواج المهمشين، لتؤرّخ أيضا لحياة إلى معلوماتك الناقصة. ألم تقل إنك أرّخت لحياة هامشياً الهامشيين، أو بالأحْرى لمن صار في زمانك.

نسمّيها ــ وأنت أيضا أبا حيان، لتضف إلى معلوماتك، بأن أسوأ ريح تهبّ على طنجة الغربي"، وهي تسربل " "الشرقي"، بينما نسمي الريح التي يحملها إلينا بحر الظلمات مشاعرنا بالنعومة والانتشاء.

ودون أن يتوقف عن ضحكه، أضاف:

وجوهنا ــ نحن معاً معلوماتنا ناقصة، إنك محظوظ يا صاحبي، فهذا النسيم الذي يلفح

إزعاجه لحظة هو ما نسميه "الغربي"، أما ريح "الشرقي"، فإنك لا تقوى على مقاومة واحدة.

(19)

ومشينا دون أن أخلع أشرت له بيدي أن نستأنف مسيرنا بمحاذاة الشاطئ، فاستجاب، ورفعت رأسي إلى فندق حذائي المبتلّ وأمسك به في يدي، وكأني لا أملك سواه، البحر، ولمعت في ذهني قَوْلَتُه السراب أمامي، وقد بدا بأضوائه المرتعشة مارداً يحرس يبدده صخب الموج عن جهلي بالمرأة، فأردفت بصوت عال حتى لا:

ــ تعرَّفت نساء كثيرات عربيات وفارسيات، ولي فؤاد خفق وهام وعشق، وذاق طعم طي الغرام وهَدَّهُ الوجد والبعاد، هذا البحر أحضر لي تفاصيل من حياتي كانت في العدم، كنت في حوالى العشرين من عمري، غض الإهاب، حين همت بأول صبية فارسية.

ــ ياسلام! ماذا كان اسمها؟

سأل شكري، وأرخى أذنيه لسماعي، وفي عَجَلَةٍ من أمري، وكأني أمتحن ذاكرتي في حاجة لأتعرّف ما قد تستعيده من تفاصيل تلك الأيام البعيدة المنسية، أو لربما كنت إلى البوح، قلت:

ــ كان اسمها شهربان، ومعناه بالعربية نور القمر.

ــ يا سلام!

صرخ شكري، ورفع نظره صوب القمر، فأسرعت أقول له:

ــ من أجل ماذا تتمثَّل بين الحين والآخر بكلمة ياسلام، ماذا تعني بذلك؟

ــ ألا تردّدون هذه الكلمة في العراق؟ إنها تقال في كل البلاد العربية، وتفيد التعبير عن الإعجاب أو الإنبهار.

تواعدنا أن ــ ما علينا، قد تكون الكلمة من التعابير المحدثة. بيت القصيد أنني وشهربان في الجبل، أو بعد أن نَظَلَّ على وفائنا إلى أن نتزوج، كنا نلتقي خلسة عند غبش الفجر صارت شهربان دنياي ومناي. يرخي الليل سدوله على المنحدر أو الشاطئ، وبعد أن عكرت صفونا أو خصومة أفسدت ولعلني كنت قد صرت دنياها ومناها، ودون شائبة ليل حالك الظلام، فرحت أبحث عنها هوانا، اختفت مرة واحدة مثلما يختفي القمر في أمْرَيْنِ، إما أن السماء رفعتها، وإما أن دون كلل ولا ملل، حتى غلب على ظني أحد

أحد الكهول من آيات الله، ضمها إلى حريمه زوجا الأرض ابتلعتها، إلى أن بلغني أن قُم، وأترك لك تخيّل ما أصابني من غم، وما لحق بي من رابعة، وهاجر بها إلى مدينة كدر وتعاسة.

ــ ألم ترتبط بَعْدَ شهربان بامرأة أخرى؟

ــ أبدا لقد صار النحس يلاحقني، ليظل الفشل حليفي، نحن مسيرون ياشكري بالله لامخيَّرُون. فكل شيء مخطط له في لوح محفوظ بمشيئة الله، قبل أن نولد، ثم حقيقي كنت عليك، كيف تسألني إن كنت قد ارتبطت بامرأة أخرى، وأنا أحدّثك عن حبّ أكنّه لشهربان؟

ــ أقصد بعد زواجها من غيرك. وبعد مرور الزمن، ألم تفكر في الزواج؟

على ــ "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى"، صدق الله العظيم، أذكر أني كدت أقدم تخطيت الزواج مرتين، في المرة الأولى بمدينة شيراز الفارسية نفسها، وكنت قد يلتئم. الحقيقة الأربعين من عمري، كان الجرح الذي تركته شهربان في فؤادي قد أخذ فارسي كنت أعلمه مهنة أنّني لم أفكر في امرأة أخرى، لكن الواقعة بدأت على يد صبي شؤون بيتي، كان نجيبا مريدا الوراقة، وأفقهه في علوم اللغة العربية، مقابل توليه النزق، أخبرني ذات يوم أن أرملةً من ودوداً، تلك حكاية أخرى. الشاهد أن هذا الصبي ريعان شبابها، وكرر على مسمعي الخبر مرات، جيرانه توفى عنها بعلها، وتركها في ووصف مفاتنها وخصالها، ورشّحها زوجاً لي، مما دون أن يكف عن الثناء عليها، ظننته مُرْسَلاً من قبلها، فاشترطْتُ مشاهدتها قبل أن جعلني أشك في أمرها وأمره، إذ عليها، وحين استدرجها لزيارتي بوصفي عالما صوفيا، وجدتها مليحة أفكر في العقد فاستفسرت عن أصلها وفصلها، وقررت أن أزفها إلى نفسي مستندا إلى حديث ناعمة، على علم مسبق الله (ص): "اختاروا لِنُطَفِكُمْ فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَّاسٌ"، ذلك أني كنت رسول الكارثة بصلاح أشقائها، ويا ليتني كنت أسرعت بخطبتها قبل أن تحل.

أخذ شكري نفسا عميقا. واستوقفني ممسكا بذراعي، وسألني:

ــ أية كارثة؟ أتزوجها غيرك؟

ــ ليت غيري تزوجها، فقد حدث ما هو أفظع من ذلك، ترددتْ على بيتي بضع مرات، من وتواعدنا على الزواج، ولأني لم أكن أتوافر على ما أرتديه من لباس لائق يرفع وشملةٍ، ثم كوفية مقامي أثناء الخطبة، انشغلت بحياكة وخياطة تكةٍ وغلالةٍ وبَقيرٍ ابتعت نعلين على مقاسي وعمامة في بياض اللّبن الحليب، دون أن أهمل قدمي، إذ.

بأنها تزورني في خضم انشغالي هذا، قام أحد الوشاة ــ لعنة الله عليهــ فأبلغ أحد أشقائها أن انقضَّ عليها خلسة في منزلي، فما كان من هذا الشقيق، صونا لعرض عائلته، إلا بئر على مشارف كحيوان شرس، وبعد أن سفك دمها، ألقى بجسدها الغضّ في جوف المدينة.

أمسك شكري رأسه بِكلتَا يديه، وصرخ:

ــ يا للكارثة. إنها حقا مأساة! ماذا فعلت بعد ذلك؟

ووثوقي من ــ لم أكن على علم بما حدث، إلا بعد أن زرت والدها، وأنا في أوج تألقي إلا من أقدم نفسي، فقد جلست إلى الرجل معرّفا بشخصي في ارتباك وحبور لا يدركه منزلها كليم الفؤاد، لأجهش على خطبة امرأة خفق قلبه لها، فأرادها حرثاً له. وغادرت بالبكاء، كامرأة ثكلت أعزّ من تحب.

ــ وهل كان لا بد من ارتداء لباس أنيق كي تخطبها، مع أن علمك خير ما ترتديه؟

ــ إنها الأصول ياشكري، فلباسك يرفعك قبل جلوسك، وعلمك يرفعك بعد جلوسك.

(20)

حرك رأسه استحسانا لجملتي، وقال لي:

سنين، ولا ــ أسايرك الرأي، أنا واللهِ متفق معك، فموضوع الأناقة دوّخني أنا أيضا منذ برجل أنيق، كان أرى بأساً في إخبارك بأن أقوى ما حفَزني على الكتابة، هو إعجابي فضولي لأستفسر عمّن محل ترحيب واحترام من لدن زبناء مقهى كان يرتاده، ودفعني كاتبا، ما أخبرك به سبق يكون هذا الرجل، فقيل لي إنه كاتب. فقررت للتو أن أكون تتجزأ، فالأنيق في كتاباته وثقافته، لا وأن أعلنته في أحد كتبي جهراً، ذلك أن الأناقة لا بد أن يكون أنيقا في سلوكه ولباسه.

وأخذ يضحك بصوت مرتفع وكأن مساً قد أصابه.

ــ ماذا يضحكك يا شكري. أجبْني؟

توقف بعد أن ابتعد عني خطوتين، وهو يمسح عينيه من دموع الضحك، فقال لي:

ــ أضحك على ما سببته لي من تعاسة، فقد جعلتني أتألم، وحين انتبهت، وجدت أن مائة السيدة توفيت منذ قرون، أكثر من عشرة قرون، فحتى لو كنت تزوجتها، أو عاشت وقتنا هذا أمر عام دون زواج، فقد كان عليها أن تكون في العدم. إنَّ الحزن عليها في قصوى تغمرني مضحك، وإذا أردت الحقيقة، فإني أضحك أيضا من الفرح. من سعادة.

ـــ أية سعادة تقصد؟

أعرف لم يجبني، ألقى بين يدي بحقيبته، وجرى يواجه الأمواج إلى أن ولج البحر. لم إلى الانتحار، بماذا ابتليت، هناك بكل تأكيد غاشيةً غشيته، أو جنّيٌّ شقّ صدره فدفعه وتبعته يهدّني الهلع:

ـــ شكري شكري، لا تكن مجنونا، ارجع ارجع!

دون أن يتوقف صراخي، وقفتُ والماء يعلو ركبتي، وداهمتني موجة تكسّرت فوق وأنا صدري، فكادت تلقي بي أرضا لتجرفني إلى داخل البحر، فتراجعت إلى اليابسة، أشاهد شبحه يغوص ثم يطفو فوق الماء.

بعد برهة زمنية، وقد أوشك صبري على النفاذ، خرج الرجل المجنون وهو يرتعش من معا البرد. أنا أيضا كانت ركبتي تصطكّان من البرد أو الخوف، أو من هجمتهما.

ـــ ماذا بك ياشكري؟ لماذا ولجت البحر؟

لم يكف عن الضحك وهو يخلع سترته وقميصه، فخلعت أنا أيضا سترتي نصف المبلّلة ووضعتها على كتفيه لتمنحه بعض الدّفء.

ـــ من شدة فرحي دخلت إلى البحر.

ـــ عن أي فرح تتحدث يا هذا؟

في ذروة حبوره وضحكه، أضاف:

ـــ إنه التفرد بمعرفة أسرار أبي حيان، وعشقياته، وخيباته، ومنزلته الرفيعة في هذه الدنيا.

أزال حِذَاءَهُ، ورمى به بعيداً في جوف البحر، ثم كوّم سترته وقميصه، ولوّح بهما في البحر ذاته. وواصل حديثه متفلسفاً:

ـــ إن القدر الذي حرمك من الزواج، هو نفسه الذي أبقاك حياً لتنعم برغد العيش سَيُرِدْنَ التّعرف والحياة. القدر سيعوِّضك ما فاتك في زمانك ذاك البعيد. كل نساء العالم كالذباب. هلْ هناك سعادة أكبر إليك، سوف يجتمعن حولك كالنّحل ويرتمين على قدميك أن تولد. كان عليك أن تعرفه بمجرد من هذه؟ إن هذا مسطرٌ في اللوح المحفوظ قبل إليه. أنا لا أعرف كيف نتحجج نحن البشر علمك بعودتك إلى الحياة، لكنك لم تنتبه سعادتنا، إنما قل لي، إنك لم تحدثني بعد عن بمبررات لشقائنا، ولا نتحجج بها عن المرأة الثانية!

ـــ أنت رجل أحمق، هيا بنا إلى الفندق قبل أن يزهق البرد أرواحنا.

(21)

همست لشكري:

ــ إني أحس بانجذاب نحوها، يخيل إلي أنها أصابت مني الفؤاد، ليس بقصائدها الشعرية، إطلاقاً، وإنما بأطرافها كامرأة.

انحنى على كتفي، وأحاط فَاهُ براحتي يديه، كي لا يسمعه غيري، وأسرَّ في أذني:

ــ إنها حقاً جميلة، وشاعرة جيدة.

ابتسم وهو يعتدل فوق مقعده بجواري، وتابع انصاته لما تلقيه المرأة من شعر.

ــ شاعرة ليست ولابد، لكن أنوثتها صارخة، قلت في نفسي.

ظلت الأعناق مشرئبة نحوها، إلى أن توقفت، فاهتزّ المكان بالتصفيق.

حين رمقت شكري يتسلل وسط الحشد مندفعاً نحوها، وقد علّق محفظته على كتفه، في انتبهوا إلى كانت هي تنشر ابتساماتها على من أحاط بها من مريدين، أولئك الذين ما أن مقامه الأثير لديهم قدوم شكري حتى أفسحوا له المجال ليصل إليها، مؤكدين بارتباكهم.

مستطيلة، ذات بقيت في مكاني أرعى الوجوه والحركات، فدقَّقْتُ النظر في نوافذ كبيرة بصري إلى جدار، زجاج سماوي، تتدلى على حواشيها ستائر زاهية الألوان، ثم انسحب سقف الرّدهة، زيّن بصور لمناظر بهية، وآخر طرّز بزخارف ونقوش ارتفعت إلى فتدلت ثريات ضخمة بمصابيح صغيرة نحيفة، صعب عليَّ عدّها.

لا، ليس هذا فندقاً كما قال شكري، بل هو قصرٌ خليفيٌّ بحق.

راقني أن أكون نكرة وسط هذا الحشد من الناس. فلا أحد تعرّفني أو انتبه إلى وجودي. منها قصيدة فكرت في القصائد الشعرية التي هزّت القاعة بالتصفيق، تلك التي لم ترقني الشعر، غاب عنها واحدة، ولا صدرٌ ولا عجزٌ. فقد كانت أقرب إلى الترسّل منها إلى الإيقاعية، وإلى استقلاله الوزن، وغابت الموسيقى، فافتقر البيت الشعري إلى وحدته التّضمين، أو لعل شعراء هذا العصر تخلوا التام، وامتد إلى بيت لاحق، ربما هي تجهل عند الخليل إرادياً عن نظام العروض كما كان.

تذكرت صديقي أبا نصر الجوهري، ومطارحاتنا الفكرية المستفيضة عن مؤلفيه عروض الورقة" و "كتاب الصحاح المعروف"، فلو كان حاضراً واستمع إلى هذه" حل بكتابيه القصائد، لأقام الدنيا ولم يقعدها، كان لا يجامل أحداً في العلم. تُرى ماذا أستفسر عن مصيرهما. فما دام التحفتين، أخلدا بعد وفاته أمْ أتلفا واندثرا؟ لابد لي أن

هو الآخر قد عامله الزمن برفق، فأوصله أثري قد امتد إلى هذا القرن، فلم لا يكون أثره إلى هذا الوقت.

مددت يدي رداً على تحية عبد اللطيف، وقد فاجأني مبتهجاً مخاطباً:

ــ مرحبا بك أبا علي، أما زلت في طنجة يارجل؟

استولى على مقعد شكري بجواري، وجلس واضعاً رجلا فوق رجل، دون أن يكف عن الترحيب بشخصي، وإبداء رغبته لجلسة أخرى، كتلك التي ضمتنا في مطعم ريتز. ثم انتقل لسؤالي عن مدى إعجابي بقصائد الشاعرة "إخلاص".

قال عنها "إخلاص"، أحكمتُ حفظ اسمها في ذاكرتي، وحرَّكتُ رأسي دون أن اتلفَّظ بكلمة، فقد كانت تخطو في اتجاهنا.

في الآن ذاته حدستُ أن شكري قد حدّثها عنّي، وإلا ما كانت لتتقدمه في خط مستقيم نحوي.

وقفتُ ومددت لها يدي، فبادرتني بالقول:

ــ أعتز بحضورك يا أبا علي، إن العراق موطن الشعر الحق.

ثم التفتت نحو شكري، وأنهت ما كانا يتحدثان بشأنه:

ــ وهو كذلك، بعد ساعتين من الآن.

أن سارت بنا السيارة عبر الطريق الشاطئي، كان البحر المتوسط عن يميننا، توقعت المدينة، تكون الشمس في هذه اللحظات قد جنحت إلى الغروب في الطرف الآخر من ثوابتَ حيث بحر الظلمات، تشرق من بحر وتغرب في بحر آخر، أسعدني تعرفي قاله لعبد طنجة، وانعرجت بنا السيارة لتتوغل في بطن المدينة. أكد لي شكري ما أمامنا ساعتين اللطيف من أننا سنتعشى رفقة إخلاص بمطعم ريتز، وأخبرني بأن كاملتين للفسحة.

بانهزام كانت العتمة في بداية إطلالتها الأولى، فسطعت أنوار الطرق والمتاجر معجلة على قارعة الطريق. النهار. بشر مثل تجمعات نمل فَرَّ من ثُقْبِ الأرض، وانتشر يدبُّ رجال ونسوة وفتيان وصبايا يتسكعون في أمن وسلام.

أخبرت شكري بأن حركة الرجال في العراق تتوقف عند صلاة المغرب، وقد تمتد في بيوتهم إلى وقت صلاة العشاء.

ثم سألته:

ــ أتوجد في عراق اليوم كهرباء، مثل هذه الموجودة في طنجة؟

وحين عاد لضحكته الساخرة، توقعت للتو ما سيقوله.

ــ يكاد العالم اليوم يبدو كله متشابها.

اليوم أسعدني جوابه، سرحت أتخيل ليالي بغداد، تلك الموغلة في الماضي، وحالها ربما فوق مأنوسة بأضواء تسْطع من نوافذ الدور ودكاكين التجار، وتلك المبثوثة صفحات حواشي الطريق، أو أركان الحارات. فكرت في زخم ما سوَّدْته يدي من بيضاء، مسترشداً بضوء شمعة بعد شمعة، أو بقنديل هزيل يكاد يضيء نفسه. لو كان بغداد اليوم مثل طنجة لي مثل إنارة اليوم، لكنت قد ألَّفت أضعافَ ما ألّفت من كتب. إنَّ المتراكمة في كل مكان، إذن، تمرق بها سيارات، وتضيئها كهرباء، ولعل الأتربة بعد أن عُبِّدت الطرق وأضيئت، وعواصف الغبار المنتشرة كالضباب، اختفت كلّها اليوم الشوارع سافرة الوجه، عارية الرأس، وتخلَّت المرأة عن الخمار والبرقع، وغدت تجوب كحال شقيقتها في طنجة.

إلى عالم إذا كان الحال كذلك، فلا داعي لأن أعدّ نفسي منزوعاً من عالم ومقذوفاً بي العراق، يتعاملون آخر. الآن فقط أتأكد من أن المغاربة حين يتعرفوني أديباً وافدا من زمان معي كرجل انتقل من مكان إلى مكان، وليس من زمان إلى.

حين نطق شكري جملته، انتفضت في مقعدي وأنا أحسبه قد قرأ ما يموج في خاطري، إذ قال لي:

ــ القادم من الزمان ليس كالقادم من المكان، شتان ما بينهما من بون.

بعد ذلك انتبهت إلى أنه التقط جملتي حين جهر بها لساني دون إرادتي، وأضاف:

تافه ــ كل مخلوقات الله تسافر في المكان، من سلع وبضائع وأجساد آدمية. إنه سفر إحساسك ساذج، فالسفر في الزمّان هو الإشكال الحق المحيّر، حبذا لو كشفت لي عن الحقّ بهذا الانتقال.

أجبته وكأني أحدث نفسي:

ــ الزمان المتعدّد شرّ متعدّد.

فأسرع يقول في عجلة من أمره:

ــ أرجوك أبا حيان، لا تُعِدْ قول هذه الكلمة، إني أخشى عليك من نفسك.

اعتدل في مقعده وأشعل سيجارته، وأضاف:

ــ لكي يكون الرجل سوياً، عليه أن يتقبل واقعه، بعواهنه وتقلباته، إن خيراً فمرحبا، وإن شراً فمرحبا أيضا.

ــ قول جميل، لكنه يظل قولا على كل حال.

ــ إنه عصارة تجربة قاسية، ففي شبابي الأول، تعرضت لهزة نفسية بسبب رفضي لواقعي، وكانت النتيجة أنّني عثرت على نفسي مطوحاً بي فوق أحد أسرة مستشفى للأمراض العقلية في قرية مهجورة.

ــ تقول في شبابك الأول، ألك شباب ثان؟

أجابني بغضب حاد:

ــ دعني يا أخي أنهي حديثي، لا تقاطعني، إنك لا تدري إلى أين أريد الوصول، ولْأُجِبْ الثاني، والشيخوخة أولا عن سؤالك المقحم في حديثي، بأني أسمّي الكهولة بالشباب اعتراض؟ بالشباب الثالث، إن لي مسمياتي الخاصة بي، فهل لديك

ضحكت وأنا أتظاهر بالإصغاء إليه، فأضاف:

ــ مكثت بالمستشفى زهاء عامين، ولعلني اهتديت إلى علاج نفسي بنفسي، إذ صرت سردية، أراوغ واقعي، أوهم نفسي بتقبله، أخلق عوالم خاصة بي، وأسكبها في متون احتجاج وبعبارة أدق، صارت الكتابة ملجئي ودوائي، بعد ذلك تحولت لدي إلى.

وكأنه استدرك فكرة كادت تضيع، فأضاف:

نفسك، ليس هذا مهماً، ذلك أن ما كنت أهدف إليه، حين قلت لك بأني أخشى عليك من لكنني هو أن أخبرك بقصة أهل الكهف، وهي قصة لم تشغلني حين قرأتها لأول مرة، بعد تلك الليلة في شاطئ المحيط عادت تطرق رأسي وتستبد بتفكيري.

ــ وهل لي علاقة بهذه القصة؟

أجل، لك علاقة بها، بل إنك أحد أبطالها الحقيقيين.

كان يتحدث بثقة وصدق بالغين، مما ولّد في نفسي فزعاً لم أقو على إخفائه.

وسألته:

ــ كيف ذلك؟!

حكائي ــ القصة استوحاها صاحبها من آية قرآنية لا أحفظها، لكنه صاغها في قالب الكهوف شيّق، وملخصها أن أربعة أشخاص وخامسهم كلبهم، لبثوا نياماً في أحد العالم قد تغير عمّا المهجورة، مدة ثلاثمائة عام أو أكثر، وحين استعادوا حياتهم، وجدوا

استقبلوا بها كقديسين، فإن صدمة كان عليه في زمانهم، وبالرغم من الحفاوة البالغة التي .فرجعوا إلى الكهف، وقضوا به الزمان الجديد، كانت أقوى على نفوسهم،

الانتقال إن الآية القرآنية لا تتحدث عن وفاتهم، لكن الكاتب، ليكشف عن رؤيته لإشكال يفضلون الموت على في الزمان، وليمنح حكايته بعدا مأسوياً، جعل الرجال الأربعة .العيش في زمان غير زمانهم

في سكت ينتظر رد فعلي، لكنني لم أجبه، فقد سرحت أستحضر الآية القرآنية بكاملها :ذهني، وأنا في أقصى وله من يُنتزع منه اهتمامه ودهشته، ثم أضاف

والرأي، بل ــ تلك وجهة نظر كاتب الرواية، وذاك رأيه، أما أنا فأخالفه وجهة النظر لأيام أعيشها في زمان إنّني مستعد أن أتنازل عمّا تبقى من شبابي الثاني والثالث ثمنا أفتح عيني أجد نفسي في صحوة لاحق، أنام مِلْءَ جفوني عن شوارد هذه الحياة، وحين لأصحاب الكهف، مارنوش عصر آخر، مثلما حدث لك يا أبا حيان، ومثلما وقع الرواية تسميتهم، مثلما ارتأى أن ومشيلينيا ويمليخا والكلب قطمير. هكذا ارتأى صاحب العيش في زمان ولّى بعد أن تعرّفت يرفضوا العيش في غير زمانهم. أجل، قد أرفض ستكون عليه الدنيا ولو بعد قرن واحد، فذلك مستجدات هذا العصر، لكن، أن أرى ما ولعلّك تقر بأن لكل منّا تمنياته المستحيلة، أو لنقل أحلام يقظته. أَحَدُ تمنياتي المستحيلة، بمقابلة "نهاوند"، أليس كذلك؟ إنك تحلم

!ــ بكل تأكيد

:أجبته، فضحك، وأضاف بين الساخر والواثق مما يقول

.ــ إنها أمنيتك المستحيلة

إنها خفتُ أن يسخر مني لو صارحته بأني أعيش لأقابلها، فلذتُ بالصمت، لكن قوله، كأحد رجال أهل أمنيتك المستحيلة، أربك مخي، حَدَّ أني تمنيت لو كنت مخلوقا وهميا فتأكد لي حقيقة الكهف الذين حدثني عنهم، واستحضرت الآية القرآنية مرة أخرى، سيقولون ثلاثةٌ رابعُهم كلبهم، " :وجودهم، لكن الآية لم تحدد عددهم ولم تشر إلى هلاكهم ويقولون سبعةٌ وثامنُهم كلبهم، قل ربي أعلم ويقولون خمسةٌ سادسهم كلبهم رجما بالغيب، ويقولون ثلاثةٌ رابعُهم كلبهم، قل ربي أعلم ما يعلمُهم إلا قليل ."بعدَّتهم .صدق الله العظيم

لمعضلة أن أراحت الآية نفسي، فشتّان ما بينها وبين شطحات كاتب الرواية، حقا، إنها ليس به أحبّاء يجد المرء نفسه وبدون سابق إنذار، في عالم لم يتوقعه ولم يألفه، أحيانا، لكن الحنين نفسه ولاخلان ولا أعداء. فحتى الأعداء قد يحنّ الغريب إليهم

البعيد، فيحل اليأس بدله، وأي حنين يتلاشى أمام الهوة الزمنية التي تفصلنا عن ماضينا يتبقى بعد موت الأمل؟

حقيقة قد يحسب المرء باستحضاره مخلوقات تفصلها عنه قرون، أنه يحن إليها، لكنه في تذكرت "نهاوند" الأمر لا يحن إلا إلى نفسه من خلالها، هذه تجربة شخصية أعيشها، ثم البعيد الذي تفصلني عنه فسرت في بدني رعشة حنين إليها، مع أنها ابنة ذلك الزمان عن ذاتي؟ قرون. ولكن، هل سأحن إليها إن أنا فكرت فيها بمعزل

خفت أن يقطع شكري حبل تفكيري، فتظاهرت بمشاهدة معالم المدينة من خلال نافذة ذهني. السيارة وهي تسير ببطء، لكنني لم أشاهد شيئا، فقد بقيت مكتفيا بما يستحضره خيط ما تبقى لي فكرت في حنيني إلى "نهاوند"، أَهُوَ حنين صادق حقيقي، أم إن مرده العراق باق، وشيراز وفاس، من أمل في لقياها؟ ذلك أنها باقية في مكان ما، مثل ما هو يوجد في الزمان فلعل السبب أن ما يوجد في المكان أبقى وأرسخ مما.

الزمان إذن هو المعضلة، لكن ليس إلى حد تفضيل الموت على الحياة، كما جاء في الجنة إلى زمن رواية أهل الكهف المتخيلة، وإلا، لكان آدم قد انتحر حين انتقل من زمن فهل انتقالي من الأرض، ولكان الشيطان قد حذا حذوه. ولأظل في تجربتي الشخصية، زمن إلى زمن سيجعلني أفضل الموت؟

كان على شكري أن يعيدني إلى واقعي العيني:

ــ ألا تريد النزول، فقد وصلنا؟

لم أعرف كيف توقفت السيارة، ترجلت منها وأنا أحاول أن أبدو ثابتاً محافظا على همّتي واتزاني، فأنا عالم منطقي.

كان الليل مُسجًّى يفوح فيه نسيمُ بحري عليل. بادرت شكري:

ــ يسكنني صفاء ذهني خارق، إني لقادر في هذه اللحظة أن أكتب مؤلفا كاملا.

ولوج ــ لتكتبه بعد أن تعود إلى إقامتك، أما الآن فدعني أخبرك بأننا مقبلون على تديره وارثته "باراد"، أجمل مطعم وأروع حان في طنجة، إن لم أقل في المغرب كله، زمرة أصدقائها ندعوها "ليليان"، سيدة أمريكية مؤهلة لتكون بطلة لرواية باذخة، نحن "ليلي" تصغيرا وتجمّلا.

ويفرشها دفع الباب بيده وفسح لي المجال لأتقدمه. فوجئت بحديقة تظللها أشجار باسقة، وعلى اليسار بعد سجّاد من عشب أخضر، وموائد بِشَرَجٍ قصيرة تضيء نفسها لا أكثر، بألوان قوس قزح، دعاني صعود درجين، رُصَّتْ موائد أخرى، وطوار وأضواء تتلألأ

مقعدا للجلوس، بدون متكإ إلى حيث الطوار الخشبي الناعم، وطلب مني أن أعتلي الظهر، وتسلق آخر مثلي.

أصابعها جاءت "ليلي" مبتسمة ضاحكة، مدّت لي يدها فصافحتها، أما هو، فانحنى على لا أعرفه يقبّلها بلطف مبالغ فيه، وكأنه ولَدٌ مطيع، ودخل معها في حوار بلغط.

وبعد أن انسحبت قال لي:

رشاقتها ــ ليلي جاوزت العقد السادس، لكنها تبدو في شبابها الثاني، تحافظ على خليلة لثري أمريكي، بالحركة وعزف البيانو ودرء كل ما قد يربك مزاجها. بدأت حياتها الحياة، فورثت عنه هذا فانتهت علاقتها غير الشرعية بعلاقة شرعية، تزوجها وفارق البقاء في طنجة المطعم وعقارات وأموالاً في أمريكا، لكنها فضلت.

ونادى عليها يطلب شيئا، فجاءته بكتاب أنيق، تناوله وقال لي:

لفنانين، ــ إنه دفتر ضخم للذكرى أعدته "ليلي" لزوارها الكبار، توجد به رسومات مروا بهذا المطعم، وكلمات لسينمائيين وكتّابٍ وشخصيات من العيار الثقيل، جميعهم لماذا لا تخط به أنت كذلك كلمات، وتوقعها باسمك الحقيقي؟

ــ وماذا عساني أكتب؟

أخذ يضحك حتى كاد أن يسقط أرضاً، وطلب كأساً إضافية لنفسه، وقال دون أن يكف عن الضحك:

ــ أُكتب يا أخي آية الكرسي.

ــ ولماذا آية الكرسي؟

أجابني وهو يواصل ضحكه:

ــ حتى تحجبها الآية من كل سوء.

عرفت أنه يمزح، فضحكت بدوري، وقلت:

ــ بما أنها ليست مسلمة، فسأدع أمر الكتابة لفقيه نصراني، أو لملحد إن كانت ملحدة. وضحكنا معاً.

أقرُّ بأني أعجبت بتلقائية شكري، فهو يرفع الكلفة من أول لقاء، ويقحم الهزل في وقته المناسب متى أحس برتوب الكلام الجاد.

وقبل أن يطول صمتنا، قال لي:

ــ لم أزر "ليلي" منذ أسبوع كامل، وقد اعتدت أن أمر بها آخر الليل لأتناول آخر كأس، أسميه عكاز الطريق.

(23)

إلى مطعم ريتز، أخبرني شكري ونحن نهم بمغادرة مطعم باراد، بأننا سنذهب مشياً وأنا إخال نفسي أسير حيث الأصدقاء في انتظارنا، هلَّلْتُ لهذا الخبر بفرح طفولي، يطل، فما إن انحدرنا في الهوينى مكتشفا أزقة وحواري مدينة طنجة. لكن فرحي لم نصير، حتى وجدنا مطعم شارع ولي العهد، ثم عرجنا يساراً على شارع موسى بن ريتز عن يميننا بالمرصاد.

قبل أن ندخل المطعم، همس لي شكري:

ــ لا تلتفت خلفك، فحراسك على خطوات منا!

ــ هم يعلمون إذن بمعاقرتك الخمر، وقد يبلِّغون عنك.

سألته، فدعاني إلى الدخول، وقال لي بصوت خفيض:

ــ لا تكترث لذلك، فلن يجرؤ أحد منهم على حشر أنفه فيما لا يعنيه.

لكن مزاجي تعكّر.

كانت الجماعة جالسة حول مائدة عن يسار مدخل المطعم، في الركن الخاص بشكري، بداخلي إخلاص وعبد اللطيف ورجلان لا أعرفهما، حاولت أن أدرأ عني الغمّ، فردَّدْتُ قول امرئ القيس: اليومَ خمرٌ وغداً أمرُ.

ودعاني إلى أسرع القيم على المطعم الشاب حافظ، يسعفنا بمائدة، فيما جرَّ شكري مقعداً لتصبحا واحدة الجلوس، وجاء بآخر لنفسه قبل أن ينهي حافظ ترتيب المائدتين.

ملأ شكري أقداحاً مستثنياً كأسي وكأس إخلاص وكأس عبد الإله، وعرفت أن الرجل أصغر الآخر اسمه حسن، دقيق الملامح، أبيض البشرة، نحيف، مستقيم الأنف، بَدَا أعمارنا الحاضرين سنا، لكن عبد الإله هو الآخر أقرب إلى عمر حسن منه إلى.

سألني عبد اللطيف عن أحوال الحرب في العراق، فتصدّى له شكري معلناً رفض سماع أخبار الحرب.

تروي كانت إخلاص تجلس قبالتي، أسعدني وجودها بيننا، كيف لا، وأنا الظمآن لأنثى بل تعمّدتُ عجاف سنواتي الهاربة مني، لكن همتي وحيائي جعلاني أتحاشى النظر إليها، تحقيق رغباتي الدفينة، أن لا أجعل نظراتنا تتقابل، إنما رويدا رويداً، صرت أجرؤ على السلطة، وإنما بوقار العلماء وذلك بالتنعم فيها، ليس بوقاحة حاشية الخلفاء ورجال أو سانحة محمودة، هكذا كنت، أختزل وعفَّتهم حين يسترقون النظر كلما وجدوا غفلة،

.له في مخيلتي ما تصبو إليه نفسي في نظرة عابرة، ما يقع عليه بصري، فأفرد فيها المرأة شابة، ذات بياض ناصع، يميل إلى شقرة في لون سماء الغروب، كل شيء تنطق به، تنتقي يشدك إليها، ما ظهر بدواخلها وما خَفِيَ، فهي تتجمّل في القليل مما .وإنما تنظم نثراً فنياً كلماتها وتصوغها في تعابير مستحدثة جميلة، وكأنها لا تتحدث، .بدت بهمتها وكبريائها وأنفها القصير أميرة بيزنطية بحق

كيف السبيل لأن أضمها إلى متاعي زوجاً على سنة المصطفى، لكن من أين لي بعلاً لها؟ بمهرها؟ أيقبل معالي وزير العدل بأداء قيمة الصداق؟ وقبل ذلك، أتقبلني أزلتها، وشكرتُ فكرت في شخصي، وفي عمامتي التي تخليت عنها، وفي لحيتي التي شبابي الثاني، كما لهؤلاء المغاربة بدعهم، فبفضلهم انتقص عمري ضعفه، لأصير في !يقول شكري

غابت عني مواضيع أحاديثهم، لكن بعد أن أخرج عبد الإله من محفظته ورقة وأخذ يقرأ :مابها، ركّزْتُ انتباهي لسماعه

سَمَاوِيٍّ/ يُرَطِّبُ/ صَرْخَتِي أنا المصْنُوعُ/ من تَبْغِي الرَّخِيصِ/ وقَهْوَتي المُرّةْ/ ومِنْ ماءٍ !!نَفْسَها/ الشُّهْرَةْ الحُرَّةْ/ ولا أحتاجُ مقبرةً/ تُسَمِّي

:ما إن توقّف، حتى ارتفعت حناجرهم إعجاباً، وكأن ما استمعوا له يعد شعراً خالصاً استرقت أذني حديث عبد اللطيف حين سأل عبد الإله إن كانت القصيدة لإخلاص، .فأخبره بأنها لشاعر مشرقي لا يقل سموقا عن إخلاص

مشرقٌ يقولون عن هذا الكلام إنه سموقٌ شعريٌّ، وينسبونه إلى المشرق، هل هناك سيطوله التغيير عربيٌّ آخر لا أعرفه؟! ركبتني الحيرة، فما كنت أظن أن ديوان العرب والتنبؤ والتأمل وكشف هو أيضا، فيقع التخلي عن خاصية الشعر الرائعة، وعن الحكم العروض، ووجدت نفسي أسأل عبد أسرار الحياة، وعن مراعاة الوزن والقافية وقواعد :الإله

ــ هل ما قرأْتَهُ يصنّف ضمن الشعر العربي؟

استقبل سؤالي بامتعاض، وكأني ألقمته حنظلا، ثم نظر إلى عبد اللطيف وإلى إخلاص، :نظرة من يستشهد بأحدهما، وأجابني بكل وثوق

!ــ إن ما أنشدتُه يُعَدُّ من أجود الشعر العربي

.إن الانسحاب من مجلسهم أخف على نفسي من سماع هذه الترهات، فقد صدمني جوابه بالصّبر في الوهلة ذاتها، انتبهت إلى شكري الذي أشار عليَّ بالصبر، من أين لي

حاصرني، إذ وكلامهم مطرقة تدق رأسي. فكرت في أن أدلي بوجهة نظري، لكن الشك فيبدو حديثي في خفت أن يكون عامل الزمن قد وَجَّهَ الشعرَ وجهة أخرى تغيب عني، على الصبر، فقررت نظرهم على قدر كبير من السخف. لكن بالرغم من ذلك، لم أقو عليه الشعر في زمانهم، مجابهتهم باحتراس، كأن أَستدرجهم إلى أن أقف على ما أمسى ووجهت سؤالي إلى عبد اللطيف:

ــ هل تذكِّر ني بما طرأ على الشعر العربي حتى أصبح على ما هو عليه في وقتنا هذا؟

جميعا، إذ كنت أظن أن عبد اللطيف وحده استمع إلى سؤالي، فتبيّن لي أن الأمر يعنيهم لاذوا بالصمت، وظلوا في حالة ترقب لما سيجيب به الرجل:

مصطلح الشعر ــ أنت تعلم يا أبا علي بأن إخواننا في العراق، كانوا سباقين إلى إطلاق والقافية. وقد وُفِّقوا الحر، أي تحرر الشعر من القيود القديمة كنظام الشطرين والوزن الواقع، ومن غير المعقول أن يظل في هذه الريادة، ذلك أن للشعر قيمة عليا ترتفع عن تحول. إن كل تجربة إنسانية، بما تحمله حبيس ستة عشر بحراً، مكرراً نفسه، دون أي من بحور الشعر، لذلك كان عليه أن ينفتح على من آمال ومعاناة وآلام، تمثل بحراً جميع بحور الحياة.

رشف من كأسه وأضاف:

فثمّة الشعر. فلماذا ــ إنّ الشاعرية موجودة حتى في النثر، فأينما وُجِدَ الإيقاع في الكتابة ترى معي أنها مرهقة، تجعل الشاعر نقيده بالبحور! ولنأخذ على سبيل المثال القافية. ألا والانفعال وغيرهما؟ يضيع في البحث عنها على حساب المعنى

ليتهم هو يتحدث وأنا ألعن في سرِّي بني قومي العراقيين، مبدعي مصطلح الشعر الحر، الاجتماعية، وتركوا كانوا قد سَخَّروا طاقاتهم لمحاربة الطغيان والاستبداد والفوارق الشعر لشأنه.

الشعر الحق، وتذكرت ما قالته إخلاص في أول لقاء بها هذا العشي، مِنْ أن العراق بلد أسألها فأيّ شعر حق كانت تقصد، القديم أم هذا الحر؟ ووجدت نفسي:

ــ سيدتي إخلاص، أتتفقين مع ما ذهب إليه عبد اللطيف؟

رسمت على محياها ابتسامة خجل، وصمتت للحظة كأنها تدعو الحضور لسماعها، أو لعلها كانت ترتّبُ أفكارها، وقالت:

والإنجاب، ــ تلك حقيقة، فمثلما تحررت المرأة من وظائفها القديمة، كخدمة الرجل

والقافية، فقد تخلّى كذلك تحرر الشعر الحديث من وظائفه القديمة، ومن العمود والوزن فاقترب بذلك من الشعر العالمي، الشاعر المعاصر عن العِمامة والعقال وركوب الفرس، السيارة والطائرة. لقد أصبح يكتشف الآفاق، وصار يرتدي البذلة وربطة العنق، ويركب ذلك أن الحضارة المدنية الصناعيّة حلَّت محل .ولم يعد مجرد معبر، وإنما خالقٌ الحضارة الزراعية الرتيبة.

كنت أحس بكل كلمة تصدر عنها خنجراً يُغرز في صدري. فلو كانت تعاقر الخمر يصدر عنه، لحسبت كلامها هذياناً، لكنها وهي تتحدث بثبات الرجل الفحل، المُقَدِّر لما في الأدب، كعهدي به جعلتني أرتاب في الأمر، ربما لم يعد الشعر يحتلُّ مكان الصدارة طيلة التاريخ، إلى في زماني، قلت في نفسي. وتذكرت كيف أن الأدب ظل منظوماً الأدب، لكن ذلك حدث منذ اثني نهاية القرن الثاني، ليستقل الشعر بنفسه معتليا صدارة أعلن عنه بشار بن برد وأبو نواس عشر قرناً. ثم تذكرت مصطلح الشعر المحدث الذي إنه زمن طويل، كاف لظهور الشعر الحر !وأبو تمام في أيامي البغدادية، يا إلهي بحوره وغيره، إنما ليس إلى حد التخلي عن.

مناقشتهم في في لمح البصر، تناسلت هذه الأفكار في ذهني، لأزداد اقتناعاً بعدم جدوى سيظل الشعر ذو الأوزان أمور استحدثت في غيابي، ذاك دَيْدَنُهُمْ وهذا ديدني. لكنْ، الخلق، والأوفى في التعبير الشطرية، في ملتي واعتقادي، هو الشعر الحق الأبلغ في وربطات أعناقها عن حياتهم الجديدة نفسها، بسياراتها وطائراتها.

وانتشلني شكري من حواري مع نفسي، ليرفع الغم عن صدري بقوله:

ــ الشعر الحر صرعة عصرية عابرة لن تطول.

والتفت نحوي مبتسماً وكأنه ينبهني إلى عدم تسليمي بآرائهم، وبعد أن أوقد لفافته، تابع قوله:

دائم ــ جمهور تيار الشعر الحر قليل جدا، مقارنة بعشاق الشعر القديم، لذلك فأنا التساؤل عما سيكون عليه حال الأغنية إن فقدت القصيدة وزنها وقافيتها.

سكت وظل محدقاً في شخصي، فوصلت إليّ رسالته البليغة الصامتة، لتغمرني بنشوة للكلام. فبعد عارمة، زادت نفسي حباً وتقرباً من هذا الصديق، وأحسست بشهيتي تنفتح أقف فوق أرض أن علمت بعمر مصطلح الشعر الحر، وبأن جمهوره قليل، شعرت بأني فقلت متوجها .صلبة، وبأني هناك، وارتأيت أن أبدأ حديثي من حيث توقف شكري بكلامي إلى عبد اللطيف:

تستقيم إلا على ــ الغناء حُلَّةُ الشعر، إن لم يلبسها طُويتْ. ذلك أن الألحان لا تتهيأ ولا شعر منظوم موزون مقفى، فلا يعقل أن نتغنى بكلام منثور.

ألقيت في جوفي كأس ماء، وتوجهت إلى عبد اللطيف متابعا قولي:

الواقع. ألم يكن لم أفهم في الحقيقة ما قصدته من قولك إنَّ الشعر قيمة عليا ترتفع عن لعلك تقصد خوض الشعر الشعر مرتفعاً محتلاً صدارة الآداب منذ العصر الجاهلي؟ أم إذا كان الأمر كذلك، فأية قيمة في العوالم المثالية، وتخليه عن هموم وانشغالات الناس؟

ترى في هذا إفراغاً للشّعر من معناه ستظل للشعر إن تخلّى عن هموم العباد؟ ألا لتتخلوا عنها طمعاً في بحور أخرى مغايرة الحقيقي؟ ثم كيف ضاقت بكم بحور الشعر البحور نفسها التي نظم بها القدماء في كل مجالات للعلم والمنطق؟ أليست تلك هي والحب والعداء والهجاء، وهي مجالات تستغرق حياتنا إلى الحياة، من السلم والحرب يومنا هذا؟

تجود قريحة ثم إن الاعتقاد والنوايا واللباس والمطايا، لا علاقة لها بشيطان الشعر، فقد طائرة ممتطي جمل أو معتمر عمامة، بما لا تجود به قريحة راكب سيارة أو.

ظلت نظراتهم مصوبة نحوي في ذهول.

(24)

سيبويه، رحمة كانت عادتي، ألا أتحدث العربية الفصحى إلا حين أكون رفقة صديقي والبلاغة، رحمة الله الله عليه، وربما تكرر ذلك مع غيره من علماء النحو والمنطق أشنف أسماعهم حين أنطق عليهم جميعهم، لكنني مع هؤلاء المغاربة، فطنت إلى أنني العراق. فحرست ألا أحيد عن هذا العربية الفصحى بتنغمية الأعراب القحاح في بادية على وجدانهم، بل ومن سحق بعض آرائهم السبيل، وأنا أرى نفسي متمكنا من السيطرة في الشعر سحقاً.

تفكيري هكذا كانوا يصابون بالدهشة والخشوع، دون أن يقوى أحد منهم على قطع حبل بنات أفكاري أو إرباكي بتدخل سمج ساذج، فاستمر حالي على هذا المنوال، وأنا أبسط على طريقة مالك، إلى أن تم لي ما أردت.

بعد أن توقفت بمحض إرادتي ورويت نفسي بماء زلال بارد، داهمتني إخلاص بصوتها الأنثوي الخجول:

ــ أعترف لك يا أبا علي، أنه لم يسبق لي أن قابلت أديباً له قوة بلاغتك أو سحر

حديثك!

أكملت جملتها وحملقت في وجهي كأنها ذكر وأنا أنثى!

ثم واصلت تجملها بإيقاع مغربي متفرد، كان سمعي قد أخذ يألفه:

ــ إن كلامك مقنع، أقصد آراءك، فهي تنساب وكأنك تتلو من كتاب بين يديك، تراه ولا نراه.

فتدخل عبد اللطيف، مخاطباً جمعنا:

ــ تلك حقيقة، إن الصديق أبا علي لظاهرة، عند كل لقاء يجمعنا، نكتشف سحراً جديداً يخفيه عنا.

خفضت بصري دون إرادتي، ليس حياء من مديح عبد اللطيف، أبداً، بل ضعفاً أمام نظرات إخلاص، ذلكم طبعي منذ يفاعتي. قويا كنت بين الحكام والوزراء، وهشٌّا ليّنًا أمام الحريم. لكن مع إخلاص، شملني ضعف من نوع خاص، بالغ اللذة، حتى أني لم أجد سبيلا لمقاومته، فبقيت متقد الوجدان، "سبحان الذي يحيي العظام وهي رميم"، لعلني أتشبث بحاضنه حدّ العشق، يتشبث الشيخ بمن يسقط عليه له، فكما أن الصبيّ رددت هذا في نفسي، وفكرت في أن الوجد لا عمر ولا إرادة هواه!

لكن نهاوند كانت لي بالمرصاد، فقد أحسست بطيفها يحوم حولي، أنظر إلى إخلاص كثيرات، وأحيانا، ما فأراها نهاوند لحماً ودماً، لم يكن هذا جديداً، فقد تمثلتها في نساء حتى تحضر نهاوند، كأنها أن ينتعش وجداني ويتصابى فؤادي، فيرتعش من سحر امرأة امرأة ترومها عاطفتي، ويكون لها ربة العشق، مالكة لزمام أمره، فتحول بيني وبين أية ذلك.

بدونها؟ استغرقتني نهاوند وإخلاص على مقربة مني، أكان لا بد أن أرحل عن بغداد عشرة قرون؟ هب أننا هاجرنا معاً، هل كانت ستلبث معي في تلك المغارة الأندلسية! العراق أو يرحمها الله ويدثرها برحمته الواسعة، إنها اليوم راقدة في قبر مجهول، في السوسي أكد على في الأندلس أو في المغرب، من أدراني؟! أتذكر أن الساحر إبراهيم ولكن، كيف مسمعي أن سحره غير مخالف للشرع، سيحفظ جسدينا إلى أن نلتقي، تشملني رقيته وحدي وتستثنى هي منها؟!

وهي أحسست بصوت نذير خفي في داخلي يُسرّ لي، بأن نهاوند قد أصابها ما أصابني، لباسي، إذن هائمة تبحث عني، فانتفضت للخبر إلى أن تصبَّبَ من جسدي عرق اخترق يكون إلا كذلك هي مثلي في العاجلة، في مكان ما تبحث عني. إن الأمر لا يجب أن.

يا إله السموات والأرض! كيف غابت عني هذه الحقيقة؟
أعطيتُ سلمتُ بعودتي إلى الدنيا بعد عشرة قرون من غيابي، ونسيت عودتها؟! مع أني أين غاب المنطق بخنقها لإبراهيم السوسي ليعد رقيته حتى تشملنا معاً، أنا ونهاوند!؟ الذي أتكئ عليه لينير طريقي؟ أين كان عقلي؟

أعادني صوت شكري إلى يقظتي يستفسرني عن دواعي هيامي، فأصابني الارتباك، ألمّ بي وسحبت نفساً عميقاُ، ثم أحطت كلتا يدي ببطني وتظاهرت وكأن مغصاً شديداً. فكرت بأنه السبيل الوحيد لأبتعد عن مجلسهم، حتى أفكر في أمر نهاوند، فهي بكل تأكيد هائمة في مكان ما تخفي حقيقتها.

اقترحت إخلاص أن أتناول كوبا من الزعتر، مصدقة مرضي المفاجئ، فشرح لي بأن الزعتر نبات بري يغلى في إناء ماء ويشرب، وله مفعول السحر في الشفاء، شكري لكنني انتصبت على قدمي معلنا عودتي إلى الفندق.

ألقى شكري في جوفه بقية كأسه، ووقف إلى جانبي وهو يعلق محفظته الجلدية فوق فصافحتهم كتفه، فاعتذرت لإخلاص حين أبدت استعدادها لمرافقتنا، ومددت لهم يدي، بي. كذب أبيض، قلت واحدا واحدا، ثم أعدتها لتمسك ببطني متظاهراً بالألم الذي استبدّ في نفسي.

سرّني أن يتطوع شكري لمرافقتي دون أن أطلب منه ذلك، فقد كنت في حاجة إلى مؤنس أبوح له بسري، أتحدث إليه بصوت مرتفع عن مصيبتي، هذه المصيبة المحيرة التي تكشفت لي من تحت طبقة الغبار في ذاكرتي.

أنا ونهاوند، كان عليّ أن أعلم قبل اليوم بأن الرقية التي أعدّها إبراهيم السوسي تشملنا لم أفكر سوى في ذاتي وبأننا سنظل في العاجلة إلى أن نلتقي، لكنني من شدة أنانيتي. ما أن غادرنا مطعم ريتز حتى أخبرت شكري بأني سليم معافى، وبأن مرضي مجرد تمويه لأطلعه على ما يشغلني.

لم يمهلني لأنهي حديثي، بل قاطعني ضاحكا:

ــ إنها أيضاً أبدت اهتمامها بشخصك!

ــ من تعني؟

ــ إخلاص!

ــ يا لك من متسرع متهور، إن ما يشغلني هو نهاوند وليس إخلاص!

أرخى أذنيه لسماعي بذهول، فانسابت مصيبتي على لساني إلى أن أتممت قص

تفاصيلها.

ظل فترة من الزمن مأخوذاً، مُقَلِّباً الخبر في رأسه، وخاطبني:

ــ إنها قضية كبيرة، شائكة، تصلح لأن تكون مادة لرواية شائقة، إني أراها فوق مستوى تفكير الإنسان العادي.

صمت قليلا، وأضاف:

ــ من ذا الذي يصدق خبراً مثل هذا؟ جارية تبحث عنك منذ عشرة قرون!؟

أدار رأسه يميناً وشمالاً، وبعينه ارتياب، وكأنه يبحث عن فضوليٍّ أو متلصصٍ يسترق السمع إلينا قال لي:

ــ إننا يا أبا حيان نتحدث وقوفاً في الشارع!

ــ وأين تريد أن نتحدث جالسين؟!

ــ أقترح مطعم "بيرغولا" المواجه للبحر، ودعني أصارحك بأنني صرت في حاجة إلى كأس إضافية تخصب مخي حتى يقوى على استيعاب هذا الخبر الجديد المحير فبالكاد صدقت قصتك الغريبة، وها أنت تضيف إليها ما هو أغرب! إن هذا يذكرني بالقولة الإسبانية: "كنا أربعة عشر نفراً، فأضافت الجدة مولوداً آخر".

قذف بنا شارع موسى بن نصير، ليتلقفنا شارع آخر فسيح، قال عنه شكري:

ــ هذا شارع باستور.

ثم أخذ يلقي خطبة بعيدة عن موضوع قضيتنا.

الاسم ــ باستور، اسم مسيحي لطبيب عالم اكتشف دواء يشفي من داء كان فتاكا، وهو عشرات أسماء الأجنبي الوحيد الذي أبقى عليه مسؤولو مدينة طنجة، بعد أن استبدلوا الشوارع بأسماء عربية.

كدت أصارحه بعدم أهمية ما يقول، لكنني فكرت في أن تلك طبائع بعض البشر، يقحمون مواضع هامشية في قضايا مصيرية تشغلك، و تظاهرت بالإصغاء. فاستأنف حديثه:

ــ ليتهم اكتفوا بشطب أسماء القادة العسكريين الأجانب، وأبقوا على أسماء العلماء والمفكرين والفنانين الأجانب!

اللباقة تلزم سماعه ومسايرته، لكن شكري صديقي، فقلت له:

ــ لكن لماذا لم يختاروا منذ البداية أسماء عربية لشوارعهم؟!

ــ كانت طنجة مدينة دولية، أي تحت نفوذ الأجانب المسيحيين، وهؤلاء من أقاموا الجدد، الشوارع وتولوا تسميتها، وبذلك، فإن تغيير تلك الأسماء من لدن المسؤولين تحريف وتزييف للحقيقة!

سكت قليلا وأضاف:

ــ ألم تطلعني يا أبا حيان على موعد كان لك مع نهاوند في جنة العريف بغرناطة؟

تنفست الصعداء، إذ أسعدني أن يعود بي إلى قضية نهاوند، فأسرعت بالقول:

ــ بلى، إنه لكذلك، فقد كنا على موعد في جنة العارف!

لكنه أجابني:

هذا ــ هب أن اسم جنة العريف تغير إلى اسم آخر! فماذا سيكون موقفك؟ ألا ترى في الأندلس، أبقوا على تغييراً للحقيقة؟ ولعلمك فإن الإسبانيين بعد أن أخرجوا المسلمين من نقوم نحن بتزييف التاريخ وإرباكه؟ بعض الأسماء العربية، حفظاً لذاكرة التاريخ، فلماذا كان عليَّ أن أشاركه موضوعه، رغم أنف مصيبتي، فقلت له:

ــ أوافقك على ما تقوله الآن، فتلك حقيقة كانت تغيب عني، وأتمنى أن تكون بغداد محتفظة بأسماء أحيائها ومعالمها القديمة!

كنا نسير في شارع طويل عريض بجوار البحر، مضاء بأعمدة نور لا تحصى، فقلت له:

ــ لنعد إلى واقعنا، في أي بلد يحتمل وجود نهاوند؟

أسرع في خطواته، وكأنه بذلك يطلب مني أن نؤجل الحديث إلى أن نصل المطعم.

(25)

فبدت لنا صالة سرنا صامتين إلى أن ولجنا مطعم "بيرغولا". صعدنا بضع درجات، رمال بيضاء، رحبة نصف مغطاة، ملأتها مقاعد وطاولات، وأشرفت على شاطئ ذي خاصة وقد جعلت أشعة امتد إلى أن انبطح لأمواج البحر. كان المشهد مثيراً لحواسي، العجيبة، ليلة الاحتفالات بعرس الإنارة ظلامه نهاراً مضاء جعلني أستحضر تلك الليلة ابنة "بهاء الدولة البويهي"، فقد كانت الأضواء الخليفة "القادر بالله"، حين تزوج سكينة دجلة، وأخرى تزيّن الحارات والأزقة، جاعلة ليل تسطع من عشرات المراكب فوق بالألباب بغداد نهاراً بهيجاً يأخذ.

بدفء في تلك الليلة البغدادية المضاءة، وشهوتها تداعب عواطفي وتسربل أحاسيسي

موقت آذان جارية ترقب عودتي، بقيت ساهراً رفقة صديقي بديع الزمان الهمداني إلى نسيب وغزل الفجر، كنا بحي الكرخ على ضفة دجلة، أنشده مما يستحضره ذهني من تتناقل إلى مسامعنا القدماء، ويسمعني من أطايب مقاماته الجديدة، وحين نصمت للراحة، أن ينقطع صدى لأهازيج مواويل بدوية حزينة، تصدر من مركب على مسافة منا، دون الخليفة مغنين جواري وغلمانا من غنائية يحملها نسيم النهر. كان عرسا بحق، استقدم له وقصور الوزراء وقصر والد العروس الهند وفارس ومصر، فتوزعوا بين قصر الخليفة ودور الحاشية وكبار رجال الشرطة.

حدث ذلك منذ حوالى عشرين عاماً أو أقل. أجل، أتذكر العام بالضبط، سنة ثلاثٍ وأقول وثمانين وثلاثمائة هجرية، ونحن الآن في عام ثلاثةٍ وعشرين وأربعمائة وألف، على منذ حوالى عشرين عاماً! يا لسخرية القدر!؟ ورسى بصري في اتجاه واحد، ضيافتها تلك الميناء نفسه الذي استقبلني مهاجراً سرياً، تذكرت شرطة طنجة وكرم بواخر تغادر الميناء الليلة، فقد كانت أتعس ليلة في حياتي. أصوات منفرة تصدرها مرمى حجر مني. ولعل وأخرى تحل في رحابه، لم أغظ طرفي عنه، فقد كان على المراكب إليه، أما الضوء الآخر المقام الضوء البعيد هناك، كثير الغمز، أقيم عنوة ليرشد وزودت بمعلومات عنه في إقامة السراب، إن مصدره للغاية نفسها، فقد سبق أن تعرفته إرسال برقه بين لحظة وأخرى طوال الليل محتجب عني، لكنه لا يكف عن.

البحر لا أنكر نشوة التنعم في انعكاس إشارته الضوئية في السماء و على صفحة مياه لكنه لم يشغلني دون أن تخفت أنفاسه. لعله من أعجب اختراعات بني الإنسان وأغربها، يستحضره ذهني مما كان عن التفكير في عرس الخليفة ولا في نهاوند، ولا شغلني عما فقد كنت مولعاً بالمقارنة بين قد مرَّ بي أيام شبابي في شط مدينة المحمرة بفارس، ملتهباً ووديانا شاحبة يطاردها الجدب، الصحراء والبحر. كنت أرى الصحراء عراء الصغيرتين الحافيتين إلى أن ينسلخ بعض جلدهما، فتذكرت الرمال الساخنة تحرق قدمي وجزره، وأستكمل من رأسي أساطير وأسرار سردها وكنت أرقب البحر في مده والبصرة، فتصحبني في نومي، تؤرقني أو توقظني بحارون من مدينتي المحمرة مفزوعاً، مكسواً عرقا.

وبقيت على تلك الحال، إخال الصحراء صادمة، والبحر ملهم، إلى أن أوضح لي الزمان بأن كل ما يصدم يلهم، فتساوت لدي الصحراء بالبحر.

كدت أضيق بصمت شكري، فهو لا يفتح فمه إلا ليتجرع كأساته، مما جعلني أخرجه من

صمته بسؤالي:

ــ إن نهاوند تبحث عني، فما السبيل لأعثر عنها أو لأجعلها تعثر عني؟!

نهش في شعر رأسه، وأجابني بصوت خفيض:

ــ ما دليلك أنها تبحث عنك؟

ــ دليلي بصيرتي، ثم إني أستند إلى قناعتي ولا تهمني قناعتك، هب يا رجل أن ما أقوله هو عين الواقع، وفكر معي في وسيلة توصلني إليها.

ــ لك ما تريد.

نطق كلمته بتكاسل، ودسّ في فيه سيجارة أوقدها بيدين مرتعشتين، وقال:

ــ إن أقصر السبل إلى نهاوند أن تعلن عن وجودك، أن تجعل الصحافة والإعلام من يتحدثان عن انبعاثك بعد عشرة قرون من غيابك، والجملة الأصح، بعد عشرة قرون بالجلسات موتك! ولربما قد تستمتع بلقاء السيدة نهاوند. لكن يقيناً سوف لن تستمتع الهادئة في الأماكن التي ارتدتها أو في تلك التي لم تتعرفها بعد!

للحديث، أهرق كأسه في جوفه، وسافر ببصره بعيدا نحو البحر، ثم نحنح مهيئا صوته وكأنه سيحسم الموضوع برأي لا يُردُّ له أمر، وقال واثقاً من نفسه:

ــ بإشهار وجودك، سيرتبك العالم كله. سيصبح خبرك حديث الناس في كل بقاع الأرض، شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، بين المصدق والمرتاب والنافي. سيسعى آلاف الرابع الهجري. البشر إلى الظفر بمشاهدة هذا المخلوق العجيب الغريب القادم من القرن ساحراً أو جنياً. سيتزاحم فئة منهم ستقول عنك المهدي المنتظر، وفئة أخرى ستعتبرك والفضوليون، إنها ضريبة الشهرة، أعني على رؤيتك الصحفيون والأدباء والسياسيون المجانين على اغتيالك، لمجرد الحسد، أو ليشاركك جزيتها. ومن يدري، فقد يجرأ أحد شهرتك.

قاطعته:

ــ ألهذا الحد وصلت أهميتي!؟

ــ أجل إلى هذا الحد! بل إلى أبعد مما تتوقع! فإذا كنت أنا محمد شكري، الرجل البسيط، كتبت مجرد كلام جريء عن مسير حياتي، وعن وجوه صرفها القدر في طريقي، أتعرض لمضايقات مزعجة، من لدن الخاصة والعامة، فما بالك بأبي حيان الحياة التوحيدي، مبدع أمهات الكتب في الفكر والمنطق والفلسفة؟ وأكثر من ذلك، فإن وجودك، وإلقاء نفسك استعادته من بعد موته بعشرة قرون!؟ إني لا أرى فائدة في إشهار

!في مكاره من أجل امرأة جارية عشقتها

:لم أطق سمع بقية خطابه، فعجلت بالرد عليه

تطغى ــ لتصمت يا شكري غفر الله لك. إن ما تقوله قد يوافقك عليه رجل من العامة، الدنيا وكنوزها، ذاته على ما عداها، أما أنا أبو حيان التوحيدي، لن أخلع نهاوند بمباهج يرجى من رجل يصدُّ إني استرخص كل مخلوق لا يخفق قلبه بالحب، ولا أرى نفعاً قطعاً لم تُكتو بنار العشق، محبوبه لقاء كسب مادي، فأحرى مخافة الشهرة والعزلة! إنك ولا ذقت طعم خمرته!؟

:اعتدل في مقعده، واشرع عينيه وكأن كلامي أفاقه من غيبوبة طويلة، وخاطبني

ــ أكاد لا أصدق ما تسمعه أذني! أبو حيان صاحب الإشارات الإلهية، المتخذ من التصوف قضيته الكبرى، تحوّله جارية إلى عاشق مستهام، تنزع عنه بردى الورع والتقوى، وتلبسه عباءة قيس بن معمر.

:ضرب كفّا بكفّ وهو يتأملني، وتابع خطابه

عشق واحدة ــ إنك أيها الفقيه السلفي كنت متسقاً مع نفسك في بغداد، حين لم تذكر كلمة واليوم في طنجة، تضع .في جميع مؤلفاتك، ولا أشرت إلى أية امرأة في جميع ما كتبت مخلوق لا يخفق قلبه نهاوند في كف وما عداها في كف أخرى، تعلن استرخاصك لكل !القدر! أنا حقا لا أفهمك بحب امرأة. المحيّر، أنك عالم، فقيه، متصوف! يا لسخرية

:ابتسمت استخفافاً برأيه، وأوجزت جوابي في جمل مبتورة

ــ ما تبرمت من الورع والتقوى، ولا قايضت ديني بأية امرأة. فأنا الشخص ذاته بماضيه في بغداد و بحاضره في طنجة. ما حدث هو أنني أبحث عن امرأة سكنتني، مسلم يا جزما مني بأني أيضاً سكنتها. فأنا مخلوق بشر قبل أن أحمل باقي الصفات، أنا وإذا كنت تراني شكري. أعمل لدنياي كأني أعيش أبدا وأعمل لآخرتي كأني أموت غدا، لا يتعدى بضعة قد عدت للبحث عنها بعد فراق دام عشرة قرون، فذلك بالنسبة لي التدوين عنها أو عن أشهر، هي ما استغرقه سفري من بغداد إلى طنجة، أما عزوفي عن معاشرة المرأة واقع عيني بديهي، أية امرأة غيرها فلا يدعو إلى أي استغراب، ذلك أن ثرثرة منفرة، غير مستحبة. فأن يخفق قلب الرجل وتدوين البداهات لدى العلماء والفقهاء بقلبها لا يضيف إلى الكتابة الأدبية أو الفلسفية قيمة جديدة، بحب امرأة أو يشقى للظفر الواضحات من المفتضحات. ولعلك تذكر ما أعلنته في حضرة الوكيل العام فتفسير من أن جنس الشعر وحده ما يستوجب تخصيصه للنظم عن المرأة للملك.

قاطعني هازئاً:

ــ وجهة نظرك قديمة، بالية، مضحكة، ربما كانت مقبولة قبل عشرة قرون، أما في عصرنا هذا فلم يعد هناك ما يحدّ من حرية الكتابة. فمثلما يحق لنا أن نتحدث يحق لنا أن نكتب. ثم إن المواضيع الأدبية عموما، نثراً كانت أم شعرا، ما عادت قيمتها في الجوهر، ولربما لهذا جوهرها، وإنما في كيفية تناولها، أي صار الشكل مرجحاً على واحداً، يطلق عليه الكتابة ذات السبب تداخلت الأنواع الأدبية وتمازجت لتصبح نوعا الشكل الجديد.

انتفضت في وجهه:

بالشعير، ــ يستحيل أن أقبل بهرطقة كلامية كهذه، تمزج الشعر بالنثر كمن يمزج القمح جوهرها! إنكم تتذوق الشكل قبل الجوهر! ما سمعت عن أحد أطربه شكل قصيدة قبل باجتهادكم هذا تقدمون العربة على الحصان.

أخذ يضحك وقاطعني:

هناك، ــ إنك لم تدعني أنهي حديثي يا أبا حيان. طيب، لأزودنك علما بأن الشكل أصبح كلها. صار دون أن يظل مقتصراً على المجال الأدبي، بل امتد ليشمل أنواع المعرفة تصور العدل! سمة مهيمنة على جميع أمور حياة هذا العصر، حتى العدل لم ينج منه، وجوبا اعتماد وعلى سبيل المثال، إذا أقدمت على بسط تظلمك على القضاء، يلزمك مثل الناقد شكلٍ محددٍ حصراً تحت طائلة بطلان حقك، فقاضي هذا العصر صار الأدبي، يقوّم الشكل قبل الحق، وكم من حق ضاع بسبب شكلي تافه.

ــ وأين منكم قولة علي بن أبي طالب ما ضاع حق ورائه طالب؟

ــ صارت سنبلة فارغة!

ــ يا إله السموات والأرض، خفّف عن مخلوقك ما ابتليته به. أرجوك يا شكري أن تصمت، فما عدت أتحمل سماع مثل هذه الأخبار، إن عصركم هذا لعصر مجانين بحق.

أراد أن يضيف شيئا، فأسكته بإشارة من يدي، وقلت له:

أنت تربكني يا شكري، لعلك تقصد بالشكل والجوهر، اللفظ والمعنى؟

ــ تماما، ذاك بالضبط ما قصدته، فالشكل هو اللفظ والجوهر هو المعنى، وقد أصبح اللفظ في عصرنا الحالي مرجحاً على المعنى.

الجسد ــ شخصياً قد لا أتفق معك، ذلك أن ترجيح اللفظ على المعنى هو بمثابة ترجيح خالد لا يتبدل. على الروح. فاللفظ كالجسد، عارض متغير فان. أما المعنى فهو كالروح،

أن الشاعر وحتى العالم أو ولذلك قيل في زماني السابق "إن الشعر تجويد للمعاني"، ذلك ذلك طريقة تجويدها الفيلسوف، هو الذي يجيد التقاط المعنى، فتأتي بعد.

بدا غير مقتنع بوجهة نظري، وقبل أن يتحدث أضفت قائلا:

أيضاً ــ أفهم أنكم صرتم في هذا العصر تجمعون على ترجيح اللفظ على المعنى، هذا الجاحظ عليه ليس بالشيء الجديد، ففي عصري السابق وُجد من قال بهذا. أذكر أن يلتقطها المسلم رحمة الله، قال ما معناه، إن المعاني ملقاة على قارعة الطريق، وهو قول في ظاهره والنصراني والمجوسي، لكن الحرفية تكمن في كيفية صياغتها، كذلك يبدو وكأنه يرجح اللفظ على المعنى، لكنه في عمقه ليس.

ابتسم شكري وهو يوقد سجارته وتلمظ رحيق كأس صبّها في حلقه، ثم تطلّع إلى سقف الصالة وكأنها ستمده بما يعتزم الردّ به، وخاطبني:

ــ أنت أيضا أربكتني يا أبا حيان، فلم أعد أعرف من منّا على صواب! طيب إني أفكر في أن أطلعك على آخر مستجد في النقد العربي.

قال ذلك ورفع بصره مرّة أخرى إلى سقف الصالة، فاستعجلته:

ــ هات ما لديك، إني أتوق لمعرفة هذا المستجد.

ضحك، وانخرط في الحديث:

المرتبة ــ قبل خمسين عاماً إن لم تخني ذاكرتي، كان المشتغلون بالنقد، يضعون في بعد ذلك توحّدت الأولى الكاتب قبل نصّه، فقد كان الكاتب أهم من النص الذي يكتبه، الكاتب، هذا التفضيل الآراء على استبدال الكاتب بالنص، ليصبح النص أكثر أهمية من الغرب المسيحي، ودعا إلى للنص، لم يدم طويلا، فقد قام أحدهم من معشر منظري قارئ. ضحك وأضاف ترجيح التلقي على النص، أي عدم جدوى النص دون:

ــ ما قول الأديب الفيلسوف القادم من القرن الرابع الهجري، أزهى عصور ثقافة العرب؟

بالرغم من الكؤوس التي صبها في جوفه، أحسست به في كامل قناعته بما يقول، فارتأيت أن أعود به إلى موضوعنا مخافة فساد جلستنا، فقلت له:

الفكر ــ إن التلقي، ومنه الإصغاء كأحد مدلولاته، ليس مفهوما جديداً وافداً على بشأنه العربي، فقد كان موجوداً في بداية العصر العباسي، وكانت لنا مطارحات.

أوقفني بإشارة من يده، فخلته سيشكرني على حصافة رأيي، إلا أنه فاجأني بما لم أتوقعه منه، إذ قال:

تنسبه ــ عليَّ أن أكون صريحاً معك، فقد أخذت تربكني حقا، كل مستجد أطلعك عليه، العصر يجهلون إلى تاريخك البعيد، لم أعد أعرف إن كنت تتعمد ذلك أم أن مثقفي هذا تاريخ ثقافتهم؟

قاومتُ غضبي، وقلت له:

إلمامي بالتلقي ــ أنت الأعلم يا شكري بأنني لم أقرأ كتاباً واحداً منذ القرن الرابع، وأن لأتحدث عنه ساعات والإصغاء يعود إلى أيامي البغدادية، بل إني على أتم استعداد العربي منذ أزيد من عشرة وساعات، ولعلمك فإن الإصغاء كان حجر الزاوية في أدبنا قرون.

أمسك بقنينة نبيذه وملأ قدحاً صبّه في حلقه، وقال لي:

ــ منذ أن التقينا وأنت تزج بي في معضلة وراء معضلة دون استراحة.

إني بصراحة لا أطيق الصنف الجاد من البشر لأكثر من ساعة، فقد تخليت عن مهنة بمنطقهم التدريس لهذا السبب، وكذا عزوفا عن سخافة منطق المدرسين، وأنت تجاذلني.

أحسست بالغضب يتسلق صدري، لكني في ذات اللحظة صرت أقاومه، مكثفا إرادتي مفتعل، لدرء استفزازه. أنا لا أُستفز إلا بإرادتي، رددت ذلك في نفسي وخاطبته بهدوء وأنا أكتم غيظي:

ــ لكنك يا شكري أنت الذي اختار الحديث عن المفاهيم المستجدة في الأدب، ومن يطرق الباب عليه سماع الجواب.

ــ لكنك أطلت الحديث في أمور عقلانية لا تناسب المقام.

ــ ما العيب في ذلك وأنت من اختار المقام؟

ــ الحلم والوهم وحدهما يناسبان مجالس الشراب.

ــ لا تنسى أن الإكثار منهما، مضاف إليهما الشراب، يؤدي إلى الجنون.

أثناء ــ مرحبا بالجنون، من كان دون جنون يُرفض من زمرة المبدعين. أتعرف أنني بترحاب منقطع كتابتي لروايتي "الخبز الحافي" كنت في حالة جنون، فاستُقبلت الرواية في أوج التعقل، لم النظير، وعندما أتبعتها بكتاب "غواية الشحرور الأبيض"، وكنت يلتفت إليه أحد.

لربما أحسست أني أجالس شخصاً غريبا عني، أكيد أن الرجل أصيب بلوثة عقلية، أو إلى أقصى جنونه طغى على تعقله، فلا معنى أن ينقلب مزاجه من أقصى درجة الوداعة دون أدنى درك الوقاحة. تذكرت كيف كان يضرب على ظهر عبد القادر بشدة وقسوة

بحذائه وسترته في سبب، وكيف ولج البحر في الهزيج الأخير من الليل، بعد أن ألقى وسط الأمواج المتلاطمة.

أشياء وتصرفات خرقاء صار ذهني يستحضرها، إلى أن قال لي:

ــ إني أتقبل بشغف أن تحدثني عن علاقتك بنهاوند، فالظرف الذي جعلك تتعرف إليها جميلة. في زماننا يدعو إلى الدهشة. أهديت الوزير كتباً فأهداك جارية، يا لها من حكاية بمسميات أخرى، عشيقة أو الحاضر لم يعد الوزراء يملكون جواري، أوهم يملكونها صديقة.

أفكر لم أجبه بشيء. كان ذهني مشتتاً، تتزاحم به أفكار تتلاطم كأمواج بحر الظلمات. أفكر في إعلان البحث عن نهاوند لتدفئ فراشي، وأفكر في مزاج شكري الشاذ، وأفكر في ما فوق المائدة، وانسحبت تمالك نفسي التي لو لم أتق شرها لكنت ألقيت فوق رأسه بكل من دائرته إلى الأبد.

من جديد فاجأني وهو يضحك:

ــ إننا نحن العرب جميعا نعيش حياة مركبة، حياة انفصام. ندعو إلى السلف الصالح ولا مع ذاك، صانع النكسات والمآسي ونستلذ التبعية للغرب المسيحي. أنا لست مع هذا ولا مع ذاك، ثمار لم نشارك في لا مستقبل يرجى من العودة إلى الوراء، ولا فائدة ترجى من قطف زرعها.

أخذ يضحك حتى خلته مجنونا حقاً، ثم تحامل على نفسه لينتصب على قدميه، وأخذ يحوم حولي متابعاً ضحكه:

ــ أنت أبا حيان، تنتعل حداء عصرياً وتتدلى على صدرك العراقي ربطة عنق صممت في الغرب، وتخفي عظامك داخل بذلة فاخرة، فوق قميص غربي ناعم، إنك لا تختلف عن المشارقة في شيء، بل عن العرب عامة، ولست الوحيد القادم من القرن الرابع الهجري، فجميعنا قفزنا على عشرة قرون، استبدلنا ركوب الجمل والحمار بركوب الطائرة، دون أن نسهم في صناعتها. لكننا نبرر ركوبها بحرق المراحل.

توقف عن ضحكه وأخذ ينعم في وجهي وأضاف، لكنه هذه المرة نطق بمودة فضحتها حنجرته:

ــ إني أفسر صمتك برفضك لشخصي، أرجوك أبا حيان، لا تغضب مني، أكن لك مودة حقيقية، لعلي في حالة سكر، لكن عرضي وافر، وأنا في الوقت ذاته في كامل قوتي القدر العقلية، ذلك أن سكري مثل جنوني لا يستغرقني سوى لحظات. عليك أن تشكر

ما نحن الذي جمع بيننا، فلو كنت صاحبت غيري، ما كنت ستحظى بالاطلاع على حال فيه، أقصد ما يعتمل في دواخلنا. لنكف عن الوهم والجنون.

لاحظت أنه ساه عن سماعي، فتوقفت عن الحديث. مرت فترة صمت دون تواصل وعلى صدى صوت نسوي أدرت رأسي ملتفتا خلفي، فألفيت حشداً من بشر ملأ بيننا، كان فارغاً، نسوة ورجال تكدسوا فوق مقاعد كتجمعات النمل، وازدانت موائدهم حيزا بأشربة ومزات وقهقهات، وانقدح خاطري إلى أن إحداهن في حالة سكر طافح، فقد طغى صوتها على ضجيج المقهى.

انتبه شكري إلى غيابه عني، فخاطبني بمودة:

ــ معذرة أبا حيان، فقد سهوت عنك، انشغلت بأم كلثوم.

لم أفهم شيئا، أو بالأحرى حسبته منشغلا بالبنت السكرانة، وتساءلت مع نفسي كيف عرف أن اسمها أم كلثوم إلى أن قال لي:

ــ أم كلثوم، سيدة الطرب العربي وتدعى كوكب الشرق، وهي الآن تغني قصيدة لأبي فراس الحمداني.

أدخلني شرحه في دهليز مظلم، فبادرته بالقول:

ــ إنك زدتني غموضاً، أوضح رعاك الله!

ضحك وقال:

في ــ الصوت المسجل الذي نستمع إليه الآن، هو للفقيدة أم كلثوم، وقد سطع نجمها التي تشدو بها، الغناء العربي، سطوع نجم المتنبي في سماء الشعر العربي، أما القصيدة فهي للشاعر أبي فراس الحمداني.

أيضا لم أقو على كبح ذهولي، ليس إعجابا بالموسيقى أو صوت المغنية فحسب، وإنما أذني لأذوب بقصيدة أبي فراس الذي لحق بي إلى القرن الرابع عشر الهجري، وأرخيت والدّف والصنج: في رقة معاني شعر أبي فراس، وهي تنساب في حُلَّة من أنغام العود أراك عصي الدمع شيمتك الصبر، أما للهوى نهي عليك ولا أمر.

(26)

حين أحس بي شكري مشدوداً إلى السماع، سألني:

ــ حبذا لو أعرف مدى تقبلك لهذا النوع من الغناء، وهل أصلا تفهم في الغناء.

أسكته بحركة من يدي إلى أن انتهت السيدة من غنائها وقلت له:

نصر ــ لا تنسى يا شكري أني كنت صديقاً لجهابذة علماء الموسيقى في عصري، كأبي جميع كتب الفارابي وأبي الفرج الأصبهاني، وبهذه الأصابع التي تشاهدها، قمت بنسخ إحصاء العلوم"، " الفارابي، كـــ "الإيقاع" و "الموسيقى الكبير" وكذا "أصل العلوم" و الأغاني" لصديقي وجميعها في علم الموسيقى واللحن، كما نسخت وحفظت "كتاب المرحوم أبي الفرج الأصبهاني.

عاد يقول:

ــ أعرف أنك موسوعة، لكني لم أسألك عن الجانب العلمي في الموسيقى وإنما عن تذوق الألحان.

قاطعته ضاحكاً:

جهة، ــ أزعم أني أفوقك تذوقاً للألحان، وذلك لأني أحيط بعلم الألحان النظري من وقع خطأ وبتذوق ما يهز منها مشاعري تطبيقا من جهة أخرى. فعلى سبيل المثال، إذا كنت مغرماً في العزف أو في أحد الإيقاعات، فإني أكتشفه في الحال، ولعلمك فإني كنت أنوي اللحاق بعزف إبراهيم الموصلي وشقيقه إسحاق، وكذا بتلميذهما زرياب الذي به في الأندلس.

نظر إليَّ باستغراب، فأضفت قائلا:

وتراً ــ أتعلم أن العود بعد أن كانت له أربعة أوتار من الحرير، أضاف له زرياب العود، الريشة خامساً، أسماه الأوسط؟جعله تحت المثلث وفوق المثنى، واتخذ مضراب إسحاق الموصلي، لكنه من جناح النسر، بدلا من قطعة الخشب، وجعل عوده بحجم عود أخف وزناً بمقدار ثلث وزن عود الموصلي.

كانا ستقول هذه معرفة، لكن صدقني أن صوت علية بنت المهدي وطريقة أدائها للغناء، صفاء ينتزعان مني مشاعري ودهشتي ويسموان بي إلى أعالي السماء،كان صوتها في السيدة صاحبة أغنية أراك عصيَّ الدمع ومواصفاتها.

أصابت الدهشة شكري، فقال لي:

ــ من يصدق ما تقوله؟ من سيصدق أن أبا حيان يعرف عن الموسيقى والألحان أكثر مما يعرفه مثقفو عصرنا هذا؟

وقلت له:

ــ أصارحك يا شكري بأن أبا ناصر الفارابي إلى جانب العالم والصوفي كان مغنيا الفيلسوف الطبيب وعازفاً مبهراً، كان يعيش بداخله العالم والفنان متلازمين. وإذا كان

معتبراً الموسيقى فرعاً من أبو يوسف الكندي قد سبق الفارابي إلى التأليف الموسيقي، استوعب علمه وفاقه في أمر الرياضيات، ووسيلة لشفاء المرضى، فإن الفارابي ثقافة العجم. أذكر عندما كنت أنسخ الأصوات والأنغام والتآلف، وزاد عنه اطلاعاً على غايته من تأليف هذا الكتاب كانت بسبب ما وجده كتابه "الموسيقى الكبير"، اكتشفت أن عليه رحمة الله الواسعة. نعم الرجل، تعاشرنا في من نقص وغموض في كتب الإغريق، وابن مسكويه دون شائبة، إلى أن سرنا في موكب حزين نعيده السنوات الأخيرة أنا وهو إلى التراب.

أنا أتحدث، وهو يحملق في وجهي مأخوذاً، إلى أن قال لي:

ــ هل تحفظ لحناً للفارابي أو الأصبهاني؟

ــ أحفظ لهما ألحاناً كثيرة، لكني لم أغني منذ زمن طويل.

ضحك وقال:

ــ أرغب أن تسمعني مقطعاً من أغاني ذلك العصر، لا يهمني الصوت، أرجوك أبا حيان.

ــ لكن الغناء لا يستقيم إلا بالموسيقى.

ــ ليس بالضرورة، فأنا أريده بدون موسيقى.

بل ــ لكني أشترط حضور الموسيقى في الغناء، فالعلاقة بينهما ليست وشيجة فحسب، هما واحد في لبوسين، وبذلك حرَّمتُ على نفسي الغناء دون آلة موسيقية.

ــ معنى ذلك أنك تجيد العزف؟

ــ علماً وعملا.

ــ طيب، إذا جئتك بعود، هل تغني؟

ــ ليس وسط هذا الضجيج.

التفت خلفه يستطلع من في الصالة، وخاطبني مزهواً:

ــ لم يعد صحبتنا سوى أربعة أشخاص، وفي وسعي أن أخرسهم جميعهم.

ناولني ابتسمت له موافقاً، فنهض مسرعاً، غاب زمنا قصيراً إلى أن عاد يحمل آلة عود، فتوقفوا عن إياها ثم خطى إلى حيث الأشخاص الأربعة، وهمس لهم كلاما لم أسمعه أحاديثهم.

على في تلك الأثناء، كانت آلة التسجيل قد كفّت عن بث موسيقاها، فأطبقت السكينة المكان، ولم يعد يُسمع سوى هدير خفيف لأمواج تتكسر على شاطئ البحر.

داعبت أوتار العود قليلا، وقلت لشكري:

ــ إن العود الذي اعتدت عليه في بغداد وغيرها، كانت به ست أوتار فردية، أما هذا، فبه أحد عشر وتراً.

امّحى الفرح من وجهه، وقال في كآبة:

ــ إذن لن تستطيع العزف!

ابتسمت وطمأنته:

ــ سأعزف أنغاماً شجية، فلا شيء تغير في العود، سوى أن كل وتر أصبح مزدوجاً، باستثناء الوتر السادس، فقد ظل منفرداً، فبدونه لا يمكن تحقيق الغاية اللحنية على مستوى الصندوق الرنان.أي بطن العود.

ابتسم شكري وحرك رأسه مشجعاً، فأخذت أداعب كل وتر وأنا أشرح له علمي يصير مدوزناً ــ هذا العود مُدَوْزَنْ على مقامات أندلسية، عليَّ أن أقوم بتحويله حتى على المقامات المشرقية القديمة، ليتسنى لي أن أسلطن عليها.

بعد لحظة تمكنت من دوزنة العود، وخاطبت شكري:

سأسمعك أغنية من أغاني عُلَيَّه بنت المهدي.

وبعد أن عزفت المقدمة اللحنية، أنشدته جاعلا كل نغمة تتماه مع كل كلمة أنطق بها،

لَبِّ الهَوَى كُلَّمَا دَعَاك
وَلاَحِ في الحُبِّ مَنْ لَحَاكَا
مَنْ لَامَ في الحُبِّ أَوْ نَهَاكَ
فَزِدْهُ في غَيِّكَ انْهِمَاكَا

إنْ لَمْ تَكُنْ في الهَوَى كَذَاكَا
نَالَ لَذَّاتِهِ سِوَاكَ

أغني وأرقب في الوقت نفسه تسرب الناس إلى قاعتنا، ولعل مستخدمي مطعم بيركَولا أنفسهم صاروا ضمن أولئك الناس.

مقبلا ما إن ختمت وصلتي حتى دوت الصالة بالتصفيق المتواصل، فارتمى شكري عليَّ الانفعال رأسي ويدي وقد اغرورقت عيناه بالدموع، وخاطبني وهو في أقصى حالات:

على ــ أنت أعظم فنان في هذا العصر، بالله عليك أبا علي، كيف سمحت لنفسك بالتستر هذا الكنز الفريد؟ إن صوتك يخفي سحراً أخاذاً يهز النفس ويبهر العقل.

أوتار لم أقل شيئا ولا حتى أطلت الابتسام، كي لا أبدو مزهواً بنفسي، بل عدت أداعب تلك الأغنية العود، مستأنساً بتقسيم على الطبقة الصوتية الخفيضة، إلى أن حضرتني التي كنت أعزفها بعد أن ودّعتُ نهاوند في بغداد.

الأغنية واكتنفني شعور حاد بالأسى على فراق نهاوند، فأدركت أن تعبيري في أداء وذوق وسأستميل القادمة سيكون صادقاً، لأن عاطفتي كانت فياضة، وبذلك سأغني بفن قلوب سامعي.

واندفعت أعزف وأغني:

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ في بَغْدَادَ لي قَمَراً
بالكَرْخِ مِنْ فَلَكِ الأَوْزَارِ مَطْلِعُهُ
وَدَّعْتُهُ وبَوِدِّي لَوْ يُوَدِّعُنِي
صَفْوُ الحيَاةِ وأَنِّي لا أُوَدِّعُهُ

وقد أعدت أداء الأغنية ثلاث مرات، لسببين اثنين، أولهما استجابة لرغبة الحاضرين العراق، أفاض بعضهم في الإشادة بحسن أدائي، وحسبوني مطربا حديثاً قادماً من فقلت له: وثانيهما استجابة لإلحاح شكري الذي تحدث عن موهبة استماعه وتذوقه صوت ــ بدون المتلقي لا قيمة للمغني، فلكي تحصل لذة الطرب لا بد من توافر صدق فالموهبة كما تكون المغني وحسنه، ورغبة المتلقي في الاستماع والتقبل، وأنا أتفق معك، للمغني تكون للمتلقي.

ناولته العود، لكنه رفض وأصر على الاستماع إلى أغنية أخرى، فتعالت الأصوات تؤيده.

ابتسمت، وخاطبت شكري بصوت خفيض:

ــ لا بأس، سأختم هذه الليلة بأغنية كانت مفضلة لدى صديقي ابن فهم الصوفي أبي القاضي، كان رحمه الله، إذا سمعها هاج وأزبد، وتعفَّر شَعْرُه، وهي من شعر ربيعة.

أجعل احتضنت العود وعزفت مدخلا موسيقياً من مقام لحن الأغنية نفسها، وذلك حتى أترك الآذان تعتاد جو المقام، ثم عرجت على اللحن الخاص بالأغنية من غير أن كطائر لأحدهم ذرة إحساس بانتقالي من زمن موسيقي إلى زمن موسيقي آخر، بل سرت مفرد مغرِّد محلِّق في سماء صافية رحبة.

وانسابت القصيدة تنفذ في شرايين الموسيقى، وكأنهما جسد وحلة لا يليقان إلا ببعضهما.

أنيرِي مَكَانَ البَدْرِ إِنْ أَفَلَ البَدْرُ
وَقُومِي مَقَامَ الشَّمْسِ مَا اسْتَأْخَرَ الفَجْرُ
فَفِيكِ مِنَ الشَّمْسِ المُنِيرَةِ نُورُهَا
وَلَيْسَ لَهَا مِنْكِ المَحَاجِرُ والثَّغْرُ.

(27)

اتصل شكري بسائق السيارة، واقترح أن يرافقني إلى فندق السراب في الجبل، فأومأت برأسي موافقاً.

ونحن نهم بركوب السيارة، قدمت رجلي اليمنى على اليسرى وكأني سأجعل السائق خلفي، ثم استدركت خطأي فعدت لألج السيارة بشكل سليم، فضحك وقال لي:

ــ تبدو كأنك أنت السكران!

ضحكت بدوري، وقلت له:

ذاك كان حالي مع صديقي الناسخ ابن عدّي النصراني، هو يشرب وأنا أسكر عوضه، وكانت بطنه صغيرة مثل بطنك، لكنها قاحلة كالصحراء، لا ترتوي أبدا.

أقلعت بنا السيارة، وكمن يخاطب نفسه بصوت مسموع قال:

ــ عليَّ أن أنتظر إلى صباح غد لأتأكد!

وقبل أن أستفسره عن الشيء الذي يريد التأكد منه، أسرع مضيفاً:

ــ أتأكد إن كان ما عشته هذه الليلة واقعا عينياً أم مجرد لدغة حلم.

لم يكف عن الضحك، وهو يضيف:

ــ لو أنك أخبرتني سابقاً بأنك تجيد العزف والغناء لصدقت نصف الخبر.

ــ وما هو النصف الآخر الذي لم تصدقه؟

أخرج من قرابه صندوق سجائره، ألصق بفيه واحدة وأقفل نافذة السيارة عن يمينه كي لا تطفئ الريح عود ثقابه، فأتم له ما أراد، وخاطبني:

ــ مشاهدتي بأم عيني عزفك وغنائك، هي النصف الآخر من الخبر.

فتح نافذة السيارة ليتسرّب دخان سيجارته إلى خارجها، والتفت نحوي يخبرني:

أدخر في ــ إني يا أبا حيان مستهام بالغناء، عاشق للأصوات الجميلة وللعزف الرفيع، هذه الليلة وأنت منزلي تسجيلات متنوعة لأهم المطربين والعازفين عرباً وعجماً، لكنني عليه من تسجيل تحلق بي في ملكوت الفن الراقي، جعلتني أقزّم كل ما أتوفر.

العود، أرجو أن تثق بي يا أبا حيان، فقد دوّختني، أحياناً كان يخيل لي وأنت محتضن أو هي مختبئة بين عازفاً منشداً، أن أقواما من الجنَّة مختفية عن الأنظار تنظم عزفك، انه السحر بعينه. لعل .ثنايا الأوتار، وأنت تستنطقها فردا فردا، وجماعات جماعات مثلما يعتق الخمر الأصيل بعد أن سباتك الطويل في تلك المغارة الأندلسية عتّق صوتك والله صوتك، مسكر كالخمر المعتق، يرقد لأمد طويل في مخزن هادئ منعزل؟ هكذا قد يحدث لبني البشر حين يكتشفوا عذوبة أين منك مطربي هذه الأيام؟ إني لا أدري ما !صوتك وسحر عزفك

لكني لم اكتنفني زهو فطري، وأنا أستمع إلى شكري يشيد بمهارتي في العزف والغناء، كدت أحتج على أدع تثمينه يوقظ غروري، أو لربما لا مسه خفيفاً. ومن باب الدعابة، يحصد ما تبقى تشبيهه لصوتي بالخمر، لكنني عدلت عن رأيي خشية إقحامي في نقاش .من ليلتنا القصيرة، فيضيع مني مخططي للبحث عن نهاوند

:ووجدت نفسي أصارحه، دون أن أزيغ عن سياق الحديث

ــ عندما كنت أعزف قصائدي وأنشدها، كنت أستحضر نهاوند وأخاطبها، كنت أحس هذا أنها تسمعني وتراني، فأغني لها، وأشاهدها وحدها وهي تشير عليَّ بيدها لأعيد تصفيقاتكم وتتعالى المقطع، أو لأكرر هذه الجملة الموسيقية الحزينة. ولكن، حين تشتد أغني لجماعة من السكارى أصواتكم، أستفيق على واقعي، وأدرك أنها قصية عني وأني بالاغتراب، فأسكبه في القصيد ومستخدمي الحان، فيتضخم حال وضعي النفسي المأزوم .المغنى نفسه، وأعود لاستحضارها

أنيري مكانَ البدر إن أَفلَ البدرُ

.وقومي مقامَ الشمس ما استأخرَ الفجرُ

.إنها القصيدة نفسها التي كانت تستهويها، فلا تمل سماعها مرات ومرات

السيارة تلتوي بين منعرجات الجبل على مشارف بحر الظلمات نحو إقامتي، وشكري :بعد أن أنصت في ذهول لما صارحته به، قال لي

.ــ إذا كان وراء كل مبدع شيطان، فأنت وراءك شياطين

:سكت ينتظر ردي، وحين لم أجبه، أضاف

ــ صدق المعاصرون متناولوك بالدرس إذ نعتوك بأديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، في لكنهم أغفلوا الحديث عن علمك بالموسيقى والغناء، ربما لأنك لم تتحدث عنهما !مؤلفاتك، ولا القدماء أشاروا إليهما على ما أظن

هو يتحدث، وأنا مأخوذ بجمال الليل، وعبير بحري بارد، يتسرب من نافذة السيارة المفتوحة على يميني، فانتبهت، وأسرعت بالقول:

لا ــ إني أجهل ما قيل عني بعد وفاتي، لكن ما أعلمه عن نفسي، أني سوَّدت أوراقا ويقيني تحصى عن علم الموسيقى والغناء، وعن ليال في الإمتاع والطرب كنت سيدها، وصلكم منها، لا أنها لم تنجو من قبضة النار مع غيرها من مؤلفاتي، وإني لأخال أن ما يمثل سوى نزر قليل مما تبقى محفوظاً لدى خلاني.

ظل شكري مشدوداً لما أرويه عن نفسي، فأضفت قائلا:

ــ إن ما يهمني اليوم هو مصير نهاوند، وأريدك أن تساعدني في البحث عنها.

أدار برأسه نحوي، وقال محتجاً:

ــ نهاوند نهاوند، ألا تحاول نسيانها، إنها بعيدة عنك مسافة عشرة قرون، يستحيل أن تظل على قيد الحياة.

اعتدلت في جلستي، وصرخت فيه:

ــ عن أي استحالة تتحدث وأنت تشاهدني حياً أرزق، إن الذي استعادني للحياة من جديد، قادر على استعادتها من جديد.

قاطعني:

عملة ثمينة ــ لو أن الأمر كما تقول لعمّ خبرها العالم بأسره. اسمع يا أبا حيان. إنك إعلان وجودك، حدث فريدة، وفي حياتك الجديدة هذه، سوف تلتقي بنهاوندات، إن مجرد الظفر بالتعرف إليك فريد في تاريخ البشر، سيجعل نساء الدنيا تتسابقن إلى.

قاطعته:

ساقها ــ ما كنت زير نساء حتى أسخر علمي لاستمالة النساء. أنا مكتف بامرأة واحدة عضوية تنشد القدر في دربي، فاصطفيتها عن بقية نساء العالم، وحبي لها ليس حاجة تخطيت مرحلة الإشباع حتى أسعى إلى أخريات. إنني في سني وتجربتي وثقافتي الانجذاب الجنسي إلى ما هو أعلى وأسمى.

ــ تريد القول بأنك عاشق عذري؟

ابتسمت مدركاً أنه لم يفهم ما أرمي إليه، فأجبته بصيغة تهكم، سائلا إياه.

ــ أتدرك حقيقة الحب العذري؟

صدرت عنه ضحكة متغطرسة وكأني سألته عن لون الماء، وأجاب مزهواً بعلمه:

ــ الحب العذري واضح كالشمس، فهو حب مثالي، مأساوي، يرجح بطلاه متعة الروح

الزواج. إنه على متعة الجسد، فيرتبطان بعلاقة تشوبها العفة والطهارة إلى غاية حصول واقعك أنت مع نهاوند، أتريد مزيداً من الشرح؟

لم أقو على كبح امتعاضي، فقلت له:

ــ إني لا أسعى إلى الزواج من نهاوند، فهي أصلا زوجي، ثم إنك لم تصب في وليتك شرحك، بل كررت ما سال الحبر عنه في الكتابة والكلام، أي نقلت ولم تجتهد، مريض، نقلت ما هو مفيد. ولعلمك يا شكري، فإن العاشق العذري رجل أناني، شهواني، يبالغ في حب نفسه، متوهما أن ذلك الحب هو لمعشوقته.

قبل أن أسوق له أمثلة على ما أقول، قاطعني محتجاً:

ــ الآن دخلت في الهرطقة، تنفي الحب العذري من أساسه، تنفي قصة جميل وبثينة وقيس وليلي وعروة وعفراء، لا، لا، إنك أنت من ابتعد عن الصواب.

أسرعت بالرد:

ــ دعني أنهي رأيي وقل بعد ذلك ما شئت، ثم إني لا أنفي قصص من ذكرتهم من يحب الشعراء. غير أن ما يستمد من قصائد جميل، أنه لم يكن يحب بثينة بقدر ما كان أشعاره نفسه، ولا كان يرغب في الزواج منها أصلا، وإلا، ما كان ليتغزل بها في التي يريدها زوجاً. علانية وهو المدرك لتقاليد قبيلته التي تمنع زواج من يشبب بالمرأة حبه عن الناس، لا أن يقوم فلو كان جميل قد أحب بثينة وأراد الزواج بها، لكان كثم وتقاليدها، مفضلا أن يظل عاشقاً بإرادته الحرة ليعرقل زواجه، متحديا أعراف قبيلته وترغب في الزواج منه، ما كانت لتتباهى على أن يصبح زوجاً، وإذا كانت بثينة تحبه صحيحاً ما يُنسب للحب العذري من العفة والطهارة بعشقه وتعلنه أمام رفيقاتها. فليس الجسد. فأي متعة روحية يحسها رجل يختلي بامرأة في وتفضيل متعة الروح على متعة متعة جسدية عصمة غيره، إن لم تكن.

ــ دعني أهزمك ولو مرة واحدة يا أبا حيان، إنما بالله عليك، قل لي، في أي خانة تصنف حبك لنهاوند؟

ــ ليس من الضروري أن نصنّف عواطفنا في خانات، وكأنها أراء في الشعر أو وعاشرتها، الموسيقى. بالنسبة لي، أحب نهاوند وكفى، فبعد أن اتخذتها زوجا، وعرفتها، عشقتها فلم أطق فراقها.

ــ ألم يكن جمالها سبب عشقك لها؟

الغرباء بأعينهم، ــ جائز، بيد أن في الحب دوما إبهام، فما يراه المحب بعينيه قد لا يراه

العاشق كثيراً ما يعشق ولعل رأيي هذا يقترب من رأي صديقي الجاحظ الذي قال: "إن الموصوف بالبراعة والرشاقة، ثم إذا غير النهاية في الجمال، ولا الغاية في الكمال، ولا سئل عن حجته في ذلك لم تقم له حجة".

هكذا هو حبي لنهاوند. ولعلمك يا شكري، فإني أميل إلى تصديق المقولة الشائعة بأن في حياة كل رجل امرأة واحدة.

ضحك وأخذ يردد الجملة نفسها، وطلب من السائق أن يتهمل في سيره، وقال لي:

لا داعي لمزيد من الشرح، أنا أشاطرك رأيك.

سرح يفكر، وكأنه يبحث عن شيء غاب عنه، وقال:

حبها في ــ أنا أيضا من طينة من تصدق عليهم تلك المقولة، فالمرأة الأولى التي استقر البيضاء قلبي ظلت الأخيرة، وغيرها كثيرات، لكنهن مررن كالسحب الصيفية.

فتح نافذة السيارة وألقى بعقب سجارته خارجها، وسألني:

ــ هل ترغب في سماع قصة حبي الأول، تصور أني لم أبح بها لأي شخص، ولم لتلك عنها شيئا، لكني في هذه اللحظة تتفتح شهيتي للحديث عنها، قد يكون حنيني أكتب يدعوني لأحدثك الأيام أو شوقي إليها، أو لعل اقتناعي بحصافة رأيك في الحب هو الذي عنها.

ــ هات ما لديك يا شكري، أسعد لسماعك.

نطقت جملتي بمودة لا تخطئها الأذن، فمن غير اللائق أن أطلعه على مكنونات قلبي، ولا أن أمنحه وقتاً ليبوح بلوائع عشقه، فقال:

ــ بدأت حكايتي مع زبيدة منذ حوالى ثلاثين عاما، لا، أكثر قليلا، فقد كنت حديث الالتحاق بمدرسة المعلمين في تطوان. آه زبيدة.

غمره الضحك إلى أن انخرط في السعال، وأضاف:

ــ أتعرف ما يضحكني؟

لا أعرف!

أجبته، وصمت قليلا ليطلعني على مصدر ضحكه.

ــ بالطبع لا تعرف، يالسخرية القدر، ضحكتُ من نفسي، إذ صرت مثلك، أتحدث عن لتحضر عشق قديم كاد الزمان يتلفه. ما علينا، كانت زبيدة قد جاءت إلى منزل والدي السويعات من ذلك حفل خطبة شقيقتي مليكة، معناه أنها إحدى صديقات أختي. في تلك اتخذت مكاني فوق مقعد المساء التطواني البعيد، وقبل أن يقع بصري عليها، كنت قد

للظهر، لكن ما أن لمحتها خشبي شاغر دون إرادتي، فقد كان قصيراً وبدون متكأ بأني ما كنت لأختار غير ذلك وانتبهت إلى وجودها على خطوة مني، حتى تأكد لي المقعد.

هذه وغمرني زهو الشباب وأنا أطوف بعيني أستجلي وجوه النساء الحاضرة في الحفل، أقرب عبوس ذات وجه مستدير كوجوه الفلاحات، وتلك شبيهة ببقرة عجفاء، والأخرى لتتملى فيها رغم إلى رجل منها إلى امرأة، إلا زبيدة، كانت بأنوثتها تثير الدهشة، تشدك متلبساً بالتفرس فيها، أنفك، لها عينا ظبية مشرقتان ضاحكتان، صوبتهما نحوي لتجدني أزاحتهما عني وانشغلت بلا شيء.

نفسي، هل إنها الخطوة الأولى، قلت في داخلي، وستليها خطوات أجرأ، وانشغلت بتقويم مركز اجتماعي أحسد أنا قادر على استمالتها، وحسبي أني أيضاً كنت شاباً وسيماً ذا عليه، كنت طالبا في مدرسة المعلمين.

كان على غير عادته يتحدث ببطء شديد، وكأنه يرتجل حكاية يسردها لأول مرة، فاغتنمت لحظة توقف خلالها متذكراً، وسألته:

ــ أتحسد لأنك طالب علم؟

ــ بل أحسد لأني أتقاضى راتبا شهريا، وأنا بعد أخطو نحو العشرين من عمري.

أجابني، وأضاف:

ــ قبل أن ينتهي الحفل وتغادر زبيدة المنزل، أقسمت جازماً بأنها سمكة في شبكتي، فقد همست لي مرتبكة:

ــ سأترك عنواني لدى شقيقتك مليكة.

سربتُ وقبل ذلك، وبالرغم من أن الظرف لم يتح لنا وقتاً لنتبادل أحاديث مسهبة، فقد ضخم في عبر أذنها، جملة تختصر مؤلفا كاملا في العشق، وهمست لي بمؤلف كبير الهوى، مختصر في جملة قصيرة.

تملكني الضحك انتشاء بأسلوب شكري السجي وسألته في عجلة من أمري:

ــ ماذا قلت لها، وماذا قالت لك؟

ــ أنت التي كنت أبحث عنها قبل أن أولد، لن أعشق غيرك.

صرختُ بهذه الجملة مرتين حتى تلتقطها أذن زبيدة، ذلك أن الحاضرات كن يرددن تعالي أغنية مع صوت الراحل "محمد فويتح" المنبعث من أحد التسجيلات، وفي غمرة تلك الأصوات النسائية، صرخت بدورها تجيبني:

:ــ اطلب عنواني من مليكة، واكتب لي

وتناقلت معها منذ تلك اللحظة وأنا أذوب عشقاً في تلك الأغنية، كلما تناقلت إلى أذني إلا بعبق العطور تلك الأصوات الصافية لأولئك النسوة الحاضرات في الحفل، ممزوجة لا يوصف، والأضواء، ودهشتي، وفرحي، وقلبي الصغير ينشغل، لأول مرة، بشيء يسمونه الحب الأول.

:وأخذ يردد مقطعا من تلك الأغنية باللهجة المغربية

قولولي مالُه غَيَّرْ حالُه... قولولي مال الاشقر آش جرالُه

:توقف عن الغناء وكنا قد اقتربنا من فندق السراب، فعدت اسأله

ــ ماذا بعد ذلك، كيف التقيتما؟

تلتوي ــ لم نلتق، أو بالأحرى التقينا بعد عشرين عاما، قال ذلك وسكت. كانت السيارة صفحة البحر بنا بين منعطفات الجبل، بطيئة في حركتها، وكان ضوء القمر الساقط على أخاذاً مثيراً لشجوني، فمزقت الصمت بسؤالي:

ــ لم أفهم شيئا، ألم تراسلها؟

ــ أبداً، بقيت أنتظر أن تحصل أختي على عنوانها أياما طويلة، ثقيلة، وكأني في انتظار يوم القيامة، إلى أن حلّت الصدمة الأولى.

:أسرعت بسؤاله

ــ أي صدمة؟

.ــ رفضت أن نتعارفا

:أجابني، ثم تابع حديثه

ــ بعد أيام أخرى وقلبي تنهشه النار، عادت أختي تخبرني بأن زبيدة تزوجت، وسافرت لتقيم في مدينة سبتة المغربية السليبة.

:توقف وكأن بحنجرته غصة، ثم أضاف برنة حزينة

العذريين، ــ أبا حيان، لا تقلل من شأني فتخلع عليَّ حكما كالذي أصدرته على العشاق أخفيك أني حاولت أن ذلك أن حبي لها ظل عذرياً مثالياً، دون أن أطلع عليه أحدا، لا منشغلا بها، أهرب منها إليها، أنساها، لكن أي نسيان،.ففي كل لحظة، كنت أجد نفسي أغمض عيني أو أتركهما مشرعتين، فاستسلمت لقدري. صار حلمي تعويضا لواقعي، مروضاً يركض بي إلى حيث زبيدة، فأنتشلها فأخال نفسي فارساً مغواراً أمتطي جواداً صدره سيفي، وأهرب بها بعيدا إلى منزلي في من أحضان زوجها بعد أن أغرس في

ثم أخال أشياء أخرى، وهكذا دواليك، إلى أن جبل درسة المطل على بيوت تطوان، إن المرأة تنسيك في الأخرى :التقطت أذني ذات يوم، حكمة تقول.

تطردها هللت لهذه الحكمة، وهمت باحثاً عن امرأة تنسيني زبيدة، تلغيها من وجداني، زاحمت زبيدة، من أحلامي. التقيت بالمرأة الأولى، وبالثانية، والخامسة، ولا واحدة دون أن أجدها في امرأة فزادت قناعتي بأني كنت أفتش عنها في كل امرأة أتعرف إليها، شراعي. صارت تتقاذفني نساء واحدة، فعاد مركبي لمهب الريح. فقدت سيطرتي على بعد أخرى الليل واحدة لأخرى، وحانات طنجة تعتصرني واحدة.

شكري يروي سره، وأنا أرخي أذني لسماعه في أقصى حالات اهتمامي، فقد كنت أحس صدقه في كل كلمة ينطق بها، واسترسل في سرده:

بسبب قد عُينت مدرساً في طنجة، لكني لم أقو على التدريس ــ في تلك الأيام كنت أبا حيان، محنتي وكأساتي، فأُسندت لي مهمة اقل عناء، معيد في الإدارة. لن أخفيك بعد ذلك متعة أنني في تلك السنوات الأولى من عملي انكببت على القراءة، لأكتشف هي مستعصية، إن لم الكتابة، إنك أعلم مني بحالها، فأنت الكاتب المقتدر، تدرك كم وأقعده في كتابات تمرينية، إلى تمنحها نفسك لن تمنحك نفسها. هكذا، صرت أقيم الليل عنها جميعها، لكنني بما نشرته منها أن راكمت قصصا ومسرحيات وروايات لم أفرج ونفوذاً لم يتكرم عليَّ بهما أحد، ولا يستطيع أكسبني مصالحتي مع ذاتي، حقق لي سلطة لي موقعي في جغرافية الإبداع، إلى أن قيل عني، الكاتب أن ينتزعهما منّي أحد. أصبح رأيهم وليس رأيي. المفيد أني ما عدت اقرب الشراب إلا ليلا، المؤرخ للمهمشين، هذا نهاراً، إلى أن قابلت زبيدة. أجل التقيت بها، لكن بعد أن كان الصيف أومن حين لآخر اللبن، وصارت شمسي في منحدر غروبها، هي أيضا بالرغم من أن الزمن قد ضيع بمودة تُحسد عليها، لم تنج من قبضة فصل الخريف، فقد جاءتني بكاهل مثقل عاملها تعاتبني بكمشة أولاد، تجر وراءها خيبة زواج فشل في أيامه الأولى، وقفتْ أمامي:

لماذا لم تراسلني، فقد ناولت شقيقتك عنواني مرتين؟

حالي ــ سألتني دون مقدمات وكأننا لم نفترق سوى أمس، وبإرادة مشلولة انبرى لسان يحثها على إعادة السؤال، متمنيا أن تكون أذني قد أخطأت سماعها.

فادح، تلك كانت الصدمة الثانية، أن أعلم أن شقيقتي من حال دون تحقيق سعادتي. خطأ ولكانت زبيدة امرأة أو تافه، بالنسبة لي اليوم سيان. إنما لولاه لكنت ربما شخصا آخر، أخرى، أتستوعب ما أقوله يا أبا حيان؟

ــ إني معك قلبا وقالبا، يالمضاضة ظلم ذوي القربى! إن ذلك كان مكتوبا في لوحك قبل أن تولد.

أجبته، فعاد يضيف:

ــ ليتني ما علمت بذاك الخبر، فقد وصل بعد فوات الأوان. كان أثقل مما أتحمل، تصور، مجرد خطأ يرتكبه شخص يُحوّل مجرى حياتك الهادئة إلى شقاء دائم.

كنا قد وصلنا إلى فندق السراب، وكان الأفق يعلن انهزام الليل.

(28)

فجمعت بين النهار فتحت عيني، فوجدت الظلام يخيم على غرفتي. لعل نومي كان ثقيلا بدت لي بعيدة وكأن وجزء من الليل. فكرت في آخر ليلة قضيتها مع محمد شكري، مجرد حلم. لا أدري شهوراً مرت عليها فغيبت بعض تفاصيلها عن ذهني، قد تكون! مفتاح حاولت أن أغفو ثانية، فلم أحس بأدنى رغبة في النوم، امتدت يدي تبحث عن للمرة الثالثة الكهرباء، لم تجده في مكانه، فكرت في أنه كان على يميني، أعدت الكرة أفترش الأرض ولا والخامسة دون جدوى. داهمني بعض القلق، بعد أن اتضح لي أني لأتحقق من وجودي أنا وجود لسريري، لا وجود أيضا لوسادتي. مسَّدتُ وجهي بيدي الحلاقة منذ شهور أوسنين أيضا، فازداد ذعري، إذ حسبته وجه رجل آخر لم يقرب.

تزاحمت، اشتد نبض قلبي، وارتفع هديره إلى أن وصل أذني، تشتت ذهني. أسئلة كثيرة يُعقل أن فانحبست في داخلي. أغمضت عيني وسط الظلام علني أسترجع رشدي، لا لحيتي، ألقي بجسدي فوق سريري وأنام، فأصحو لأجد نفسي أفترش الأرض، وتطول وكأني لم أحلقها منذ سنين.

أأكون بداخل قبري؟ من أين لي أن أدري! رفعت يدي لألمس سقف قبري. لا، هذا ليس به سقف.

لعله قبر ضخم يسع قامة رجل واقف أو ممدد.

أقف تحاملت على نفسي إلى أن انتصبت واقفا، ففطنت إلى أني خائر القوى. بصعوبة قدمي على رجلي. أرسلت يديّ في كل اتجاه دون أن يعترضني سقف أو جدار، لكن تعثرتا بقطعة قماش صلب حسبتها وسادتي أو جزءاً من سريري، وحين انحنيت لألتقطها تبيّن لي أنها سرج حصان، وبجانبها قطع حديدية لم تكن سوى ركاب سرج الحصان.

من جاء بها إلى غرفتي؟

لم أفهم شيئا، أو بالأحرى أجّلت أن أفهم.

لكني حين تعثرت رجلاي بالخنجر، وتحسست مقبضه وغمضه والحجرين الماسيين المرصَّع بهما، تطاير صوابي من شدة ذعري.

لم يبق ما يمكن تأجيله، باغتتني أجوبة متخفية تفضح ما احتبس في داخلي.

صرخت مستنجدا بإله السموات والأرض، عسى أن يدرأ عني كابوس هذا الحلم، فأنا لست في المغارة بل في غمرة وهم الحلم.

عفى الله عن المغارة منذ أن أخرجوني منها، وأركبوني الباخرة العملاقة محاطاً بحارسين، وكأني من قطاع الطريق.

كل شيء كان واضحاً جلياً. مفوضية شرطة الميناء، الحاج ابراهيم ضابط الشرطة الممتاز ذو العينين الصغيرتين المطلتين من وجه طويل بشارب ممزوج بالشيب، الوجه والشرطي البدين المكرش الذي جرني من قفاي كأنني كلب، والآخر النحيل أصفر عابر من تولى تدوين محضر استنطاقي. لا لست في المغارة. إني في حالة حلم سأصحو منه قريبا، سيكون لي معه شأن.

في جرجرت رجلاي خطوات باحثا عن منفذ أغادر منه الغرفة، سأكسر بابها حتى وأنا أنني حقيقة حال الحلم، لكن جبيني ارتطم بأحد الجدران لينبهني ألمي إلى صحوي، إلى بالألم والخوف قائمة في أقصى حالات وعيي وإرادتي وشعوري، في كامل إحساسي والقلق والتذكر.

إذن، لا غبار على حقيقة وجودي في المغارة بمدينة المنقب، سرج حصاني وركابه إليه أثناء وخنجري وثيابي يشهدون بذلك، ولكن، لمَ لا أكون بأحد السجون؟ نقلني القضاة نومي، وأحضروا أغراضي من المغارة! كل شيء محتمل الوقوع.

أن أكون سجينا بداخل حجرة في أحد السجون، محتمل جدا، إنما أن يتولى القضاة حبسي دون محاكمة، فهذا بعيد الاحتمال، لكن الشرطة يمكنها ذلك، ولو من قبيل القضاء الانتقام، فهي الوحيدة التي لم يقنعها دفاعي عن نفسي، فبعد أن أحالتني على سلامتي من كل متلبساً بجريمة الهجرة السرية، تلقت أمراً بحراستي والحفاظ على الارتياب، على الأقل من مكروه وأنا أقيم في أضخم فندق في البلد! شيء يدعو إلى وجهة نظرها.

المغارة لن لا، لا يعقل أن أكون في المغارة، فأغراضي كوسائل إثبات على وجودي في

أعمدة الكهرباء .ترجح على شهود عيان عاشرتهم في طنجة، وما شاهدته وما خبرته الظلمات. دركات المبثوثة على جوانب طرق معبدة. فندق السراب المطل على بحر أخرى تصعد بك .ثلاث تفضي بك إلى داخل مطعم ريتز في شارع موسى بن نصير هناك في الصالة المشرفة .إلى مطعم بيركولا المواجه للميناء والبحر الأبيض المتوسط وأنشدت الحضور أحلى أغاني على البحر، قمت بدوزنة العود الذي جاءني به شكري، من جيلي، ضمتنا مجالس عامة وأخرى عُليَّه بنت المهدي البغدادية، آه عُليَّه! إنها وصديقي أبو ناصر الفارابي، لكن ابن خاصة رفيعة. غنت لنا وغنينا في حضورها أنا الغناء بالرغم من إجادته الاستماع، تلك حكاية مسكويه الحاضر دوما، لم يكن له في الآن فهو أيام طنجة، تلك التي تتماهى بين الحقيقة والحلم، قديمة حقيقية، أما ما يشغلني مجرد حلم؟ هل يمكن أن تكون

في مطعم بيركَولا، ارتمى علي شكري مقبلا رأسي ويدي، اغرورقت عيناه بالدموع وهو يخاطبني:

ـــ أنت أعظم فنان في هذا العصر.

الملتوي، أسرّ لي في تلك الليلة ذاتها، بعد منتصفها، والسيارة تختال بنا في طريق الجبل غيري قصة حبه الأول، تلك الحكاية المثيرة التي لم يبح بها لأحد.

إذن عشت في طنجة، واقع يشهد به وكيل الملك والوكيل العام ووزير العدل نفسه، من أين لي بهؤلاء الشهود؟

أعياني وقوفي، فتهالكت على الأرض، جلست القرفصاء، وهمت مفكرا، زكمت أنفي على رائحة رطوبة عطنة، هي الرائحة ذاتها الموجودة بالمغارة القديمة. عدت لأقف المغارة قدمي، ودلفت بين أرجائها باحثا عن منفذ بها، فلم ألمس سوى ما لمسته في مرة ثانية؟ السابقة، أتكون هي ذاتها؟ بماذا يمكن لي تفسير عثوري على نفسي بها أيعقل أن أُحمل من فوق سريري بفندق السراب بطنجة ويُلقى بي داخل مغارة لا منفذ بها في مدينة أندلسية نائية؟

إما أني عشت في طنجة حقيقة وعودتي للمغارة حلما، وإما أني لم أغادر المغارة أبدا فتظل أيام طنجة حلما!

طنجة، ذلكم هو المنطق القويم، هو ما يدل عليه سرج حصاني الذي حملني من فاس إلى وثيابي ولحيتي وخنجري الذي رافقني من بغداد إلى هذه المغارة في الأندلس، وسراويلي لأستريح بها ليلة واحدة الكثة الطويلة، بمعنى أني لم أغادرها منذ أن ولجتها بإرادتي.

لا يُعقل أن أنام عشرة قرون، لا يعقل أن يعيش المرء حاضرين في زمانين يبتعدان عن بعضهما عشرة قرون!

الآن، ولو أني كنت في حالة حلم، أتفطن إلى سبب رفض المغاربة تصديق قدومي إليهم من عصري العباسي البائد، أنا نفسي لم أقبل بذلك!

المغارة إن الحقيقة الصارخة القاسية هي التي أواجهها هذه اللحظة، هي استيقاظي في محاصراً بداخلها بعد نومي بها ليلة أو ليلتين، ولربما قام أحدهم بسد منفذها فبقيت.

أما صحوتي السابقة وخروجي من المغارة فقد كان مجرد حلم، تماماً مثل أناس طنجة، فلم أتعرفهم سوى في الحلم.

من يؤكد لي حقيقة وجود رجل يدعى محمد شكري مقيم في طنجة؟

إنه شخص هلامي من الشخوص الحاضرة في الحلم، وبالرغم من ذلك فإن مرافقته أدفأت أيامي وليالي، وكأني عاشرته حقيقة!

وراء ما يؤكد أن ما حدث كان حلماً، هو قوله ذات ليلة إن الحضارة الحقة تأتي من أني البحر، من لدن الغرب المسيحي، ونحن العرب مجرد مستهلكين لها، الغريب صدقت ذلك!

أتذكر في السياق نفسه، جواب وزير العدل بعد أن سألته:

ــ من تعني بغير العرب؟

ظاهرة ــ أقصد الغرب المسيحي، فمنذ النهضة التي شرع فيها قبل خمسة قرون، ونحن وقع التنبيه لأبحاثه واكتشافاته، ويكفي إخبارك بأنك أنت شخصياً أبو حيان التوحيدي إليك، وإلى مؤلفاتك من لدن الغرب قبل العرب.

يا لضعفي الإنساني وهشاشة عقلي في غمرة الحلم، فقد سلمت بهذه الأخبار وهي تنافي المنطق!

من يصدق أن من كان وراء اكتشاف قيمتي العلمية والفكرية ونبه إلى مؤلفاتي هو الغرب المسيحي؟ مهزلة! بهتان!

في أما الشخص الآخر وكيل الملك، أحد الشخوص الهلامية في مشهد الحلم، فقد توغل لدغة الهذيان، حين زعم أن الأندلس سقطت في قبضة النصارى إمارة إمارة، خرافة، أحلام! هذيان حقيقي!

العرب لا أحمدك يا ذا الجلال والإكرام، أن ما وقع كان مجرد حلم، وأن الأندلس مفخرة والشعراء، إنها هناك، مثلما تزال عدوة مغربية عربية إسلامية منبثاً للعلماء والأدباء

العراق الحبيب قوة شامخة هناك.

دولة أي معتوه هذا، سيخطر بباله تعرض العراق للدمار والنهب؟ ومن قبل من؟ من لدن استنبطها في غير موجودة! أوجدوها في حلمهم وسموها أمريكا! أو بالأحرى أنا من حلمه، أنا من خلقهم جميعا في حلمه! يا لخرافة أحلام المغارات!

عمرها من يقوى على هزم خلافة إسلامية عربية مسيّجة بأشقاء مسلمين عربا؟ دولة سومر إلى كما قيل في الحلم، خمسمائة عام، تهزم العراق، منبع حضارات الدنيا من حضارة الإسلام؟ خرافة، هراء، كلام قيل في لحظة لا وعي!

استقمت واقفا وخطوت إلى الأمام ورجعت إلى الخلف، ثم عدت فجلست على الأرض وأنا لا يشغلني سوى هذا الحلم.

لكن الأحلام لا تتداعى بهذه التفاصيل الصغيرة الدقيقة الواضحة، وكأنها الواقع المعيش. لعل الأمر يتعلق برؤية وليس بحلم. أحداث الرؤى ترسخ في أذهان أصحابها دون أن تتباهت أو تتلاشى كالأحلام.

بكل تأكيد هي رؤية حقيقية، من تلك التي يخص بها الله عباده من الصفوة الصالحة الزاهدة في الدنيا.

ألم أكن زاهدا في حياتي العراقية والإيرانية؟

تتحقق، لكن الآخر الموجود بداخلي يلح أن أعتبرها مجرد حلم، ذلك أن الرؤى غالبا ما سلام على الأندلس، وإذا ما كتب لهذه أن تنفذ إلى الوجود فتتجسم واقعاً عينياً، حينذاك مستضعفة، بشرا، حيوانات سنغادرها لتصبح حضارتنا في خبر كان، سنتحول إلى قبائل

أنا في صف الآخر الموجود ترعاها حضارة مسيحية جديدة، لا لا لن تكون رؤيا، أنها رؤيا، لن يصدق أننا العرب بداخلي، أقول معه، أن من يملك ذرة منطق، لن يصدق لتجارب غيرنا، أبدا أبدا، ليست مصدري العلم والوعي سنصبح منقرضين، ظاهرة عابر منفلت، حلم مضحك، يدعو إلى الشفقة رؤيا، ليست عالماً ممكنا، إنها مجرد حلم!

إني في المغارة الأندلسية، ليس لي من مؤنس سوى أحلامي، حلم طنجة كان متنفسي يبحثون الوحيد لأظل حيا، أما ما يحدث في الواقع، هو أن خلاني المغاربة في انتظاري المسلمة عني، سوف يهتدون إلى مكاني، وسأنضم إليهم لنكمل رحلتنا إلى غرناطة بعضها البعض العربية، سنتبارى في سرد أحلامنا، فجميعنا أقمنا في مغارات يشبه.

تنفيذا لاتفاقنا، آه نهاوند، الحبيبة البغدادية الغالية، لا ريب أنها في طريقها إلى غرناطة مسامعها تفاصيل حلمي سألتقي بها صباح يوم جمعة في جنة العريف، سأقص على

وتعرض العراق للدمار المغربي، وكيف تعرفت إلى محمد شكري ونبأ ضياع الأندلس، والنهب، ستضحك مثلي.

لكن حتى ألتقي بها، عليَّ أن استجمع قوتي لأعود إلى قرع الجدار.

ياله من حلم غريب!

بحثت عن خنجري، أمسكت به وطفقت أقرع الجدار وأصرخ، لكن لا أحد انتبه إلى قرعي أو سمع صراخي، فاستبدلت بخنجري سرج حصاني، نزعت الركاب عنه به ذا الجدار وذا الجدار، محدثا ذوياً يخترق سمع الأصم، لا أتوقف إلا وصرت أقرع بأن أن يكلَّ مثني، وأعيد القرع والصراخ مرات تضيع في العد، إلى أن صار يقيني بعد هذا الجحر المسكون بالظلام والأحلام، سيكون لا محالة قبري.

بعد أن استسلمت لقدري، وسقطت على الأرض ناطقاً بشهادتي، ذوى في أذني صدى لطرق من الخارج، بعد لحظات تأكد لدي الطرق بوضوح لا لبس فيه، ففاضت عيني الجدار بالدمع إعلانا عن ولادتي من جديد، إذن أنا حي أرزق. وقفت، وعدت لأقرع وأصرخ:

ـــ أنا أبوحيان، أغيثوني.. أغيثوني.